

301.
522
C.1

A.U.B. LIBRARY

DATE DUE

J. Lib.

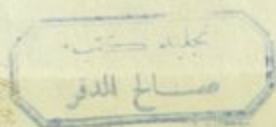
~~1 FEB 1955~~

J. Lib.

~~1 FEB 1955~~

J. Lib.

~~1 FEB 1955~~



- PP 37
- PP 116
- PP 243

301.15:Sa271A

السيد ، فؤاد البهي .

علم النفس الاجتماعي .

FEB 21 A70

18 DEC 74 73-1272

301.15
Sa271A

MR 26 55

MR 1 55

10 MAR 65

JAFET LIB.

17 DEC 1977

2 JUL 66

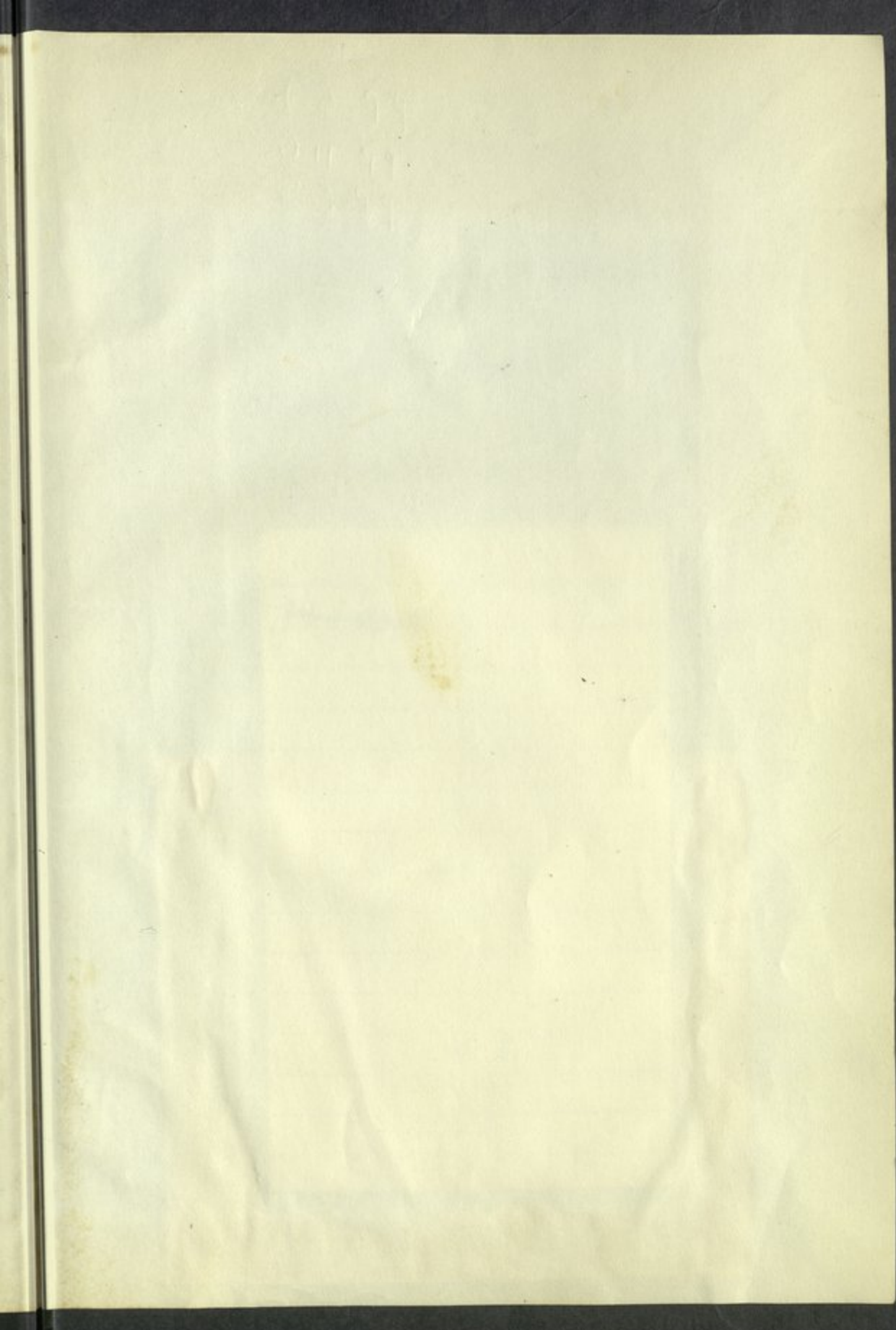
28 JUL 67

1 OCT 67

25 JUN 1975
25 JUN 1975

JAFET LIB.

22 JUL 67



علم النفس الاجتماعي



تأليف

الدكتور فؤاد البهي السيد

مدرس علم النفس الاجتماعي بجامعة ابراهيم
معهد التربية العالي للمعلمين

مُنَظَّم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

مَجْلَدُ التَّحْقِيقِ الْمُسْتَقْبَلِ



الطبعة الأولى ١٩٥٤

مَجْلَدُ التَّحْقِيقِ الْمُسْتَقْبَلِ

مجلد التحقيق المستقبلي
الطبعة الأولى ١٩٥٤

مجلد التحقيق المستقبلي

طبعة الاعتماد بمصر

اللهم منك وإليك
بك اهتديت
وعليك توكلت

تِلْيا لَمْ تَلْمَقُوا
تَلْمَقُوا لَمْ تَلْمَقُوا
تَلْمَقُوا لَمْ تَلْمَقُوا

مقدمة

موضوع هذا الكتاب دراسة نفسية لتفاعل الفرد مع الأفراد الآخرين ، ومع الثقافة القائمة ، وتأثره بهما وتأثيره فيهما .

وتقوم فكرته الجوهرية على إنشاء نموذج علمي يتألف من خطوط موجبة ، تصل الفرد ببيئته ، وترمز لتفاعله ، وتهبط إلى أعماقه السحيقة ، وتتساقط إلى آفاقه البعيدة . وهي تنشئ من هذا كله شبكة متسقة منتظمة ، تتصل سداتها بلحمتها ، وتسفر في تكوينها النهائي ، وبنيتها المتكاملة عن صورة منطقية علمية رياضية ، نفسية اجتماعية ، تصلح لدراسة الفرد والجماعة .

بهذه الفكرة وحدها تستطرد فصول هذا الكتاب من الحياة الاجتماعية عند الحيوانات إلى الحياة الاجتماعية عند الإنسان ، إلى وسائل الاتصال الاجتماعي ، إلى مدارج وأنواع العلاقات الاجتماعية ، إلى دراسة الأسس النفسية لتقسيم الجماعات ، إلى تحليل علمي لسيكولوجية الجماهير والجماعة المستمعة .

ثم تمضي هذه الدراسة في طريقها العلمي لتقيم الأسس النظرية لتفسير العلاقات الاجتماعية في إطار العقل الجماعي ، والنظرية السكلية الحيوية ، ونظرية المجال وديناميكية الجماعات . ثم تتناول هذه الأسس المختلفة بالنقد والتحليل لتخرج من ذلك كله بآراء جديدة .

ثم تمضي لتستعرض الوسائل العلمية الحديثة لقياس العلاقات الاجتماعية ؛ فتستطرد من التخطيط الاجتماعي ، إلى مصفوفات العلاقات ، إلى طريقة المؤلف في تحليل المصفوفات ، إلى المعاملات الإحصائية التي تهدف لرصد وقياس مدى ثبوت الجماعة ، وتماسكها الداخلي ، وشدة العلاقات ، والتفاعل الاجتماعي للأفراد .

وتنتهى فصول هذا الكتاب بدراسة تحليلية مقارنة لدوافع السلوك في إطارها العام وإطارها الاجتماعي ، فتبدأ بالدراسة الفسيولوجية والنظرية السلوكية ، ثم تستطرد منها إلى الدراسة التتبعية والنزعات الفطرية ، ودراسة النمو والاستقلال الوظيفي ، ودراسة الطفولة والحاجات النفسية ، ودراسة الطاقة والنظرية الكلية الحيوية ، والدراسة الإحصائية والانفعالية العامة ، والدراسة الديناميكية ومجال السلوك ؛ ثم تقرر بعد ذلك كله أنه خليق بكل دراسة من تلك الدراسات أن تلتزم حدود نتائج مقدماتها المنطقية ومنهجها العلمى ، حتى لاتضل قصد السبيل فتجنح إلى آفاق لم تُحط بها خُبراً .

ثم تمضى إلى دراسة الاتجاهات والتعصب كدوافع عامة مكتسبة ، وإلى دراسة الإطار النفسى والمعايير والقيم الاجتماعية كدوافع عامة مكتسبة معيارية .

وهكذا ترسم هذه الدراسة صورة للفرد في إطار دوافعه ومثله العليا التى ما تكاد تلوح له من بعيد حتى يعدو فى إثرها ، ويقع فى حذسه أنه بالغها ، فتتيسر الأهواء قلبه ، ويدفع عنها الفواشى التى تحجب حقيقتها ، فتتضاءل خيال ناظره وتخفت وتزول . ثم تلوح له مثل أخرى فى آفاق حياته الواسعة العريضة فيمضى قدماً ليرقى صُعداً فى مطالع لاتغرب حتى تشرق من جديد . فهى إذن بهذا المعنى ، صورة ديناميكية نامية متطورة .

فؤاد البرى السبى

١٠ مارس سنة ١٩٥٤

الباب الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

«وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ
مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ»

والتي هي من الكتب القديمة جدا في تاريخ
العلم والمعرفة الإنسانية لا سيما في تاريخ
الدراسة العلمية والتاريخ الطبيعي والاسطولوجيا
والفلك والجيولوجيا والنباتات الطبية والدراسة
الاجتماعية والاصناف العامة والدراسة التاريخية
والعلمية من حيث ان تقدم هذه العلوم
الطبيعية ومنهجها العلمي حتى لا نصل الى
الطريق الصحيح بل ان كل علم

ثم نمر الى دراسة الاحداث والتاريخ كمنهج عام في
الاعمال العلمية والتاريخ القديم والحديث

وهكذا نرى ان دراسة التاريخ هي من العلوم
التي لا يمكن ان تكون منفصلة عن العلوم
الطبيعية والدراسة العلمية والتاريخ الطبيعي
والاجتماعي والاصناف العامة والدراسة
التاريخية من حيث ان تقدم هذه العلوم
الطبيعية ومنهجها العلمي حتى لا نصل الى
الطريق الصحيح بل ان كل علم

الباب الأول

دراسة تمهيدية

الفصل الأول: علم النفس الاجتماعي : أهميته ، تعريفه ، تطوره .

الفصل الثاني : طرق البحث في علم النفس الاجتماعي .

الفصل الثالث : الحياة الاجتماعية عند الحيوانات .

علم النفس الاجتماعي

أهميته — تعريفه — تطوره

أهمية علم النفس الاجتماعي

إذا جاز لنا أن نفرض إمكان بحث كل علاقة اجتماعية ، بحثاً علمياً موضوعياً ؛ وإذا جاز لنا أن نفرض أن شقاء النوع الإنساني يرجع في جوهره إلى اختلال النظم الاقتصادية القائمة في جميع أنحاء المعمورة حيث تجحف الناس في توزيعها للعمل والجهد والثروات . وإذا جاز لنا أن نفرض أن اختلال تلك النظم يصدر عن جهل بطباع الإنسان الاجتماعية — جاز لنا بعد كل ذلك أن نفرض أن في مقدور الأبحاث الاجتماعية النفسية أن تنقذ العالم من الهوة السحيقة التي يوشك أن يتردى فيها ، وأن في مقدورها أيضاً أن تُنشئ الدعائم الأساسية لحياة اجتماعية فاضلة نقية .

فالأزمات الاقتصادية والسياسية تنشأ من ضعف الثقة القائمة بين فرد وفرد ، وبين جماعة وجماعة ، وبين أمة وأمة أخرى . والنقمة حالة نفسية يمكن للعالم أن يدرسها ، فيُلمَّ بعوامل قوتها وعوامل ضعفها .

ويُرجع بعض الباحثين أسباب شقاء المجتمع الراهن ، إلى عدم ملائمة النظام النقدي للتطورات الحديثة في الإنتاج والتوزيع . ولقد أدى هذا الاختلال إلى ظهور مناطق مختلفة يهيمن عليها تعصب اقتصادي ضيق . كمنطقة الاسترليني ومنطقة الدولار . وتغالت الدول في إقامة الحدود المالية التي تفصلها عن جيرانها رغبة منها في حماية نفسها وحماية أفرادها من تدفق إنتاج الشعوب الأخرى عليها . فأقامت حواجز جمركية ، وحالت بين التجارة وبين حرية أسواقها . وتلك بدورها تعود في جوهرها إلى جنوح العلاقات الاجتماعية بين الدول عن الطريق السوي ، لفقدان الثقة العامة .

والإنسان في علاقاته الاجتماعية هو مناط البحث في علم النفس الاجتماعي .
ودراسة تلك العلاقات وما يلابسها من أسباب ومسببات وعلل ومعلولات هي وسيلة
العلم وهدفه في إنشاء فردوس واقعي . ومستقبل الحضارة الإنسانية، في عصر كثر فيه
التنازع والتنابد وتقدمت فيه وسائل التخريب والدمار حتى أمست تهدد بقضاء
النوع الإنساني كله — رهن بفهم تلك العلاقات فهماً علمياً دقيقاً ، ورهن بتوجيه تلك
العلاقات توجيهاً متناسقاً لا اضطراب فيه ولا اختلال . أى أنه رهن بتقدم علم
النفس الاجتماعي في بحثه الدائب المستمر نحو استجلاء كنه عناصر الخير والشر في
علاقات الإنسان الاجتماعية . ورهن بدقة رصده للظواهر العلمية النفسية الاجتماعية .
و بقدرته على ضبطها والتنبؤ بها قبيل وقوعها .

ويذهب برود C. D. Broad إلى أن التقدم السريع الذي أحرزته العلوم الطبيعية
فاق بكثير تقدم العلوم الإنسانية ^(١) . فاختلفت بذلك دورة التقدم ، لإسراعها في
ناحية وتأخرها في ناحية أخرى . وهكذا اكتشف الإنسان عوامل الفناء قبل أن
يستوثق من معرفته لعوامل التكوين والبقاء ^(٢) .

تعريفه :

علم النفس الاجتماعي ، علم حديث العهد بالوجود كعلم . وهو رغم ذلك متشعب
في تعاريفه وأبحاثه . وأهم ما يهدف إليه هو دراسة السلوك الاجتماعي للفرد ، ثم هو
يصبو بعد ذلك لبناء مجتمع جديد فاضل ، تتكافأ فيه الفرص لجميع الناس في حدود
قدراتهم المختلفة ، وتتسع وحداته الاجتماعية لترقى من الوطن إلى النوع الإنساني كافة ،
وتشيع بين أرجائه الحرية الإنسانية . وهو يسعى لتحقيق هذه المثل العليا بدراسة
الاتجاهات البشرية ليخضعها لتجاربه وأبحاثه ، ويسير بها قدماً لخلق مجتمع سوى .

وهو كما تدل تسميته عليه يبحث في الميدان العلمي المشترك بين علمي النفس
والاجتماع . ويُعرف بأنه العلم الذي يتناول بالوصف والتجريب والتحليل سلوك

(1) Broad, C. D., The Mind and its Place in Nature, 1925, pp. 664

(2) "But physics and death have a long start over psychology and life." Quoted from, Brown, J. F., Psychology and the Social Order, 1936, p.11.

الفرد مع الأشخاص الآخرين واستجابته لهم ؛ سواء أكان هؤلاء الأشخاص مجتمعين أم متفرقين . أى أنه العلم الذى يعنى بالدراسة العلمية لسلوك الفرد حين تأثره بسلوك الأفراد الآخرين وحين تأثيره فيهم . وبذلك يهدف الباحث فى علم النفس الاجتماعى لاكتشاف العوامل التى يتغير بتأثيرها سلوك الفرد فى استجابته للمثيرات الاجتماعية المختلفة . ولقد أحصى J. R. Kantor أهم تعاريف علم النفس الاجتماعى فيما يأتى :^(١)

- ١ — دراسة الجمهرة وظاهرة التجمع .
- ٢ — دراسة الحياة العقلية الجماعية .
- ٣ — دراسة القوى والمؤثرات الاجتماعية .
- ٤ — دراسة سلوك الفرد فى استجابته لسلوك فرد آخر .
- ٥ — دراسة السلوك الفردى داخل إطار الجماعة .
- ٦ — دراسة سبل اكتساب الصفة الاجتماعية .

لكن كل تعريف من هذه التعاريف يجنب نحو ضرب خاص من الاتجاهات التى أثرت فى تطور علم النفس الاجتماعى . فالتعاريف الثلاثة الأولى تهتم بالجماعة أكثر مما تهتم بالفرد ؛ وهى بهذا تميل بعلم النفس الاجتماعى ميلاً شديداً نحو ميادين علم الاجتماع . والتعريفان الرابع والخامس يؤكدان أهمية الفرد دون العزوف عن أثر الجماعة ؛ وتلك وجهة صحيحة تتفق وميادين الدراسات النفسية . والتعريف الأخير يقتصر ميدان البحث على مظهر واحد من مظاهر السلوك الاجتماعى للفرد .

والعلاقات القائمة بين الفرد والجماعة ، وبين الجماعة والفرد قد تكون جلية واضحة أو خفية مستترة ، مباشرة أو غير مباشرة . ومثل الفرد فى علاقته المباشرة مع الجماعة كمثل الذى يهتف أو يصيح فى مظاهرة ما ؛ ومثل العلاقة غير المباشرة كمثل الذى يستمع إلى المذياع فيخرج عن أطواره العادية ويصيح معجباً أو يصيح ساخطاً ؛ ومثل العلاقات الخفية كمثل بعض العوامل التى تؤثر فى التنشئة الاجتماعية للفرد .

وتعريف علم النفس الاجتماعى — الذى أسلفنا ذكره — ليس جامعاً مانعاً ، بل إنه يميل إلى الانطلاق والاسترسال أكثر مما يميل إلى التحديد المنطقى . وعلة ذلك

(1) Kantor, J. R., An Outline of Social Psychology, 1929.

حدثا عهد علم النفس الإجتماعى بالوجود والتكوين العلمى ؛ والسرعة الفائقة التى يتطور بها ؛ واتساع ميادين بحثه ؛ وارتباطه بعلم الاجتماع وعلم الأجناس البشرية وعلم الاقتصاد السياسى وعلم السلالات البشرية .

هذه العلاقات التى تربطه بالعلوم المختلفة تزيد فى أهميته ، ذلك لأن تعريفنا لعلم النفس الاجتماعى على أنه دراسة السلوك الاجتماعى للفرد يلقى ضوءاً على مدى علاقة تلك العلوم به . فنتأخر أبحاثه التجريبية تساعد على نمو وتقدم تلك العلوم لاتصالها المباشر بدراسة الحركات والاتجاهات والتيارات الاجتماعية فى صورها المختلفة سواء منها الاجتماعية البحتة ، أم التاريخية التتبعية كما هو الحال فى علم الأجناس البشرية ، أم الاقتصادية السياسية ، أم دراسات مقارنة كتلك التى يتناولها علم السلالات بالبحث والتحليل .

وبينما يهتم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى بدراسة أنماط المنظمات الاجتماعية والقوى المختلفة التى تعمل على ظهور نظام ما ، يهتم علم النفس منذ نشأته الأولى بدراسة شعور الفرد واستجابته لمثيراته الداخلية البحتة . وكذلك يهتم بدراسة شعور الفرد بالأفراد الآخرين وتأثره بهم وتأثيره فيهم ، وبدراسة شعور الفرد بالبيئة المحيطة به وتفاعله معها — نجد أن علم الاجتماع يهتم بدراسة الناحية الثانية فى التقسيم السالف الذكر دون أن يغفل علاقة هذه النواحي الثلاث بعضها ببعض .

وبذلك تبدأ الدراسة الاجتماعية لعلم النفس الاجتماعى بالجمهرة والأسرة وغيرها من المنظمات الاجتماعية وتنتهى من ذلك كله إلى الفرد كجزء من الجماعة . وتبدأ الدراسة النفسية ببحثها فى علم النفس الاجتماعى بتفاعل الفرد نفسه وبالعلاقات التى تنشأ من دوافعه وشخصيته وينتهى بها المطاف إلى الجماعة . فأولى إذن بالدراسات الأولى أن تسمى علم الاجتماع النفسى ، وأن تستقل الثانية بعلم النفس الاجتماعى . هذا والطريقة الأولى تبدأ بالعام لنتهى إلى الخاص ، والثانية تبدأ بالخاص لنتهى إلى العام . ونعنى بالتعميم هنا صفات الجماعة ، وبالتخصيص صفات الفرد . فالطريقة الأولى أقرب ما تكون لمنطق العلوم النظرية كالرياضة مثلا . والطريقة الثانية أقرب ما تكون لمنطق العلوم التجريبية كالطبيعة والكيمياء .

نشأته وتطوره

بدأت العلوم الإنسانية من الفلسفة وإليها تعود ، بدأت منها حينما كانت محاولات بدائية بسيطة لفهم الإنسان والكون المحيط به . ثم انفصلت عنها التذشء لنفسها ميادين خاصة للبحث ، ثم عادت إليها تستلمها آفاقاً جديدة للدراسة والاستكشاف .

والعلم يصف ويحلل ، لكنه عند ما يرتطم بجوهر الأشياء ومكوناتها وعللها الظاهرة والباطنة ، يعود إلى الفلسفة ثانية . أى أن الوظيفة الأولى للعلم هى وصف كيفية حدوث الظاهرة لاتعليل حدوثها . وحينما يتناول الباحث علة حدوث شىء ما فإنه بذلك يخرج من ميدان العلم المجرد إلى ميدان فلسفة العلم .

النشأة الفلسفية :

هكذا بدأ علم النفس الاجتماعى بين أحضان الفلسفة ، وكان وقتئذ جزءاً من الفلسفة الاجتماعية ، ثم وضع منهجه بعد ذلك وتحددت طرق بحثه وتكونت له مدرسته واصطلاحاته الخاصة .

ويرجع بعض الباحثين النشأة الأولى لعلم النفس الاجتماعى إلى آراء أفلاطون وأرسطو عن جوهر الطبيعة البشرية ، فكان أفلاطون يفسر سلوك الإنسان على أنه النتائج العام لمؤثرات المجتمع المختلفة . فسلوك الفرد يعتمد فى تكوينه وأهدافه على الجماعة . وكان يعتقد أن فى مقدور الهيئات التعليمية والاجتماعية تغيير الطبيعة البشرية فى أى اتجاه ما . ولقد أعلن فى صراحة قوة المبادئ والنظم التى تقوم عليها المدينة الفاضلة وسعى بفلسفته إلى تحقيقها فى كتابه « جمهورية أفلاطون » .

وكان أرسطو يفسر سلوك الإنسان على أساس الوراثة البيولوجية ، أى أن الإنسان يخضع فى أنماط حياته المختلفة للمؤثرات والاستجابات البيولوجية ، فالجماعة لديه خاضعة فى مكوناتها لسلوك الفردى . وبما أن تغيير الأساس البيولوجى للفرد أمر يكاد يكون مستحيلاً ، فتغيير المجتمع إذن أمر شاق عسير بعيد المنال .

ولقد اهتم أفلاطون وأرسطو وسانت أوجستين St. Augustine ولوك Locke

و بنثام Bentham وطائفة أخرى من الفلاسفة الاجتماعيين بمشكلة الفرد والجماعة ، والأهمية النسبية لكل منهما ، فالمغالاة في حقوق الفرد كفرد دون أى اعتبار لحقوق الجماعة تؤدى إلى الفوضى ، والمغالاة في حقوق الجماعة كجماعة دون أى اعتبار لحقوق الفرد تؤدى إلى النظم الاستبدادية ، والعدل والمساواة بين الفرد والجماعة يؤدى إلى الديمقراطية .

ولقد أعلن هويز T. Hobbes فى سنة ١٦٥١ أن الإنسان بطبيعته أنانى مغال فى إثارة الدائم لنفسه ^(١) ، فلا صلاح للناس إذن إلا إذا حدد المجتمع بنظمه وقوانينه من هذه الأنانية وأتاح للأفراد أن يعيشوا متحابين متعاونين . ويلخص هويز دوافع السلوك البشرى فى البحث عن المتعة والابتعاد عن الألم ، وهو فى هذا متأثر بمذهب « اللذة » Hedonism الذى نادى به سقراط ، ويتلخص هذا المذهب فى أن الفرد ينزع بسلوكه إلى كل ما يحقق لذة له ، ويعرف عما يؤذيه .

ويخالفه فى ذلك جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau حينما بسط أراءه فى كتابه « العقد الاجتماعى » سنة ١٧٦٢ ، وملخصها أن الإنسان بطبيعته خير نقي طاهر ^(٢) ، طابعه العام نكران الذات ؛ لكن الحضارة هى التى أفسدته وصبغته بالشر .

لكن الخير والشر أمور نسبية تخضع فى معاييرها للإطار الاجتماعى الذى يعيش فيه الفرد ، والإطار الاجتماعى مركب معقد من علاقات مكانية وزمانية ، وتقاليد وطقوس معينة ، وعوامل أخرى عدة . فالقتل فى الحروب خير والقتل المتعمد فى السلم شر ، وتعدد الأزواج للمرأة الواحدة فى جميع المجتمعات الراقية شر بالغينما هو أمر عادى فى بعض المجتمعات البدائية مثل سكان هضبة التبت بأسيا ، فالفرد إذن خاضع فى معاييره الخلقية للتراث الاجتماعى وللثقافة الخاصة والعامة التى تؤثر فيه ويؤثر هو بدوره فيها .

هذا وقد اتخذ البحث فى السلوك الاجتماعى للفرد وجهة جديدة حينما أعلن منتسكو Montesquieu مذهبه الذى يرجع السلوك الاجتماعى للفرد لأثر المناخ ^(٣) . ومن المحدثين

(1) Hobbes, T., Leviathan.

(2) Rousseau, J.J., Du Contract Social.

(3) Charles de Montesquieu ; Quoted from : La Piere, R.T., and Farnsworth, P. R., Social Psychology, 1942, P. 12.

الداعين لهذا المذهب هلباتش Hellpach حيث بسط أراءه في كتابه «الجغرافية النفسية»^(١). وهينتينجتون Huntington في كتابه «علاقة موسم الولادة بالقدرات العقلية»^(٢). ولقد ظن منتسبكوه أنه اكتشف ارتباطاً قوياً وعلاقة واضحة بين السلوك البشرى والتغيرات المناخية والإقليمية العامة، وكان يعتقد أن المناخ الحار أثراً قوياً في انتشار الرق وأن المناخ البارد لا يساعد على الرق. فارتفاع درجات الحرارة يساعد على التحول والكسل وبذلك يصبح الرق ضرورة لدفع الناس للعمل، والبرودة تساعد على النشاط والعمل وبالتالي يصبح الرق أمراً ثانوياً لضرورة له. وبنفس هذا المنطق حاول ممتسبكوه أن يفسر أنماط النظم السياسية، والطبقات الاجتماعية، والتكوين العائلي، والتقاليد والخلق. لكن هذه الآراء تنطوي على قدر كبير من المغالطة والمبالغة وتتعارض مع مظاهر الحياة الاجتماعية. فالهجرة لا تؤثر كثيراً في السلوك الاجتماعي للفرد، وتشابه بعض النظم الاجتماعية في المناطق الجغرافية المختلفة كتعدد الزوجات في المناطق الحارة والمعتدلة والباردة يثير كثيراً من الشكوك حول صحة هذا المذهب.

و بظهور كتاب «أصل الأنواع» لتشارلس داروين C. Darwin سنة ١٨٥٩ الذي أعلن فيه نظريته في النشوء والارتقاء، تجاوزت ميادين العلم المختلفة بصدى هذه الآراء الجريئة، وتأثرت نشأة علم النفس الاجتماعي بهذا الاتجاه الجديد فنادى هربرت سبنسر H. Spencer سنة ١٨٩٧ بأن السلوك الاجتماعي يتبع في نموه خطوات خاصة معينة تخضع لقوانين أساسية في تطورها؛ وبأن المجتمع مركب فوق العضوى Superorganic يتطور في تكوينه وسلوكه وأهدافه، وبأن دراسة السلوك الاجتماعي للفرد يجب أن تبدأ بدراسة النشأة الأولى لهذا السلوك وبتتبع المراحل المختلفة التي يتطور فيها.

علم النفس الاجتماعي بين الفلسفة والعلم:

لعلنا لانكون مبالغين إذا قلنا إن لازارس Lazarus وستينثال Steinthal هما

(1) Hellpach, W., Geopsyche, 1935.

(2) Huntington, E. H., Season of Birth, its Relation to Human Abilities, 1938.

المؤسسان الأولان لعلم النفس الاجتماعى . فقد أصدرتا مجلة لهذا العلم سنة ١٨٦٠ . ولقد لخص لازارس أهداف هذه المجلة فى السعى لاستكشاف القوانين العلمية النفسية العامة التى تحرك الجماعات كوحدة ، والتى تؤثر فى هذه الوحدة ، وفى الدراسة العلمية لحياة الجماعات كما تبدو فى لغتها ودينها وخلقتها ، وفيما يطرأ على عقول الناس من تغيرات تنحو بالاجتماع إلى السمو أو إلى الانحدار . وكانت للملاحظة الدقيقة هى الوسيلة العلمية لتلك الدراسات . فهى إذن مرحلة تلى النشأة الفلسفية لعلم النفس الاجتماعى وتؤدى إلى مرحلة الأبحاث التجريبية . ولقد قسّم لازارس وستنثال ميدان علم النفس الاجتماعى إلى ميدانين : الأول يبحث فى العوامل النفسية الاجتماعية العامة التى تفسر سلوك الجماعات كافة ، والثانى يبحث فى العوامل التى تفسر سلوك كل نوع من أنواع الجماعات .

ولقد اتجه فونت W. Wundt فى دراساته لعلم النفس الاجتماعى وجهه تقرب من طريقه لازارس وستنثال . فعلم النفس الاجتماعى يعنى لديه النتائج العقلية العام للجماعات كما يبدو فى اللغة والقوانين والأساطير والعرف والفن وكما يبدو فى العوامل النفسية التى تؤثر فى الأسرة والقبيلة والعشيرة والدولة . وهو لا يفصل بين علم النفس الاجتماعى وعلم النفس العام فصلاً واضحاً بيناً ، إذ الأول جزء متداخل متكامل مع علم النفس العام ولا غنى عنه فى فهم العمليات العقلية العليا .

وتمتاز هذه الدراسات بالتبصر وعمق التفكير ، لكنها تقصر عن بلوغ المرتبة العلمية الحقيقية لاعتمادها المطلق على الملاحظات الشخصية والفروض الغامضة والتعميم الخاطئ . ولعلوها من الطرق العلمية الدقيقة فى البحث . ولخضوعها أحياناً للنزعة الوطنية ولغالاتها فى القيم النسبية للشعوب بتفضيل جنس بشرى على آخر .

وقبيل نهاية القرن التاسع عشر ، اتجه نفر من العلماء الفرنسيين نحو دراسة أثر الجماعة فى سلوك الفرد ، وأثر سلوك الفرد فى فرد آخر . فانبرى بريد Braid لبحث الإيحاء وأثره المباشر فى سلوك الجماعات وفى السلوك الاجتماعى للفرد وبالغ فى أهميته . وظن أنه المؤثر الوحيد فى السلوك الاجتماعى . ولقد تأثر به برنهام Bernheim

وأثر هو بدوره في مدرسة نانسي المشهورة بدراساتها للتنويم المغناطيسى . ولقد تأثر تارد Tarde بتجارب برنهام ومدرسة نانسي وتأثر أيضاً بملاحظات الشخصية التي جمعها عن المجرمين طوال حياته القضائية ، وذهب إلى أن الإجرام لا يعود إلى التكوين البيولوجى للمجرم كما كان سائداً وقتئذ ، بل يعود إلى طبيعة المجتمع والبيئة التي ينشأ ويعيش فيها المجرم . وانتهى بتحليله العلمى للسلوك الاجتماعى إلى أنه عدوى تنتقل من فرد لآخر ، ودل على ذلك بحالات الفرع التي تناب الجماعات نتيجة فرع بعض أفرادها ، ثم استطرد في تحليله حتى وصل إلى إرجاع السلوك الاجتماعى عامة إلى التقليد . ومن أهم الأبحاث التي ظهرت في ذلك العصر دراسات جوستاف ليبون Gustave Le Bon عن الجمهرة . وقد اعتمد في بحثه هذا على نتائج دراسات مدرسة نانسي في المستيريا والفرع وبعض الظواهر النفسية الشاذة . وكان أيضاً متأثراً بأراء بريد وتارد . ولقد استعرض ليبون القوى المختلفة التي تساعد على تجانس الجماعات ولخصها في الاستهواء والتقليد والمشاركة الوجدانية .

وضوح الاتجاهات العلمية :

يعتبر كتاب مكدوجل W. Mc Dougall « مقدمة علم النفس الاجتماعى » سنة ١٩٠٨ فتحاً جديداً في ميدان هذا العلم الناشئ^(١) . ولقد بسط مكدوجل في كتابه هذا نظريته عن الغرائز ووصفها بأنها الحركات الأولى « The Prime Movers » والدوافع الجوهرية لسلوك الحيوان والإنسان . ولقد لخص مكدوجل دوافع السلوك البشرى في أربع عشرة غريزة ؛ وعرف الغريزة بأنها استعداد فطرى معقد ، ثم عدل التسمية ، وعدل أيضاً عدد هذه الغرائز . وسنتناول هذا البحث بالتفصيل في الفصل الخاص بدوافع السلوك البشرى . ولقد كان مكدوجل في نظريته هذه متأثراً بنظرية التطور وكان أيضاً بيولوجياً في اتجاهه العلمى . وظهر أثر مكدوجل في كتاب ثورندايك E. L. Thorndike « أصل طبيعة الإنسان »^(٢) . وظهر أثره أيضاً في كتاب

(1) Mc Dougall, W., An Introduction to Social Psychology, 1908

(2) Thorndike, E. L., Original Nature of Man, 1913.

وودورث R. S. woodWorth « علم النفس الديناميكي »^(١). وتأثرت ميادين علم النفس عامة بهذه النظرية الجديدة ثم أسرف العلماء في اختراع غرائز جديدة ونعتوها بأسماء لانكاد تمت إلى العلم بصلة .

وأصدر مكدوجل كتابه الثانى فى علم النفس الاجتماعى سنة ١٩٢٠ وأسماه « العقل الجماعى » و بسط فيه الأسس العامة والخطوط الرئيسية لعلم النفس الاجتماعى ثم فسر نفسية الشعوب وأخلاقها فى ضوء هذه الأسس والخطوط^(٢) . ولقد نشأت فكرة هذا العقل الجماعى من اختلاف سلوك الجماعات عن سلوك الأفراد . فقد تمنح الجماعة إلى سلوك عدائى شاذ وقد تقسو وقد تشور ، وهى بسلوكها هذا تختلف عن سلوك كل فرد من أفرادها لو كان بمعزل عنها وعن تأثيرها الجماعى . ولذلك افترض مكدوجل وجود عقل جماعى عام يسيطر على سلوك الجماعات ويتميز عن مكوناته الفردية ، ولقد اختلط الأمر على الباحثين فى نشأة هذا العقل ، واختلفت الآراء فى مكوناته وفى صفاته . فمن قائل بأنه مجموع العقول الفردية التى تتألف منها الجماعة . ومن قائل بأنه يمثل أذى أو يمثل أغبى عقل فرد من أفراد جماعته ، ومن قائل بأنه يمثل متوسط عقول الأفراد ، والقول الفصل فى هذه الآراء المتضاربة ينكرها جميعاً ، ويقرر أن الكل لا يتكون فقط من المجموع العدى للوحدات الجزئية التى منها يتكون ، بل يتأثر بالشكل العام للوحدات مجتمعة ، ويتأثر أيضاً بالعلاقات المختلفة التى تربط الجزء بالجزء والكل بالجزء ، والجزء بالكل .

ولعل دنلاب K. Dunlap هو أول من أعلن إنكاره الصريح للغرائز فى بحثه الذى نشره سنة ١٩١٩ بعنوان « أحق أن هناك غرائز ؟ »^(٣) وأنكر واطسون J.B. Watson الغرائز فى كتابه « السلوكية »^(٤) وهاجم برنارد L.L. Bernard

(1) Woodworth, R. S., Dynamic Psychology, 1918.

(2) Mc Dougall, W., The Group Mind, 1920.

(3) Dunlap, k., "Are there any Instincts?"
Journal of Abnormal and Social Psychology. 1919; 14, pp.
307 — 311.

(4) Watson, J. B., Behaviorism, 1924.

نظرية الغرائز في كتابه « الغرائز : دراسة في علم النفس الاجتماعي »^(١) .
هذا ويتلخص نقد دنلاب ومن تبعه في أن الغرائز وحدات معقدة ، وأن العلم
يهدف دائماً إلى التبسيط . ولقد أدى هذا الاتجاه إلى ظهور اصطلاحات جديدة مثل
الحوافز ، والدوافع ، والبواعث ، والمثيرات ، وغيرها ، وظن باديء ذي بدء أنها
أبسط من غرائز مكدوجل وأقل منها تعقيداً .

لكن هذا الخلاف لم يؤثر في نشاط الأبحاث التجريبية ، واستمر العلم في نموه
وفي تطوره بمنأى عن صانعي النظريات ؛ ومهما يكن من شيء فإن لمكدوجل أثره
البالغ في توجيه الاهتمام لديناميكية الجماعات .

وبينما كان الجدل العلمي محتدداً بين دعاة الغرائز وبين منكريها ؛ كان علم
الأجناس البشرية ينشئ لنفسه فروعاً جديدة في علم النفس الاجتماعي ليفسر مظاهر
الثقافة في تطورها وانتقالها . ولثقافة أثرها في تشكيل الفرد وفي تغيير طبيعته الأولى ؛
وانتقالها من جيل إلى جيل ومن فرد لآخر يعتمد في جوهره على سيكولوجية التعلم ؛
وتلك مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالإيحاء والتقليد .

وكان لعلم الاجتماع الفضل في توجيه بعض أبحاث علم النفس الاجتماعي لدراسة
سيكولوجية الرأي العام ؛ وسيكولوجية الإشاعات ؛ وسيكولوجية الانتخابات وغيرها
من الأبحاث ؛ لكن الإسراف في الاعتماد على علم الاجتماع يسلكه الباحث ضرورياً
من السبل تنأى به في قليل أو في كثير بعيداً عن الميدان الحقيقي لعلم النفس الاجتماعي
وتميل بدراساته نحو الجماعة أكثر مما تميل بها نحو الفرد ، والفرد في سلوكه الاجتماعي
هو جوهر البحث في علم النفس الاجتماعي

وكان لبدا البحث العلمي المنظم في النمو النفسي وفي سيكولوجية الطفولة فيما بين
١٩١٠-١٩٢٠ أثره في أبحاث علم النفس الاجتماعي الخاصة بالنمو الاجتماعي للطفل ؛
وفي دراسة العمليات النفسية المختلفة التي تلازم بين الفرد وبيئته الخارجية وتخضع
سلوكه لقوانين المجتمع ولتقاليده ، وتحد من اختيار ضروب إشباع الرغبات المختلفة
التي لاتساير النظم الاجتماعية القائمة

(1) Bernard, L. L., Instincts : A study in Social psychology, 1924.

الحرب وآفاق العلم الجديدة :

علم النفس الاجتماعى الحديث لا يبحث الفرد بمعزل عن المواقف المتعددة التى تؤثر فى سلوكه ؛ بل يدرس الفرد كجزء من المواقف المختلفة التى تدفعه نحو سلوك معين . ويذهب ليفين K. Lewin إلى ما يقرب من هذا فيما يسميه بال مجال النفسى ، ويذهب أيضاً إلى أبعد من هذا فيزيد فى تأكيد العوامل الذاتية المؤثرة فى سلوك الفرد من ناحية ، وفى المواقف المختلفة التى تتطلب مثل هذا السلوك من ناحية أخرى .

ولقد اهتم بياجيت J. Piaget ومورينو J.L. Moreno بأهمية تلك العوامل الذاتية ، وتشير أبحاثهم إلى أن هذه العوامل هي التى تؤدى إلى اختيار بعض نواح خاصة من البيئة المحيطة بالفرد ، وهى التى تحدد بدورها الموقف أو الإطار الاجتماعى كما يسميه مظفر شريف M. Sherif ؛ وهذا الإطار يُلَوِّن السلوك الاجتماعى للفرد بصبغة خاصة وينحوا به إلى اتجاه معين .

وأُسفرت دراسات بياجيت فى النمو العقلى عند الأطفال عن ارتباط هذا النمو ارتباطاً وثيقاً بتطور عملية تكيف الطفل لبيئته الاجتماعية ؛ فالطفل فى بدء حياته أنانى ؛ علاقته بالمجتمع ذاتية بحتة ؛ وهو يرضى عن بيئته حينما تحقق له لذة ما ، ويعصف به الغضب حينما تحول هذه البيئة بنظمها وتقاليدها وشرائعها بينه وبين ما يريد ، ثم يتدرج فى نموه الاجتماعى حتى تسمى علاقته بالمجتمع علاقة موضوعية صحيحة تقوم على اكتشاف العلاقات المنطقية التى تربط الأشياء والناس بعضهم ببعض ويؤدى به هذا النمو إلى إدراك الأشخاص فى وضعهم السوى داخل الإطار الاجتماعى المحيط به وبهم . تلك أبحاث نظرية نشأت قبيل وأثناء وبعد الحرب الماضية ، هذا وقد أثرت الحرب أيضاً فى تطور نواحي العلم التطبيقية .

وكما كان للحرب العظمى الأولى أثرها البالغ فى إنضاج مقاييس الذكاء ، كان للحرب العالمية الثانية الفضل فى النهوض بعلم النفس الاجتماعى والسير به قدماً نحو غاية مرتقاه . فأتجه نفر كبير من العلماء ، بنشاطهم وبجهودهم نحو بحث الموضوعات التى ترتبط من قريب بإسلامة دولتهم وقوتها الحربية . فازداد الاهتمام بمشاكل الحياة

اليومية ، وبوسائل إخضاعها للتجريب . وتحول النشاط العلمى من الأبحاث النظرية الأكاديمية إلى الأبحاث التطبيقية العملية . وأسفر البحث بادىء ذى بدء عن تعديل جوهرى فى الطرق العلمية القائمة وعن اكتشاف طرق جديدة لم تكن معروفة من قبل ، وكان لهذا الاتجاه الجديد أثره الواضح فى كثرة الدراسات والنتائج العلمية التى تمخضت عنها تلك الحرب .

وهكذا طفر هذا العلم الناشئ طوراً بعد طور ، وأسلوباً بعد أسلوب منذ ١٩٣٩ حتى يومنا هذا .

ولقد أغرى هذا التقدم السريع الذى صاحب علم النفس الاجتماعى فى نهضته الأخيرة طائفة كبيرة من علماء النفس الذين كانوا يقصرون جهودهم العلمية على أبحاث الشخصية ، والتعلم ، والدوافع ، والادراك ؛ بالتحويل نحو الدراسات النفسية الاجتماعية ، فنقلوا معهم فيما نقلوا خبراتهم ونتائج دراساتهم الطويلة إلى ميدان علم النفس الاجتماعى ، فكثر روافده ، واتسع مجال بحثه وتشتعت أساليبه .

وكان للحرب أثرها فى دراسة السلوك العدائى عند الأفراد والجماعات لارتباطه المباشر بجوهر الحروب جميعاً منذ نشأتها الأولى حتى الآن ، وقد دلت أكثر هذه الدراسات على أن الإخفاق والفشل يسبقان دائماً السلوك العدائى ، ويؤديان إليه ، وهكذا اتضحت المعالم الأولية الأساسية لتلك الدراسات فنشطت بذلك الأبحاث فى هذا الاتجاه الجديد .

واتجهت الأبحاث أيضاً فيما اتجهت إليه إلى دراسة الزعامة ومدى تأثيرها بأنواع الجماعات ومدى أثرها فيها ، وتشغل أبحاث ليبيت Lippitt مكان الصدارة بين هذا النوع من الأبحاث^(١) ، وتقوم فكرتها على دراسة أثر الزعامة فى ثلاثة أنواع من التنظيمات الجماعية ، نلخصها فى : الزعامة فى النظام الديمقراطى ، والزعامة فى النظام الاستبدادى ؛ والزعامة فى النظام الحر غير المقيّد . ولقد أثارت هذه الأبحاث مواضيع عدة شيقة تتصل من قريب بأثر الزعامة فى اللفة والنفور ، وفى الانشاء

(1) Lippitt, R., An Experimental Study of Authoritarian and Democratic Group Atmospheres, 1948.

والتخريب ، وفي السيطرة والخنوع ، وهذه الابحاث أثرها في تقدم علم النفس الاجتماعى التجريبي ، وذلك بتهيئة الاساليب العلمية الصالحة لإجراء التجارب الدقيقة على ديناميكية الجماعات ، وعلى تمهيد الجو المناسب لثربية القادة وتدريبهم على الزعامة فى نواحى الحياة المختلفة .

ونشطت الأبحاث انخاصة بأثر معايير الجماعة على معايير الفرد الذى ينطوى تحت لوائها ، وارتباط طموح الفرد بطموح الجماعة ، وأثر كل ذلك فى مدى تكيف الفرد بالنسبة للجماعة التى ينتمى لها . فنجاح الفرد وفشله فى سلوكه الاجتماعى يعتمد إلى حد كبير على الثقافة القائمة وعلى نوع التنظيم الاجتماعى الذى يهيمن على حياته .
وَحَصَّعَ التعصب للتحليل النفسى التجريبي ، فَبُحِثَ سيكولوجية الأقليات ودرُست عوامل سيطرة الأغلبية ، واتجه البحث بعد ذلك لطرق علاج التعصب الجائر بين الأفراد وبين الجماعات وبين الشعوب .

واتجه البحث لدراسة الروح المعنوية لارتباطها الوثيق بسيكولوجية الحروب . وقد استخدمت بعض اختبارات الاتجاهات فى قياس تلك الروح المعنوية وأسفرت تلك الطريقة عن نجاح يبشر باكتشاف آفاق جديدة فى ميدان علم النفس الاجتماعى . واستطرد البحث بعد ذلك لدراسة أثر البطالة ، وأهمية الزعامة والدعاية فى تقوية أو إضعاف الروح المعنوية .

ولم يغفل علم النفس الاجتماعى عن دراسه عوامل الانحلال التى تصيب الأفراد والمجتمعات فاهتم بدراسة سيكولوجية الاشاعات . وقام بعض العلماء بنشر إشاعات خاصة ثم تتبعوا نموها ، وعرفوا كل خصائص هذا النمو ومميزاته . وهكذا تمكن العلم من القضاء على أكثر الاشاعات الضارة وتطهير الأفراد منها ومن شرورها .

وترتبط الإشاعات من قريب أو من بعيد بالرأى العام . فما لامراء فيه أن الإشاعات تؤثر فيه وتتأثر به . ولقد اتجه البحث أخيراً لدراسة نشأة الرأى العام ووسائل تكوينه وانتشاره ومدى تطوره زيادة أو نقصاً . ولهذا الابحاث فائدتها فى ميادين السياسة ؛ نذكر منها على سبيل المثال استخدام نتائج استفتاء الرأى العام فى التنبؤ بنتائج الانتخابات .

وهكذا اتجه علم النفس الاجتماعى من وصف الظواهر العلمية إلى التجريب الدقيق؛
واتجه من الأبحاث النظرية الأكاديمية إلى الأبحاث العلمية التى تلابس كل ألوان حياتنا اليومية

المراجع

1. Allport, F. H. "The Influence of the Group upon Association and Thought," Journal of Experimental Psychology. 1920, 3, pp. 159 — 182.
2. Bavelas, A. and Lewin, K. "Training in Democratic Leadership," Journal of Abnormal and Social Psychology, 1942, 37, pp. 115 — 119.
3. Braid, J, Neurypenology. 1843.
4. Cartwright, D. "Social Psychology in the United States During the Second World War," Human Relations, 1948. 1, pp. 334 — 352.
5. Dollard, J., and others. Frustration and Aggression, 1939.
6. Festinger, L., "Wish, Expectation and Group Standards as Factors Influencing Levels of Aspiration" Journal of Abnormal and Social Psychology, 1942, 37, pp. 184 — 200.
7. Gustave Le Bon, La Foule, 1895.
8. Harding, J. "A Scale for Measuring Civilian Morale" Journal of Psychology, 1941, 12, pp. 101 — 110.
9. Klineberg, O., Social Psychology, 1940.
10. Krout, M. H., Introduction to Social Psychology, 1942.
11. Lemmon, M. L., "What is Social Psychology," American Journal of Psychology, 1936, 48, pp. 665 — 673.
12. Locke ; Hume, and Rousseau, Social Contract, edited by Sir Ernest Barker.
13. Sherif. M., An Outlines of Social Psychology, 1948, Chapter I.
14. Smoke, K. L., "The Present Status of Social Psychology in America," the Psychological Review, 1935, pp. 537 — 543.
15. Tarde, G., Le Loie de L'imitation, 1890.
16. Wundt, W., Elements of Folk Psychology, 1928. ed.

الفصل الثاني

طرق البحث في علم النفس الاجتماعي

مقدمة :

يتلخص البحث في علم النفس الاجتماعي في دراسة العلاقات الاجتماعية . وهذه العلاقات تدور — كما أسلفنا في تعريفنا للعلم — حول تأثير الفرد بالمشيربات الاجتماعية ، وحول أثر الفرد في الجماعة . أى حول الفرد متأثراً ومؤثراً في الجماعة . وبهذا فالبحث يقوم في جوهره على الفروض التالية :

- (١) يستجيب الفرد في سلوكه للمؤثرات الاجتماعية ، إستجابة مباشرة أو غير مباشرة وتلك المؤثرات قد تكون ظاهرة أو خفية . وتنحدر إليه هذه المؤثرات من فرد واحد أو من حشد ضخم من الأفراد يؤلفون فيما بينهم جماعة ما .
- (٢) ترتبط الاستجابات بمثيراتها ، وبالعوامل الأخرى المؤثرة فيها إرتباطاً يخضع في جوهره لقوانين علمية .
- (٣) يمكن اكتشاف العوامل والأسباب التي ينجم عنها السلوك الاجتماعي . وهذا يؤدي بدوره إلى إمكان اكتشاف القوانين العلمية التي تفسر النواحي المختلفة للاستجابات الاجتماعية .

ولهذا فعلى الباحث أن يكتشف أنجع الطرق التي تمكنه من رصد تلك الاستجابات رسداً علمياً موضوعياً دقيقاً . وعليه أيضاً أن يفصل الظاهرة التي يهدف إلى دراستها ، حتى لا يختلط عليه الأمر ، وحتى لا يضل طريقه بين الظواهر المختلفة المتشابهة التي تبدو بها الظواهر الطبيعية أو الكيميائية . فارتفاع الزئبق مثلاً في الترمومتر يرتبط ارتباطاً مباشراً بارتفاع درجة الحرارة . لكن السلوك الاجتماعي لفرد ما في

استجابته لمثير ما يختلف يوماً عن يوم باختلاف الموقف العام المحيط به وبالعوامل المؤثرة فيه . ولهذا يستعين علم النفس الاجتماعي أحياناً بدراسة الفرد في استجاباته المختلفة على أنه جزء من الموقف والإطار العام الذي يحيطه . ولهذا يلجأ الباحثون أحياناً إلى تحليل المجال الذي يهيمن على الفرد للوصول إلى الحقائق العلمية التي يهدفون إليها . وسنتناول هذا بالتفصيل في تحليلنا لأهم طرق البحث في علم النفس الاجتماعي .

ويواجه الباحث في علم النفس صعوبات جمة ، ينشأ أغلبها من موضوع ومادة الدراسة نفسها . فالإنسان نفسه وهو بسلوكه الظاهر والباطن الذي هو موضوع علم النفس بجميع فروعه — إذا استثنينا علم النفس الحيواني — مخلوق معقد حَوْل قلب به لعل ذلك سر مرونته وسر عظمته . ولقد أكتسبت هذه المرونة عبقرية خاصة سمت وإلى المداخل العليا وأوشكت أن تحجب عناصلته الوثيقة بباقي أنواع المملكة الحيوانية . وبهذا تحدى هذا المخلوق الغريب أساليب البحث العلمي بادئ ذي بدء فانصرف الرواد الأول للنهضة العلمية بمجهوداتهم وأبحاثهم إلى الكون الطبيعي . ثم لانت قناته ووضحت مسالكه وضررو به فإذا العقل يبحث العقل والإنسان يستشف غور الإنسان .

ومهما يكن من أمر هذه الصعوبات ، فلا يضير العلم أن تكون مادة دراسته متشابكة معقدة . طالما أن الطريقة التي تتناول هذه المادة بالدرس والتحليل طريقة علمية صحيحة . وطالما أن نتائج هذه الطريقة نتائج موضوعية ثابتة . هكذا يقرر كارل بيرسون Karl Pearson في كتابه « قواعد العلم » وهو فيما يذهب إليه من رأى ، موضوعى يسائر منطق العلوم ذاتها ⁽¹⁾ .

الطريقة العلمية:

يبدأ البحث العلمى بفرض يهذى الباحث إلى استكشاف الحقائق العلمية التى تؤيده أو تنفيه . فانفرض يقف إذن بالباحث على حافة المجهول ويستحثه إلى استجلاء غوامضه . وتحليل الفرض وما يشتمل عليه من مشاكل يؤدى إلى تحليل العوامل المحيطة به

1) Pearson, Karl: The Grammar of Science, 1911.

والملازمة له . وغالبا ما يؤدي هذا التحليل إلى إجراء بعض التجارب . وتهدف التجربة إلى قياس مدى التغير الذي يطرأ على إحدى العوامل كنتيجة لتغير حدة ومدى مؤثر ما ، مع تثبيت المتغيرات الأخرى حتى لا تتداخل في نتائج العامل الذي تُجرى عليه التجربة . وهكذا قد تعاد التجربة مرات ومرات لدراسة عامل بعد آخر حتى تدرس جميع العوامل المؤثرة في الظاهرة المراد بحثها . ويشترط في هذه التجارب أن تكون موضوعية دقيقة ، يسهل إعادتها فتؤتي نفس النتائج التي أسفرت عنها في المرة الأولى إذا تساوت جميع ظروف التجربة في الحالتين .

فإذا لم تتضارب نتائج التجربة ؛ وإذا أيدت الفرض الأول الذي بدأ البحث به ؛ تبدأ إثر ذلك مرحلة تجريبية ثانية لإثبات الحقيقة العلمية التي أسفر عنها البحث . وذلك بإحصاء جميع الفروض المرتبطة بالفرض الأول . ثم إخضاعها للتجريب وهكذا حتى يصل الباحث إلى اكتشاف القانون العلمي الذي يكمن وراء هذه الفروض المختلفة . ويرتبط بها جميعاً ويؤلف منها شبكة متصلة متداخلة وما القانون العلمي إلا وسيلة موجزة للتعبير عن الحقائق .

ويؤدي اكتشاف القانون العلمي إلى اختراع نظرية علمية تحاول تفسيره والقانون والنظرية صورتان من صور التعميم الذي نصل إليه بعد بحث أغلب الجزئيات التي تنتمي إليه .

وتتلخص أهم الشروط الواجب توافرها في النظرية العلمية الصحيحة في : —

(١) الإيجاز :

النظرية تعبير موجز عن حقائق عدة . فهي بذلك تعميم . وجوهر التعميم الإيجاز . وهي بإيجازها هذا تنحون نحو الاقتصاد في الجهد ، والاقتصاد في الإبانة عن القصد

(٢) الشمول :

يجب أن تشمل النظرية على كل الحقائق الفرعية التي تنطوي عليها وتنتمي

إليها . وبذلك تتألف تلك الحقائق في تنظيم متماسك متكامل يشملها جميعاً ويُسفر عنها كلها . ويتبلور هذا التنظيم وذلك التكامل في النظرية .

(٣) الافراد :

كلما انفردت إحدى النظريات بتفسير الحقائق التي تشتمل عليها كلما ثبتت النظرية وزادت صحتها . فوجود نظرية أخرى تفسر نفس الحقائق التي تفسرها النظرية الأولى بضعف الأهمية العالمية للنظريتين . ففي ذلك الازدواج تناقض علمي ومنطقي .

(٤) التفسير :

النظرية الصحيحة تُفسر الحقائق الجديدة التي يكتشفها البحث العلمي ، فتزداد بذلك قوتها حتى توشك أن تكون عامة عالمية .

(٥) التنبؤ :

من أهم وظائف النظرية العلمية ، التنبؤ بالظواهر العلمية قبل أو قبيل حدوثها . فإذا طابق التنبؤ الواقع ازدادت صحة النظرية وازدادت أهميتها .

وهكذا تقترب من الحقيقة الكبرى بقوانيننا ونظرياتنا لكننا لانصل إليها . فالتقارب والنظريات تتطور من وقت لآخر ، وهي تخضع في تطورها إلى قدرتها أو عجزها عند التنبؤ بالظواهر الجديدة التي ترتبط بها .

خطوات البحث العلمي تتلخص في فرض ثم تجربة ثم قانون ثم نظرية .

هذا وليست التجارب هي الوسيلة الوحيدة لتأييد أو نفي القرض ، فهناك وسائل أخرى كملاحظة تطور ظاهرة ما وتلك قوام الطريقة التتبعية ، أو مقارنة ظاهرة ما في ميدانين مختلفين كما يحدث في الطريقة المقارنة ، أو غير ذلك من الطرق والأساليب المختلفة .

فالعالم إذن مجموعة من الحقائق أيديها التجارب والملاحظات الدقيقة . وترتبط هذه الحقائق بطرق شتى ، ففسر بذلك عن مستويات عدة . لكنها في ارتباطها تنحدر نحو التنظيم الهرمي . أي إلى الإيجاز والشمول كلما علت وسمت . وهدف العالم اكتشاف القانون العام الذي يفسر جميع الظواهر الموجودة في ميدان بحثه .

تجارب المعمل :

كانت تجارب المعمل وما زالت وستظل حجب الزاوية في تقدم العلوم المختلفة .
بدأ التجريب في علم النفس الاجتماعي فيما بين ١٨٤١ و ١٨٦١ على التريب بتجارب
بريد على الإيحاء . وكان التجريب في علم النفس ذاته تجريبية يمر بها العلم نفسه في تطوره .

وتمخضت هذه المحاولات التجريبية البدائية الأولى ، وما تلاها بعد ذلك من
تهذيب في الطرق والأساليب ، عن علم ناشئ أصبح يتطور وينمو بسرعة غريبة .

وتمتاز تجارب المعمل ، بالضبط أو التقييد ، والعزل ، وبالقياس . ونعني بالضبط
أو التقييد التحكم في كل المتغيرات المتداخلة في الظاهرة المراد دراستها تحكماً يُثبتها جميعاً
أو يساوي بينها حتى لا تؤثر في نتائج التجربة . والعزل يعني استخلاص المتغيرات
المراد دراستها واعطاءها الفرصة للتفاعل وإحداث الأثر . والقياس يعني رصد نتائج
هذا التفاعل رسداً علمياً دقيقاً يعتمد في جوهره على الأرقام ويخضع بذلك للتحليل
الإحصائي والرياضي .

ولنضرب لذلك مثلاً ؛ فمشاهدتنا وملاحظاتنا تدلنا على أن الإنتاج الفردي
يتأثر بالجماعة . فالفردي يشعر بروح التنافس وهو يعمل مع غيره فيحاول أن يتفوق على
رفقائه . وتلك الملاحظة العابرة تمهد السبيل لتجربة علمية تخلص في إعطاء اختبار
ما لعدة أفراد ، مع إشاعة روح التنافس بينهم وذلك بأن يُخصص لصاحب أكبر
درجة في الاختبار جائزة ما . وبما أننا جمعنا المختبرين معاً في مكان واحد ، وفي وقت
واحد ، ليقوموا باختبار واحد ، يشرف عليه ممتحن واحد — فقد وحدنا بذلك
العوامل المختلفة التي قد تؤثر في نتائج التجربة وضبطناها وقيدناها . وعزلنا عامل
التنافس وحده لنرى أثره في الإنتاج . ثم نحن بعد ذلك قادرون على أن نقوم بتحليل
نتائج التجربة لمعرفة مدى العلاقة والارتباط بين شدة التنافس وإنتاج الأفراد .

هذا ويمكن تهذيب التجربة السابقة تهذيباً يصل بنتائجها إلى حقائق أدق

وأقوى ، ويشمل العوامل المختلفة المؤثرة في الانتاج ، ويقارن بين الأثر الإيجابي للجماعة والأثر السلبي لها . ومثال ذلك التجارب التي قام بها داشيل Dashiell وتتلخص في ^(١) :

(١) مقارنة إنتاج أفراد يعملون وهم يعلمون أن بالحجرة المجاورة لهم أفراداً آخرين يشاركونهم نفس العمل بإنتاج أفراد آخرين يعملون ولا يعلمون بوجود الذين يشتركون معهم في نفس العمل .

(٢) مقارنة أفراداً يعملون أمام جماعة من الناس ترقبهم وتشاهدكم بإنتاج أفراد يعملون ويرون أفراداً آخرين يشاركونهم نفس العمل .

(٣) مقارنة إنتاج أفراد مجتمعين يتنافسون في عملهم بإنتاج أفراد منعزلين يعملون أن هناك من ينافسهم في عملهم .

(٤) مقارنة إنتاج أفراد مجتمعين بإنتاج أفراد منعزلين . بحيث لا يشوب الإنتاج في كلتا الحالتين أي تنافس أو تسابق .

ولقد دلت نتائج هذه التجارب على أن التنافس يزيد في الإنتاج وأن شعور الفرد بوجود أفراد حوله يلاحظونه وينظرون إليه ويراقبونه يزيد أيضاً في إنتاجه . وأن الزيادة في كلتا الحالتين تزيد على إنتاج الفرد وهو بمعزل عن أثر الجماعة . وأن الإنتاج المتأثر تأثيراً مباشراً بالتنافس يزيد على الإنتاج المتأثر فقط بمجرد ملاحظة الأفراد الآخرين .

ذلك مثل واضح يبين ويفصح عما أردنا بالضبط والعزل والقياس .

ويلاقى المشتغلون بالتجريب على الإنسان صعوبات ومشاق مختلفة تنشأ من

(1) Dashiell, F.J., "An Experimental Analysis of Some Group Effects", Journal of Abnormal and Social Psychology, 1930, 25, pp. 190-199.

تداخل العوامل المؤثرة في الظواهر البشرية ، ومن تأثر المختبر بالمختبر نفسه ، ومن الشوائب التي تعلق بالأسباب الجوهرية السكائمة وراء التجربة فتحول بينها وبين النقاوة . فالأفراد الذين أجرى عليهم داشيل تجاربه يتأثرون إلى حد كبير بعاداتهم واتجاهاتهم وميولهم وثقافتهم في أغلب نواحي إنتاجهم . وقد نتمكن بشي من الجهد والتحليل الإحصائي من إضعاف أثر هذه العوامل ، باختيار أفراد متجانسين تجانساً يساوي بين أثار هذه العوامل المختلفة . لكن تبقى بعد كل ذلك صعوبات عدة أهمها أننا لسنا أحراراً في إجراء أية تجربة على الإنسان تتطلب مثلاً إحداث تغييرات ضارة أو سيئة ، لقياس أثرها ولمقارنتها بالتغيرات النافعة . ولسنا أيضاً أحراراً أو قادرين على إبقاء الأفراد في العمل أياماً وشهوراً لقياس وتتبع العلاقة بين أطراد تركيز عامل ما وأثر هذا الأطراد المتدرج في إحداث ظاهرة ما .

لهذا ، ولأسباب شبيهة بتلك اتجه العلماء للتجريب على الحيوانات لتحررها من أثر التقاليد والخلق والفن والدين وكل ما تقوم عليه ثقافة النوع البشري — فالثقافة عامل أساسي في التفرقة بين الإنسان وسائر أفراد المملكة الحيوانية — وبساطة ووضوح الأسباب الجوهرية المؤثرة في ظاهرة ما ، ونخلوها من التعقيد والتداخل الذي يحول بين الباحث وبين دراسة الأسباب النقية الخالصة من الشوائب .

ومن أمثلة التجريب على الحيوان في علم النفس الاجتماعي التجربة التي قام بها تشيلد Child لقياس أثر الجماعة على الفرد وخضوع الفرد لحكم الجماعة⁽¹⁾ . فلقد نصب تشيلد عموداً مرتفعاً وعلق بقمته موزاً ، ثم أحضر جماعة من القردة وتركهم بالقرب من العمود . وحينما رأى القردة الموز حاول أكثرهم تسلق العمود ففسلوا إلا واحداً منهم تمكن من ارتقاء العمود حتى وصل إلى الموز فأخذ يأكله وحده ، وهو في مكانه بأعلى العمود . وعندما بدأ القرد يأكل الموز ، غر تشيلد الأرض التي تقف عليها القردة بماء دافق حار يكاد يغلي . فتألمت القردة وأدركت أن هناك علاقة بين

(1) Child ; I, "An Experimental Investigation of "Taboo" Formation in a Group of Monkeys", Psychological Bulletin, 1938,35,705.

أكل الموز وبين الماء الحار . وعند ما وضع تشيلد موزاً جديداً وأطلق القردة حول العمود ، حالت الجماعة بين أى فرد منها وبين ارتقاء العمود . بل وتنادت في ذلك وأذت كل من تساوره نفسه بالمحاولة عندما يهيم بيدها . وهكذا خضع الفرد لحكم الجماعة وكف عن محاولاته ، وظل الموز بأعلى العمود ، وظل جمع القردة ينظر إلى الموز بإعجاب واستمتاع لكنه لا يحاول الصعود للفوز به .

ولهذه التجربة دلالتها وتعليلها لبعض العلاقات الاجتماعية في مستواها البشرى الإنسانى . فكلنا مثلاً نخضع لنوع خاص من التقاليد والعرف لأن الجماعة فرضتها عليه لا لأنه ارتضى لنفسه هذه التقاليد أو ذلك العرف .

لكن الإفراط كالتفريط . فالمغالاة في نتائج التجارب التى تُجرى على الحيوانات تنأى بالباحث بعيداً عن ميدان الحياة الاجتماعية البشرية . فليس كل تعميم صحيح وليست كل مقابلة بين الحيوان والإنسان صادقة . ولن تقوم الاكتشافات علم النفس الإجماعى على دراسة الحيوانات وحدها . بل يجب أن تقوم أولاً على دراسة الإنسان . وأن تستعين بالحيوانات عند ما تتعقد المشكلة وتختلط أسبابها وتتداخل عناصرها ويستعصى حلها في المستوى الإنسانى . أو عندما يهدف الباحث في دراسته إلى الناحية التتبعية فيتدرج مع الظاهرة في مستوياتها المختلفة من الحيوانات الدنيا إلى الحيوانات العليا إلى الإنسان ، أو عندما تكون مادة بحثه ذاتها هى السلوك الحيوانى .

الملاحظات العلمية :

لا تخضع كل الحقائق العلمية التى يتناولها علم النفس الإجماعى بالبحث والتحليل للتجريب . فرصد أحاديث الناس وهم يسلكون طريقهم في حياتهم العادية اليومية بعيدين عن أثر الباحث ، يقتضى منه أن يجمعها كما هى . أى كما تحدث . وله بعد ذلك أن يتناولها بالبحث والتحليل . ولقد لجأ إلى هذه الطريقة مور H. T. Moore في دراسته لأحاديث الناس بنيويورك ولجأ إليها لانديس M. H. Landis في دراسته

لأحاديث الناس بلندن . ولجأ إليها المؤلف في تحليله لأحاديث الناس بالقاهرة .
وسياتى بيان هذه الأبحاث فى الفصل الخاص بوسائل الاتصال الاجتماعى .

ومن المأثور عن تشارلس داروين صاحب نظرية النشوء والارتقاء أنه كتب
ذات مرة « أوليس عجيباً ألا يدرك بعض الناس أن كل ملاحظة يرونها ، إنما هى
أفى جوهرها تؤيد أو تنفى رأياً ما . وهى لاتصبح ذات فائدة إلا بهذا التأيد أو
بذلك النفى » (١) .

وتعتمد الملاحظة العلمية كوسيلة من وسائل البحث ، على اختيار العينة التى تمثل
الظاهرة المراد بحثها ، تمثيلاً إحصائياً صحيحاً . فاختيارك عينة من شبان لبحث
ظاهرة ما تخص سكان القاهرة ، إختيار خاطئ . لكن اختيارك عينة تتمثل فيها
جميع أنواع سكان القاهرة من شبان وفتيات وأطفال وعجائز و بنفس النسب التى
توجد بها تلك الأنواع فى القاهرة هو فى جوهره إختيار صحيح لأن العينة صحيحة إحصائياً .

هذا ويجب أن تُراعى الدقة فى جمع المعلومات فمن البدهة أن المعلومات غير
الدقيقة لا تؤدى إلى حقائق صحيحة . ويؤتى البحث نتائج عند ما تُنظم تلك
المعلومات . وتدرس وتحلل تحليلًا إحصائياً ، ثم تُنشر هذه النتائج لربط العلة بالمعلول
والسبب بالمسبب .

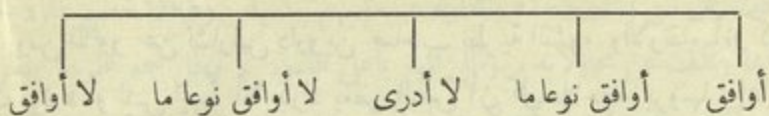
الاستفتاء :

الاستفتاء نوع من الاختبارات يهدف إلى معرفة آراء الناس فى شىء ما .
ويتكون الاستفتاء من أسئلة عدة تدور حول موضوع خاص . وعلى القارئ أن
يجيب عليها قولاً أو كتابة ، بالإيجاب أو بالنفى . وعليه أحياناً أن يحدد إجابته بالنسبة
لمقياس خاص يتدرج فى كل سؤال من النفى المطلق إلى النفى المعتدل إلى التأيد المعتدل
إلى التأيد المطلق .

(1) Quoted from : Andrews, T.G., Methods of Psychology, 1948, p.5.

ولنضرب مثلاً للاستفتاء بالسؤال التالي :

« زواج الأقارب يضعف النسل »



وما على المُختَبَر إلا أن يضع خطاً تحت الرأي الذي يميل إليه . ليقرر بذلك اختياره وإجابته .

ويمتاز الاستفتاء الجيد بصفات علمية أهمها :

(١) أن تكون أسئلته كلها تدور حول المشكلة المراد بحثها، وأن ترتبط هذه الأسئلة

بنظام منطقي ينتهي بها إلى أسس علمية واضحة في تبويبها واختيارها وصيغتها .

(٢) أن تكون الأسئلة واضحة مباشرة .

(٣) ألا تكون الأسئلة إيجابية حتى لا تحوى الإجابة بين طياتها .

(٤) أن تكون الاجابات المطلوبة مباشرة لا لبس فيها ولا التواء .

(٥) ألا تستغرق الإجابات وقتاً طويلاً أو جهداً بالغاً من المُختَبَر .

(٦) كلما كانت طريقة رصد الإجابات طريقة موضوعية كلما زادت الأهمية

العلمية لنتائج الاستفتاء .

(٧) أن تجرى بعض التجارب التمهيدية على الاستفتاء . وذلك بأن يرسل لمجموعة

محدودة من الأفراد . ثم تدرس نتائجها . وتُعاد صيغته في ضوء تلك النتائج التمهيدية .

والاتجاهات هي أهم الميادين العلمية التي يُستخدم فيها الاستفتاء فلقد استعان

جودوين واطسون Goodwin Watson بالاستفتاء في قياس اتجاهات الأمريكيين

نحو الشعوب الشرقية ، واستعان به بوجاردس Bogardus في قياس « البعد الاجتماعي » .

وبهذا أمكنه أن يضع مقياساً اجتماعياً نفسياً للتعصب . واستعان به ألبورت F. H. Allport

وهارتمان D. A. Hartman في قياس الاتجاهات نحو هيئة الأمم المتحدة . واستخدمه

ريس S. A Rice في محاولة إنشاء مقاييس علمية للأُمُور السياسية .

هذا وقد استُخدم الاستفتاء في الحرب الماضية لقياس أثر القنابل في الروح المعنوية .
وذلك بسؤال أكبر عدد ممكن من سكان المناطق المصابة بالقنابل . ولقد اختيرت
هذه المناطق لتمثل نواح ثلاث :^(١)

(١) إصابات بالغة .

(٢) إصابات متوسطة .

(٣) إصابات ضعيفة .

فوجد الباحثون أن أبلغ أثر تركه انفجارات القنابل في الروح المعنوية يرتبط
ارتباطاً قوياً بالإصابات الضعيفة . ولهذا فخير للمحارب الذي يهدف إلى إضعاف
الروح المعنوية أن يُفجّر قنابله في مناطق عدة مبعثرة بدلاً من أن يُركز نشاطه في
منطقة واحدة ويهدمها تهديماً بالغاً قوياً .

التخطيط الاجتماعي وديناميكية الجماعات :

تتأثر طبيعة الجماعة بالعلاقات القائمة بين كل فرد منها والأفراد الآخرين .
وسلوك الفرد في استجابته للجماعة يختلف من جماعة لأخرى . ويمكن دراسة تلك
الآثار بتحليل الارتباطات والعلاقات التي تقوم على أساسها الجماعة . وأنسب الطرق
لهذا التحليل ما يسمى بالتخطيط الاجتماعي .

هذا ويُعتبر مورينو J. L. Moreno الرائد الأول لهذا النوع من الأبحاث ،
وتتلخص طريقته في سؤال أي فرد في أية جماعة عن أسماء أصدقائه وأعدائه في تلك
الجماعة . وله أن يرتب تلك الأسماء وفق ميله نحوهم أو نفوره منهم . وعلى الباحث
بعد ذلك أن يرصد هذه الإجابات في تخطيط اجتماعي يعبر فيه عن علاقة الفرد
(١) بالفرد (ب) بخط يصل ما بين الاثنين . وهكذا يستمر التخطيط حتى يستغرق
جميع أفراد الجماعة . والنتائج النهائية لهذا التخطيط شبكة متصلة متداخلة من خطوط

(1) U.S Strategic Bombing Survey, The Effects of Strategic Bombing
on German Morale, Washington, 1947.

عدة تدل في مجموعها على التكوين الديناميكي للجماعة وعلى موقف كل فرد منها .
ولقد عرضنا هذه الطريقة بالتفصيل في الفصل الخاص بديناميكية الجماعات . واستخدمها
المؤلف في تحليل بعض جماعات المناقشة لطلبة معهد التربية العالي للمعلمين بجامعة إبراهيم .

وقد استخدمت جيننجز H. H. Jennings هذه الطريقة في دراستها التجريبية
للزعامة . وفي دراستها التتبعية للتغيرات الداخلية التي تعترى ديناميكية الجماعات .

وتستخدم هذه الطريقة في نواح عدة أخرى أهمها دراسة التعصب ، وهي بذلك
أساس المقياس الرياضي الإحصائي الذي يستخدم في قياس حدة ودرجة التعصب .

ومن فوائدها معرفة مدى التكيف الاجتماعي للفرد بالنسبة لجماعة ما . وهي بهذا
تؤدي إلى معرفة العوامل المختلفة التي تحول بين الفرد وبين تجانسه الكلي أو الجزئي
مع أي نوع من الجماعات . وبذلك فهي تمكن الباحث من نقل الأفراد من جماعة
لأخرى حتى يزداد التجانس الفردي والجماعي .

وتعتبر هذه الطريقة من أحدث الطرق العلمية المستخدمة في علم النفس الاجتماعي
وأجداها ، لاتصالها المباشر بموضوع وجوهر العلم ذاته وفي هذا يقول توماس ينج
Paul Thomas Young « إن تحليل العلاقات الديناميكية الفردية والجماعية يقع
في صميم وقلب علم النفس الاجتماعي . والحقيقة أن دراسة هذه العلاقات هي أهم ما يميز
علم النفس الاجتماعي عن علم النفس الفردي . ولهذا فطريقة مورينو حد مهمة » (1)

المجال والدراسة السكلية :

تعتمد أغلب طرق البحث في علم النفس على التحليل الإحصائي الرياضي
للجزئيات الظاهرة العلمية . وهي بهذا تنأى عن دراسة الكل الذي ينشأ من انتظام
هذه الجزئيات . وللكل ذاته صفات أساسية لا توجد في مجموع الأجزاء التي تكونه ،
بل هي وليدة صفة السكلية ذاتها . فالجزء جزء بالنسبة للكل . وهو يشق صفاته

(1) Young, P.T., "Motivation, Feeling, and Emotion",
in Andrews, T. G., Methods of Psychology, 1948, p. 874.

الخاصة من الكل العام الذى يشمل . فالفرد مثلاً يعيش فى مجال يحتويه ويحتوى معه الموقف المحيط به . لهذا اتخذ كيرت ليفن Kurt Lewin المجال أساساً لدراسته فى علم النفس وهو بهذا ينحون نحو مذهب الجشتالت فى أسلوبه العلمى . ومن دعاة مذهب الجشتالت كيرل Kohler وكوفكا Kofka وفرثيمر Wertheimer . ولقد اتخذ براون J.F. Brown فكرة المجال أساساً لدراسة علم النفس الاجتماعى فى كتابه المشهور « علم النفس والنظام الاجتماعى »^(١) .

ولنضرب للطريقة الجزئية والطريقة انكسائية مثل البحث الإحصائى والبحث الجالى لسيكولوجية الحرب . فالدراسة الإحصائية تعطينا صورة عن شعب يحارب وذلك بسرد الأرقام الدالة على تعداد أفراد الجيش وتوزيع وحداتهم ، وتعداد القتلى والمصابين والأسرى ، والأموال التى أنفقت على الحرب وهكذا ، بينما تدرس الطريقة الجالية كل ما يحدث وكل ما ينفق على أنه صفات للمجال الحربى القائم على علاقات تربط تلك الجزئيات بالكل العام الذى يشتمل عليها ، والذى يتبلور فى صورة كلية واحدة هى شعب يحارب ، فكل جزء من الموقف يشتق صفاته من تلك الصورة العامة الانكسائية ، وهى بهذا تشير إلى التغيرات التى تصاحب هذا المجال الحربى ، مثل زوال الفوارق القائمة بين الطبقات ، وزوال كل فوارق أخرى بين الناس ، وزوال كل تنازع داخلى ، ذلك لأن الشعب كله يدافع عن كيانه ووجوده وهذا أهم من كل المميزات الخاصة النوعية التى تقوم بين طائفة وأخرى ، وهكذا تزداد نسبة العاملين فى الصناعات الحربية ، وتتسامح الشعوب الشرقية أو تغض الطرف عن اشتغال المرأة بالصناعة أو بما يقرب من الصناعة ، ويكثر الزواج بين رجال الجيش والممرضات . وتوزع المواد الغذائية ببطاقات وتتضخم بعض الثروات لاتصالها المباشر بتموين الجيش ، وترتفع بعض الأسعار ، وهكذا تشتق تلك الجزئيات صفاتها من الكل .

فطريقة المجال إذن صيحة قوية فى أذن العلم ، حتى لا يهتم بالشجرة وينسى الغابة التى تحويها ، وحتى لا يهتم بالخلية وينسى الكائن الحى كله الذى أضفى على

1) Brown, J.F., Psychology and the Social Order, 1936.

نخيلة ذاتيتها من كليته ، هي صيحة تهز أركان أساليب البحث العلمى ، وتهدف إلى حقائق جديدة لم نك نلتفت إليها أو نهتم بها من قبل .

لكن المغالاة فى أى اتجاه تفقد العلم توازنه . والإفراط كالتفريط كلاهما شر وخطر . لهذا يجب أن يستعين الباحث فى علم النفس الاجتماعى بالجمال فى أبحاثه كما يجب أن يلجأ إلى التحليل الإحصائى ليقترّب من الحقيقة التى يهدف إلى معرفتها من زوايا عدة . ولكل وجهة ، ولكل طريقة ، اكتشافاتها ونتائجها التى تسفر عن أعماق الجھول .

هذا ولقد عاجلنا الأسس الأولى التى تقوم عليها نظرية المجال فى تحليلنا لديناميكية الجماعات .

الطريقة المقارنة :

يعيش الفرد فى إطار الجماعة . والإطار المباشر يبدو فى علاقاته — أى الفرد — مع الأنواع المختلفة للجماعات التى ينتسب إليها ، والإطار غير المباشر يهيمن عليه من على ، ويؤثر فيه خلال أنماط الثقافات المختلفة التى يدين بها الفرد .

ولدراسة أثر الثقافة فى الفرد يلجأ الباحثون إلى نوع خاص من الدراسات المقارنة فيفترون أن كل ما هو بيولوجى حيوى ، يبدو عاماً مشتركاً بين جميع أفراد النوع الإنسانى وأغلب أنواع المملكة الحيوانية ، وكل ما يميز النوع الإنسانى عن الأنواع الحيوانية الأخرى فرجعه إلى الثقافة . وبعض أنماط الثقافة يميز فريقاً من البشر عن فريق آخر . وبهذا فالاختلافات الواضحة بين جماعة من المصريين وجماعة من العراقيين ، تعود فى جوهرها إلى اختلافات فى الثقافتين .

فالمقارنة بين ظاهرة وأخرى هى جوهر البحث فى كل ما يتعلق بالثقافة . ولقد فطنت مرجريت ميد M. Mead ، باحثة الأجناس البشرية ، فى دراستها للصفات النفسية لبعض القبائل البدائية فأقامت دراستها « لساموا » على أساس المقارنة بين

مراحل المراهقة والبلوغ عند تلك القبائل وعند الإنسان المتحضر^(١). وفطنت بنديكت R. Benedict أيضا إلى نفس الطريقة في دراستها لأنماط الثقافة^(٢). وتبدو أهمية تلك الدراسات وما يمثّلها في محاولتنا لدراسة أثر المجتمع المصرى فى تنشئة الفرد . فالمقارنة هنا ضرورة لاغنى عنها لفصل الأثر المصرى خلال البحث عن آثار العوامل الأجنبية الدخيلة فى تكوين الشخصية .

الطريقة التتبعية :

يتلخص جوهر تلك الطريقة فى متابعة ظاهرة علمية ما فى نموها أو فى تطورها . من الحيوان للإنسان أو من الطفل للرجل ثم رصدها وتحليلها . ويجب أن نفرق هنا بين نوعين من أنواع الدراسات التتبعية : —

(١) الدراسة التتبعية المورثات ويطلق عليها عادة اسم Genetic وهذا الإصطلاح مشتق من كلمة Gene التى تدل على المورثة . أى حاملة الصفات الوراثية من جيل إلى جيل . فهى إذن أنسب ما تكون فى إثبات النواحي الفطرية المورثة . أى أنها تنحدر من الحاضر إلى الماضى فى بحثها عن الأصول والأسس .

(٢) الدراسة التتبعية المتتالية ويطلق عليها عادة اسم Follow up ومن أمثلتها دراسة تطور صفة ما وارتباطها بنمو الفرد . فهى بذلك تبدأ مع الظاهرة العلمية من حاضرها الراهن وتسير معها قدماً فى طريق المستقبل .

وتهمنا الطريقة التتبعية المتتالية فى دراسة التنشئة الاجتماعية واكتساب الطفل للصفات الاجتماعية ، وارتباط تلك التنشئة وذلك الاكتساب بمراحل نمو الطفل . وسيأتى بيان ذلك فى دراستنا لسيكولوجية الأسرة .

(1) Mead, M., Coming of Age in Samoa, 1928.

(2) Benedict, R, Patterns of Culture,

المراجع

1. Allport, F.H., and Hartman, D.A., "The Measurement and Motivation of Atypical Opinion in a Certain Group", *American Political Science Review*, 1925,19, pp.735-760.
2. Bogardus, E.S., *Immigration and Race Attitudes*, 1928.
3. Boring, E.G., "A Psychological Function is the Relation of Successive Differentiations of Events in the Organism" *Psychological Review*, 1937,44, pp. 445-461.
4. Britt, S.H., "Past and Present Trends in the Methods and Subject Matter of Social Psychology", *Social Forces*, 1937,15, pp. 426-469.
5. Dewey, J., "The Need for Social Psychology", *Psychological Review*, 1917,24, p.p. 266-277.
6. Griffith, C.R., *Principles of Systematic Psychology*. 1943.
7. Heidebreder, E., *Seven Psychologists*, 1933.
8. Jennings, H.H., *Leadership and Isolation ?* 1943.
9. Moreno, J.L., *Who Shall Survive ?* 1934.
10. Murphy, G., Murphy, L.B., and Newcomb, T.M., *Experimental Social Psychology*, 1937, Chapter I.
11. Reeder, W.G., *How to Write a Thesis*, 1930, Especially "Questionnaire Method," p.p. 58-75.
12. Rice, S.A., *Quantitative Methods in Politics*, 1928.
13. Ritchie, A.D., *Scientific Method*, 1923.
14. Stevens, S.S., "Psychology and the Science of Sciences", *Psychological Bulletin*, 1939,36, p.p. 221-263
15. Symonds, P.M., *Diagnosing Personality and Conduct*, 1931, p. 122.
16. Watson, G.B., "Orient and Occident: An Opinion Study", in Murphy and Murphy, *Experiments in Social Psychology*, 1931, p. 626.
17. Woodworth, R.S., *Experimental Psychology*, 1928, Chapter, 1.

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية عند الحيوانات

نشأة الحياة الاجتماعية

ما كان لبشر أن ينشئ الحياة الاجتماعية من العدم. فذورها أعمق من بشريته . وأصلها لا ينبت من الحياة الإنسانية وحدها ، بل إنها لتبدأ مع ألوان الحياة المختلفة نباتية كانت أم حيوانية . ولسنا هنا بصدد دراسة الحياة الاجتماعية عند النباتات . ذلك استطراد لا يتسع له مثل هذا الكتاب . وعلى الراغبين في دراسة هذه الناحية أن يرجعوا إلى الموسوعة التي أشرف على إخراجها مرتشيسون C. Murchison في علم النفس الاجتماعي⁽¹⁾ .

أهمية دراسة الحياة الاجتماعية عند الحيوانات

سنلم هنا إلى الماسة وجيزة بالحياة الاجتماعية عند الحيوانات لأهميتها في معرفة نشأة الحياة الاجتماعية وتطورها ، وفي أنها تزود الباحث بأبسط صور العلاقات الاجتماعية ، ليستعين بهذه البسائط في تحليل العلاقات المعقدة التي تبدو في حياة الإنسان اليومية . وهي أيضا تمهد له السبيل لدراسة أثر الوراثة والبيئة في السلوك الاجتماعي للإنسان . فإذا اشترك الإنسان والحيوان في مظهر ما من مظاهر السلوك الاجتماعي فإننا نرجعه — عادة — إلى عامل بيولوجي عام ، وإذا اختلف الإنسان والحيوان في مظهر من مظاهر السلوك الاجتماعي وتميز به الإنسان عن الحيوان ، فإننا نرجعه إلى الثقافة والتراث الاجتماعي البشري . وهذا وفي وسع الباحث أن يجد في السلوك الاجتماعي للحيوانات ميداناً مهيئاً لتجاربه . ذلك لأن نتائج التجارب أقرب لموضوعية العلم في الحيوان منها في الإنسان ؛ لدقة التحكم في المؤثرات المختلفة . ولسهولة عزل الظاهرة

(1) Murchison, C., A Handbook of Social Psychology, 1935.

الخاصة بالبحث ، ولانعدام التجاوب الشخصى بين الباحث من ناحية ، ومادة التجربة من ناحية أخرى .

الحياة الاجتماعية عند الحشرات

يعتقد وهيلر W. M. Wheeler أن التفرقة العلمية بين السلوك الاجتماعى للحشرات وبين السلوك الاجتماعى للإنسان أمر جدد عسير للتشابه البالغ بين نوعى السلوك ^(١) ويخالفه فى ذلك وarden C. J. Warden وقرر أن تشابه الحياة الاجتماعية عند الحشرات وعند الإنسان تشابه تافه ضئيل لا يودى إلى حقائق علمية ثابتة ^(٢) .

والحق الذى لا مرأى فيه إن الحياة الاجتماعية عند بعض أنواع الحشرات قد بلغت الذروة العليا فى الرقى . وقد تعجب حشرات تعيش فى جماعات تتألف كل جماعة من آلاف الأفراد ، يسرون معاً وكأنهم فيالق جيش منظم ، يعبرون العقبات التى يلاقونها فى طريقهم فى مهارة ونظام ، يساعد بعضهم بعضاً تجاه الخطر المشترك ، يدافعون عن مساكنهم بحياتهم وأرواحهم ، يوزعون العمل بينهم توزيعاً عادلاً لاغبين فيه ولا إجحاف ، يشتركون جميعاً فى تنشئة الصغار ، وتنفى فرديتهم وتتلاشى فى خدمة الجماعة .

ولقد تطورت الحياة الاجتماعية عند تلك الحشرات من آماذ سحيقة واستقرت فى صورتها النهائية منذ حوالى ٦٥ ٠٠٠ ٠٠٠ سنة . ولم يتطور من بين جميع أنواع الحشرات المعروفة والتى تقدر بحوالى ٥٠٠ ٠٠٠ نوعاً إلا نسبة ضئيلة تبلغ حوالى ٣٪ . ولعل أهم أنواع الحشرات الاجتماعية هى النمل والنحل والزناجير .

وإن المقارنة العابرة بين حياة الإنسان وحياة تلك الحشرات لتدل دلالة واضحة على أنها سبقتنا بأشواط بعيدة فى مضمار الحياة الاجتماعية . لكن يعيبها ثباتها واستقرارها وجمودها الغريزى الفطرى .

(1) Wheeler W. M., Social Life Among the Insects, 1923.

(2) Warden, C. J., The Emergence of Human Culture, 1936.

وشتان ما بين الإنسان وما بين تلك الحشرات . فالإنسان حينما يفضل الصراط السوى فى سلوكه الاجتماعى يجد نفسه إما فى أعماق السجون أو مستشفى المجانين . ويجد المجتمع قد أقام له دوراً للقضاء لتحكم لصالح الجماعة ، وأقام له دوراً للعلم تهيبه الحياة قوامها النظم والتقاليد والعرف وكل ما أصطلحت عليه الجماعة وقدرته . فتلك القيم والمعايير التى تهيم على حياة الإنسان إنما هى وليدة ثقافته . وهى تختلف أحياناً من شعب لشعب ومن جيل لجيل ، وهى تتطور أحياناً وترقى برقى المثل العليا . وبجهود قادة الفكر ، وبتطور فكرة الإنسان عن نفسه وعن نوعه وعن الكون كله . فهى خاضعة فى جوهرها للتطور الفكرى عند الإنسان .

لكن تلك الحشرات الاجتماعية لا تدرى ولا تدرك فى حياتها جنوحاً أو نفوراً ، لأنها لا ترى لحياتها طريقاً غير الذى تسلكه . فهى اجتماعية بالفطرة ، ترث ألوان حياتها المختلفة مع ما ترث من صفات بيولوجية فسيولوجية . فهى أشبه ما تكون بالآلات وأجهزة تلقائية صماء ، تحركها أنماط خاصة ، استقرت فى أعماقها منذ ملايين السنين . ومهما يكن من أمر حياتها فهى ترسم لنا طرقاً وسبلاً تهدينا إلى ما نسعى إليه أحياناً من نظم جديدة حياة اجتماعية فاضلة .

الحياة الاجتماعية عند الطيور

تختلف الحياة الاجتماعية عند الطيور عن حياة الحشرات ، فى أن الطيور متأخرة فى تطورها الاجتماعى تأخراً بعيداً . لكنها رغم ذلك متنوعة مختلفة ، فبعض أنواع الطيور تعيش فى جماعات كبيرة وبعضها تعيش فى جماعات صغيرة . وبعضها تسلك فى حياتها سبلاً اجتماعية واضحة ، وبعضها تسلك سبلاً تجنح إلى العزلة أكثر مما تجنح إلى التجمع . وبعضها تألف الحياة الاجتماعية لشهور عدة وبعضها تحياتها فى لحظات عابرة ثم تنفر منها . لحياتها إذن حوّل قلب ، تتأرجح بين قطبين وتذبذب بين نهائيتين . ويجب أن نفرق بين مجرد التجمع . وبين الحياة الاجتماعية . فقد تتجمع الطيور فى صعيد واحد ، لكنها لا تتعاون ولا تتصل من قريب أو من بعيد بأية صلة اجتماعية .

وقد تتجمع الطيور للهجرة فتتنظم في وحدة جامعة يقودها مرشد منها يتقدمها فتندفع في طيرانها إثره . ولقد درس لورنز K. Lorenz هجرة الغربان فشهد الجمع يضطرب عند غياب بعض أفرادها (١) . وشاهد الجمع يطارد كل طائر غريب يحاول أن ينضم إليه ويشاركه هجرته . وشاهد أيضاً حياة هذا النوع من الطيور طوال أيام السنة فألفاها تعيش في جماعات لها وحدتها الاجتماعية ، حيث يرتبط أفرادها بعلاقات متبادلة مشتركة .

وتكاد جميع أنواع الطيور تشارك في شعورها المرهف بحب السيطرة وحب الخنوع . فما اجتمع طائران معاً إلا وأدرك كل منهما مكانته بالنسبة للآخر . فإذا أحدهما قائد والآخر مقود . وسنتناول هذه الدراسة في تحليلنا لمقومات الزعامة عند الحيوانات .

الحياة الاجتماعية عند القردة

تتألف جماعات القردة عادة من القرد وإناثه وصغاره . والجماعة بتكوينها هذا تؤدي وظائف عدة أهمها التناسل ، وتنشئة الصغار والبحث عن الطعام ، والدفاع عن حق الجماعة أمام كل خطر ، ومهاجمة كل معتد جائر . وهكذا تسمع القردة بحياتها الاجتماعية ، ويبدو استمتاعها هذا في ميلها إلى التجمع وعزوفها عن العزلة ، وفي ما تيسره لها هذه الحياة من اللهو واللعب .

وحنان الأمهات وعطفهن على صغارهن ، يشبهان حنان الأم الآدمية وعطفها على أولادها . وتظل علاقة الأم بوليدها قوية وثقى حتى يبلغ عمر الصغير أربعة أشهر ويصبح بذلك قادراً على القفز والعدو والاستقلال بحياته نوعاً ما . لكنه لا يفتأ أن يلجأ إليها كلما خاف أذى أو شراً . ولا تقتصر وظيفة الأم على مجرد إرضاع الوليد ، بل تمتد إلى نظافته وتوجيهه وتعليمه . وهكذا يحب الرضيع أمه وينتقل هذا الحب — مع تدرج نموه — إلى القردة الكبار وينتقل أحياناً إلى الإنسان الذي يدرسه أو يؤويه . ولقد دلت تجارب كيلوج W. N. Kellogg التي أجراها على طفله وعلى

(1) Vide; Friedmann, H, "Bird Societies,"
in Murchison, C., OP. Cit., P. 149.

قرد رضيع ، حيث ربي الاثنين معا ، على أن القرد كان يصادق الطفل ويكاد يعتمد اعتماداً كلياً على المربي نفسه^(١) . وأن هذا الشعور بالتبعية لدليل قوى على علاقة اجتماعية قائمة .

وللقردة أصوات وإشارات خاصة تنقل بها انفعالاتها ورغباتها إلى الآخرين . وهى وسيلتها للتعبير عن النشاط الجنسي ، والحاجة للطعام ، والهرب واللعب والسيطرة . ولها من وسائل الاتصال الاجتماعى ضروباً أخرى غير الأصوات والإشارات . فهى قد تؤدى المعنى الذى تريد أن يفهمه عنها رفاقها بما تبديه على عضلات وجها من غضب أو سرور ، وبما يبدو فى وقفقتها من معان مختلفة .

ويقرر كيلر W. Köhler أن التعاون بين القردة قوى واضح^(٢) . ويستدل على ذلك ببعض تجاربه التى أجراها عليها . فلقد لاحظ أنها عند ما تجد موزاً معلقاً بعيداً عنها ، وعندما تجد - فى نفس الوقت - بضع صناديق خشبية مبعثرة بالقرب منها ، فإنها تتعاون فى وضع الصناديق بعضها فوق بعض لتصل إلى الموز .

وبين القردة والإنسان تشابه فى بعض نواحي الحياة الاجتماعية ، وتباين فى بعض نواحيها الأخرى . والدراسة المقارنة للقرد والإنسان تلقى ضوءاً على بعض المنابع الأولى للحياة الاجتماعية الإنسانية ، وتسفر عن تمايز النوع الإنسانى ببعض الصفات ، واستقلاله وانفراده وحده بها^(٣) . وبذلك فالمقارنة تهدينا إلى :

(١) تبدأ علاقة الأم بوليدها كعلاقة بيولوجية ثم تتطور إلى نوع من الرعاية والحماية . ويلبس الباحث بذور الأسرة وجذورهما الأولى فى تلك العلاقة . فهى تزود الناشئ الصغير بمقومات حياته المقبلة . لكنها تقصر عن أن تبلغ المستوى الإنسانى لعجزها عن السمو إلى تكوين الثقافة بعناصرها المختلفة كما تبدو فى الإنسان .

(1) Kellogg, W. N., and Kellogg, L. A., The Ape and The Child, 1933, PP. 159-192.

(2) Köhler, W., The Mentality of Apes, 1925.

(3) Young, K., Handbook of Socied Psychology, 1948, PP. 27-38.

(٢) يتخذ السلوك العدائى عند القردة مظهراً من مظاهر التنازع على السيطرة للاستحواز على الغذاء أو للفوز بالأثى . وقد يكون السلوك العدائى مباشراً فيبدو فى العراك البدنى العنيف . وقد يكون غير مباشر فيبدو فى تجهيم الوجه وإشارات اليدين ونبرات الصوت .

(٣) تتأثر سيطرة القرد على أشاء بدورة النشاط الجنسى . وفى مقدور الأثى أن تخضع الذكر وتسيطر عليه عند ما يراودها عن نفسها . لكنه سرعان ما يستعيد سيطرته وزعامته عند ما تنتهى تلك الدورة .

(٤) يلعب صغار القردة ألعاباً مختلفة تشبه ألعاب الأطفال . ولا يميل الكبار إلى اللعب

(٥) يتعاون جمع القردة فى البحث عن الطعام وفى مواجهة الخطر المشترك ، وفى دفاعهم عن غذائهم وعن صغارهم . وهم بتعاونهم هذا يشبهون النوع الإنسانى فى بعض ألوان سلوكه الاجتماعى .

(٦) تتفاهم القردة بالأصوات والإشارات — كما أسلفنا — لكنها عاجزة عن إختراع لغة رمزية تنتقل من جيل إلى جيل ، وتنتقل معها تراث وخبرات الأجيال الماضية كما يفعل الإنسان . وعلى الرغم من أن حنجرة القرد وأوتارها الصوتية صالحة للنطق بألفاظ أية لغة كانت ، إلا أن التكوين العضوى للمخ ليس صالحاً لإختراع اللغة^(١) .

(٧) يتعلم القرد بسرعة ويستخدم أحيانا بعض الآلات البسيطة فى حياته كالعصى والحبال ، لكنه يعجز عن إدراك العلاقات المجردة ، وعن إدراكه لذاته ككائن اجتماعى .

(٨) يعطف القرد على المرضى والضعاف ، لكنه سرعان ما ينسى كل ما يرتبط

(١) تبلغ خلايا المخ العصبية حوالى عشرة مليون خلية فى الانسان . وترتبط هذه الخلايا بأنسجة عصبية تكاد تبدو تحت الميكروسكوب وكأنها لانهائية . ولهذا الأنسجة أهميتها الكبرى فى التكوين الوظيفى للمخ البشرى . وإذا قورن هذا المخ بأعناق الحيوانات الفقرية العليا فانه يبدو بالنسبة لها وكأنه عملاق فى عالم كله أقزام . ولقد بلغ به تطوره المآرج العليا حتى تمايز عن تطور الحيوانات كلها فى تعقيد التكوين وفى عمق وسمو الوظائف التى يقوم بها .

بالموقف الذى أثار عطفه وذلك عندما تنتقل به أمور الحياة بعيداً عن الإدراك المباشر لذلك الموقف .

التقليد عند الحيوانات

قديمًا ذهب العلماء إلى أن التقليد غريزى . ومن القائلين الداعين إلى هذا رأى وليم جيمس W. James و بولدوين Baldwin ويخالفهما فى ذلك مكيدوجل W. Mc Dougall . وهو يستدل على رأيه هذا بأن التقليد يختلف عن الغرائز فى أنه لا يتميز بنوع خاص من السلوك . وهو كذلك يختلف باختلاف الموقف المحيط به .

والحيوانات - بما فيها الإنسان - تقلد عند ما تدرك أن تقليدها هذا هو وسيلة وسبيلها إلى تحقيق هدفها الذى يكمن فى المجال النفسى . فالموقف الديناميكي النفسى هو الذى يخلق التقليد . وبذلك فهو لا ينشأ عن قوة دافعة تهدف دائماً إلى غرض واحد خاص . والاتجاه العلمى الحديث يخرج التقليد من سيكولوجية الدوافع .

التقليد ظاهرة اجتماعية يشترك فيها الإنسان وبعض أنواع الحيوانات . وهو فى جوهره استجابة فرد ما لمثير يصدر عن فرد آخر . وبين الاستجابة والمثير تشابه قد يقارب بينهما إلى درجة التماثل .

وقد يقلد الحيوان الإنسان ، أو يقلد الحيوان حيواناً آخر . والحيوان يقلد الإنسان فى التصفيق والتعبيل والرقص والإشارات واللعب واستخدام بعض الآلات البسيطة . ولا يعنى هذا أن تلك الأمور قاصرة على الإنسان وحده ، إذ قد يقوم بها الحيوان من تلقاء نفسه .

والإنسان أشد وأدق مقلد بين جميع أفراد المملكة الحيوانية . ويليه فى تلك المرتبة الشمبانزى ثم القردة .

وتدل دراسات فالنتين C. W. Valentine على أن التقليد يظهر عند الأطفال

في سن مبكرة^(١) . وهو يؤيد رأيه هذا بتجاربه التي أجراها على عدد كبير من الأطفال يتراوح سنهم فيما بين بضعة أسابيع وواحد وعشرين شهرا . وتتلخص تلك التجارب في إجراء ٣٦ حركة مختلفة أمام الأطفال . وتنقسم هذه الحركات إلى نوعين :

(١) نوع يعتمد على مجرد تحريك عضلات الوجه ، واليدين ، والرأس .

(٢) ونوع يعتمد في جوهره على استخدام بعض الأجهزة البسيطة مثل دق الطبول .

ولقد أسفرت نتائج تلك التجارب عن الحقائق التالية : —

(١) تقليد الابتسام والضحك وإخراج اللسان ؛ يقوم به الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ستة أشهر .

(٢) تقليد حركات الرأس ، وإشارات اليدين ؛ يقوم به الأطفال الذين تتراوح أعمارهم فيما بين ستة أشهر وستة .

(٣) تقليد الحركات التي تعتمد على الأجهزة البسيطة ؛ يقوم به الأطفال الذين تربو أعمارهم على السنة .

فالتقليد إذن ميل يعتمد في تطوره على مراحل النمو التي يمر بها الطفل وعلى حظه من النضج .

وتدل أبحاث كاتز D. Katz على أن الحيوانات تميل إلى التقليد^(٢) . فالدجاجة التي تأكل طعامها حتى تشبع ثم تكف عن الطعام ، تعود لطعامها ثانية رغم شبعها حينما ترى دجاجة حائرة تأكل أمامها . والشمبانزي الذي يرفض أن يأكل قطعة من السيلوز يعود فيأكلها حينما يرى إنسانا يمضغها أمامه .

ويتدرج التقليد عند الكائن الحي من مجرد إثارة الانتباه إلى أن يصل إلى مستوى التقليد الصحيح ؛ أي أنه يمر بالمرحلة التالية :

(١) الاستشارة — إثارة نشاط المقلد حتى يبدو واضحا جليا .

(1) Valentine, C. W., "The Psychology of Imitation British Journal of Psychology, 1930, 21, PP 105 — 132.

(2) Katz, D., Hunger and Appetite, 1932.

(٢) الغاية - توجيه نشاط المقلد نحو هدف يشتق معناه من طبيعة المثير ،
ومن طبيعة الموقف الذى يشتمل عليه .

(٣) الوسيلة - توجيه نشاط المقلد إلى الأساليب والطرق التى يتبعها
المقلد فى سلوكه .

(٤) الوسيلة والهدف والعمل - توجيه نشاط المقلد نحو وسائل وغايات المقلد
توجيهها يسفر عن سلوك الأول بما يطابق سلوك الثانى .

السيطرة عند الحيوانات

وثمة ظاهرة اجتماعية تبدو واضحة عند أنواع كثيرة من الحيوانات ونعنى بها تأثر
الجماعة بفرد منها واثباتها له ، وتمهيد الفرصة لسيطرتة وزعامته .

فألزامة فى مجتمعات الغوريلا تؤول دائماً للذكر ؛ وللعامل الجنىسى هنا أثره
البالغ فى ظهور هذه الزامة . والزامة عند الدجاج الرومى دائماً للذكر ، وعند
أبى فصادة للأُنثى .

و بعض أنواع الطيور تنحو نحو القتال فى سبيل الغلبة والسيطرة . ونحن فى مصر
نذكر قتال الديكة ، ونذكر أيضاً سلوك المغلوب على أمره ، فهو سلوك ظاهره الطاعة
والخوف ، وباطنه العزلة والانتحاء بعيداً عن غريمه . وعامل القوة هنا هو الذى يحدد
مظهر السيطرة والزامة .

والزامة عند بعض الطيور ترجع إلى العمر الزمنى ، وبذلك يسيطر الطائر
العجوز على متوسطى السن وصغاره . ولهذه الظاهرة الأخيرة ندها فى المجتمعات
الإنسانية الأولى ، حين كان يسيطر كهول الأسرة والقبيلة والعشيرة على شبابها وفتياتها .

وهناك ظاهرة أخرى لا تخضع فى تفسيرها للعامل الجنىسى ولا لعامل القوة ولا
لعامل السن ، بل تخضع لعوامل شخصية ذاتية تختلف باختلاف الموقف نفسه . وتدل
أبحاث سجيلدريپ Schjelderup-Ebbe على أن طائراً ما مشل (١) يغلب طائراً

آخر مثل (ب) ويغلب (ب) طائراً آخر مثل (ج) وينتهى الأمر بأن يغلب (ج) (أ) بدل أن يغلب (أ) (ج) (١).

وتجارب ماسلو A. H. Maslow تقرر لونا واضحا من ألوان سيكولوجية الزعامة والانقياد^(٢). فلقد تمكن طائر ما من السيطرة على آخر، فنقل ما سلو الطائر المغلوب على أمره إلى مكان آخر واستبدل به طائراً ثالثاً، فتغلب الأول على الثالث. ثم جمعهم ماسلو معاً فتضامن الثاني والثالث وهزما الأول، فاستكان لهما وذهبت عنه نعرته الأولى. وعند ما أبعد الطائر الثالث عنهما ظل الأول في استكانته. ولم يعاود قتاله في سبيل سيطرته.

ويلخص يركز R. M. Yerkes العوامل التي تحدد الزعامة عند الحيوانات في صفات أهمها الجنس ذكراً أم أُنثى، والعمر، والحيوية، واليقظة والانتباه وفي عوامل أخرى مزاجية.

الجماعة الداخلية والجماعة الخارجية

أشرنا في الفصل الخاص بأنواع الجماعات إلى التقسيم الداخلى والخارجى لأفراد الجماعات. وقلنا إن « الجماعة التي ينتمى إليها الفرد تسمى بالجماعة الداخلية والجماعة التي لا ينتمى إليها هي جماعة خارجية بالنسبة له. وبين الجماعتين فوارق وحدود قائمة » وبحسب التعصب على أساس التباين القائم بين الجماعتين.

وينطبق هذا التقسيم على أغلب أنواع المملكة الحيوانية. فالتسل يتعرف على أفراد جماعته من رائحتها ويهاجم كل نملة لا تنتمى إلى جماعته. والطيور تهاجم كل طائر لا ينتمى إلى زمريتها. والشبانزى لا ترتاح إلى أى شبانزى غريب يقترب منها،

(1) Schjelderupe-Ebbe, T., "Social Behavior of Birds" in: Murchison, A Handbook of Social Psychology, 1935.

(2) Maslow, A. H., "The Role of Dominance in the Social and Sexual Behavior of Infra-Human Primates," Journal of Genetic Psychology, 1936, 48, PP. 261 - 277.

وقد تألف صحبته بعد حين لكنهما لا تملك إلا أن تنفر منه بادية ذى بدء وكلنا
يذكر نباح كلاب الحى عند ما تبصر كلباً غريباً عنها .

ولا تقوم هذه التفرقة النوعية على أساس الطبيعة البيولوجية التى تقارب بين
أفراد النوع الواحد ، وتباعد بينه وبين أفراد الأنواع الآخرين . فكثيراً ما تُشاهد
البقرة الوحشية مع الفيل بين أحضان الغابات . وكثيراً ما يشاهد الحمار الوحشى يرمى
مع الغزال والنعام . وكلب الحراسة يهش لأصحابه حينما يلقاهم وينبح فى كل وجه
إنسان غريب يطأ بقدميه عتبة الدار .

ولو كانت التفرقة النوعية هى أساس الحدود القائمة بين كل جماعة داخلية وكل
جماعة خارجية لما هاجم الطير كل طير لا ينتمى إلى جماعته . ولما هاجمت كلاب
الحى كل كلب شارد ضال تقوده أقدامه نحوها .

لكن التفرقة بين الجماعتين تقوم فى جوهرها على أساس الألفة الاجتماعية التى
تربط كائناً بآخر وتؤاخى بينهما .

تلخيص للحياة الاجتماعية عند الحيوانات

يلخص تينكلباخ O.L.Tinklepaugh العوامل التى تحدد العلاقات
الاجتماعية عند الحيوانات فى : — (١)

(١) البيئة الطبيعية — فالمناخ مثلاً أثره فى هجرة الطيور وغيرها من الحيوانات

(٢) التكوين البيولوجى — فاختلاف التكوين البيولوجى لأفراد مملكة
النحل يحدد وظائف أفرادها ، من العاملة إلى الملكة .

(٣) العوامل الفسيولوجية — فهى تحدد علاقة الذكر بالأنثى ، وتنشئ
روابط اجتماعية خاصة .

(1) Tinklepaugh, O. L., Social Psychology of Animals, 1935.

(٤) العوامل النفسية — وخاصة العوامل الانفعالية ، ففزع الشاة يسرى في القطيع كله .

الفرقة بين الحياة الاجتماعية الانسانية والحيوانية

تختلف الحياة الاجتماعية البشرية عن حياة الحيوان الاجتماعية في أنها معقدة تهيمن عليها ثقافة خاصة . ونعني بالثقافة ذلك الكل المعقد في تكوينه . الذي يشمل العقائد ، والفن ، والخلق ، والقانون ، والتقاليد والمعلومات وكل ما يكتسبه الفرد في حياته الاجتماعية .

والفرقة النفسية الاجتماعية بين حياة الإنسان وحياة الحيوان تنحصر في قدرة الإنسان على إدراك واستخدام الرموز في حياته اليومية . واللغة أهم الرموز الصوتية . وتنشأ هذه القدرة عند الإنسان من ملاسبات الحياة الاجتماعية ، ومن طول مرحلة الطفولة واعتمادها المباشر على البيئة الاجتماعية ، وتأثرها بمجرى الحوادث الذي ينحونحو عالم تهيمن عليه رموز عامة وحضارة خاصة . وبالتالي فإن هذه الرمزية تؤدي بالإنسان إلى شعوره بذاته ، وإدراكه للنظام القائم وخضوعه له ، وتأثره الشعوري واللاشعوري بالمعايير الخلقية المختلفة .

وتشارك لغة الحيوان مع لغة الإنسان في أنها أصوات تصدر من الجسم يصاحبها نشاط عقلي خاص ، وتتصف هذه الأصوات بأنها تثير في أفراد نفس النوع استجابات خاصة .

وتختلف لغة الحيوانات عن لغة الانسان ، في أن لغة الحيوانات أصوات منفردة تعبر عن حالة انفعالية خاصة ، فهي تنبع من أصول غريزية فطرية . فالكلب ينبع حتى ولو عزل بعد ولادته مباشرة عن أي كلب آخر ، فهو في نباحه هذا غير مقلد وغير متأثر بالبيئة الاجتماعية الكلبية . وعلى العكس من ذلك نجد أن الطفل المصري إذا نقل بعد ولادته مباشرة ليعيش في بلد آخر مع قوم يتكلمون لغة غير العربية ، كالانجليزية مثلاً ، فإنه يتحدث الانجليزية كأي طفل انجليزي ولا يتحدث أو يفهم اللغة العربية .

ولنا بعد هذا التحليل أن نقرر أن القدرة اللغوية فطرية ، وتعلم أى لغة ما أمر مكتسب ، يختلف باختلاف طبيعة كل لغة . والبيئة التى تساعد الفرد على اكتساب لغته هى البيئة الاجتماعية وليست البيئة الطبيعية . واللغة بهذا المعنى نتاج فوق العضوى Superorganic أى أنها عضوية فى جوهرها وفوق العضوية فى مظهرها الرمزي البشرى .

فعبقرية النوع الإنسانى تقوم على ثقافته . وهو وحده من بين جميع أفراد المملكة الحيوانية يتميز بتلك الثقافة . ويؤكد واردن C J. Warden ولوب L. Loeb أن الثقافة انبثقت فجأة يوم ظهر الإنسان على وجه الأرض ⁽¹⁾ . فوجودها رهن بوجوده . وبظهور الثقافة ظهرت معها وسائل الاتصال الرمزية الصحيحة . وظهرت معها الاختراعات بأنواعها المختلفة ، وظهرت معها الوسائل والطرق التى تؤدى إلى اكتساب الصفة الاجتماعية .

ظهرت مهارات جديدة اكتشفها واخترعها أفرادٌ ممتازون فى ذكائهم وفى قدراتهم وفى مواهبهم ثم نقلوها إلى باقى أفراد النوع الإنسانى وكانت وسيلتهم فى ذلك اللغة والتقليد . ثم نقلها الأطفال عن آبائهم بنفس الوسائل والطرق التى نقلها الآباء من قادة الفكر والاختراع . وهكذا سرت من جيل إلى جيل عبر الزمن حتى أمست عرقاً وأصبحت تقاليد مرعية .

فاللغة اللفظية هى جوهر الثقافة . اللغة التى تقوم على المدركات والتجريد هى التى ميزت النوع الإنسانى عن بقية أنواع المملكة الحيوانية . فلا يشق على الكثير من أنواع الحيوانات أن يعبر عن جوعه لكن الإنسان وحده هو القادر على أن يطلب لهماً أو يرتقلاً لغذائه . فالألفاظ أردية تتدثر فيها الخبرات والتجارب التى تمر بالفرد وبالنوع الإنسانى كله . والألفاظ تجريد وتعميم لجزيئات محسوسة مادية . فقولك « هذه البرتقالة » يعنى برتقالة خاصة تراها بعينيك وتلمسها بيديك . وقولك

(1) Warden. C. J., The Emergence of Human Culture, 1936, P. 105.

Loeb, L., The Basis of Individuality, 1945, P. 654.

« برتقال » يعنى أى برتقال فى العالم . فهو تجريد وتعميم يشتمل على كل برتقالة وجدت وستوجد ، ويجمع هذا اللفظ الكلى جميع الصفات المشتركة العامة فى كل أنواع البرتقال ولا ينطوى على الصفات الخاصة التى تميز برتقالة عن أخرى .

ويعلن جوليان هكسلى Julian Huxley البيولوجى النابغة فى صراحة وقوة ، أنه ما كان لكائن حى غير الإنسان أن يخترع لغة لفظية رمزية مجردة ^(١) . ذلك لأن الإنسان بتكوينه البيولوجى . وبسمو وتعقيد جهازه العصبى ، وبمرونته الفائقة وتكيفه للبيئات المختلفة ، يقف فوق ذروة سلم التطور .

المراجع

1. Allee, W. C., Animal Aggregations : A Study in General Psychology, 1931.
2. Alverdes, F., "The Behavior of Mammalian Herds and Packs," in Murchison. G., A Handbook of Social Psychology, 1935.
3. Cohen. M. H., Reason and Nature. 1931.
4. Emerson, A. E., The Social Life of Termites, 1929.
5. Esper, E. A., "Language", in Murchison, C., OP. CIT., 1935.
6. Hallowell, A. I., "Personality Structure and the Evolution of Man," American Anthropology, 1950, 52, PP. 159—172.
7. Klineberg, O ; Social Psychology, 1940.
8. Kroeber, A. L., Anthropology, 1948.
9. Moss, F. A., Comparative Psychology, 1934.
10. Plath, O. E., "Insect Societies", in Murchison, C., OP. CIT., 1935, P. P. 83—137.
11. Whyte, A. G., The Ladder of Life, 1951.
12. Yerkes, R. M. and Yerkes, A. W., "Social Behavior in Iufrahuman Primates," in Murchison, C., Op. CIT., 1935.

(1) Huxley, J., Man Stands Alone, 1937, P. 15.

المعنى اللغوي للمعنى هو الذي يكتسبه من خلال السياق الذي يستخدم فيه، وهو يختلف باختلاف السياقات. فالمعنى اللغوي للمعنى هو الذي يكتسبه من خلال السياق الذي يستخدم فيه، وهو يختلف باختلاف السياقات.

الباب الثاني

العلاقات الاجتماعية

الفصل الرابع: وسائل الاتصال الاجتماعي

الفصل الخامس: أنواع العلاقات الاجتماعية

الفصل السادس: أنواع الجماعات

الجماعة هي مجموعة من الأفراد الذين يتفاعلون مع بعضهم البعض في إطار معين. والجماعة الاجتماعية هي مجموعة من الأفراد الذين يتفاعلون مع بعضهم البعض في إطار معين. والجماعة الاجتماعية هي مجموعة من الأفراد الذين يتفاعلون مع بعضهم البعض في إطار معين.

كلية معارفنا، وهي مجموعة من المعارف التي نكتسبها من خلال التجربة والتعلم.

وهذه هي المجموعة من المعارف التي نكتسبها من خلال التجربة والتعلم. وهذه هي المجموعة من المعارف التي نكتسبها من خلال التجربة والتعلم.

فإننا نكتسب هذه المعارف من خلال التجربة والتعلم. فإننا نكتسب هذه المعارف من خلال التجربة والتعلم.

لذلك فإننا نكتسب هذه المعارف من خلال التجربة والتعلم. لذلك فإننا نكتسب هذه المعارف من خلال التجربة والتعلم.

(1) Ogden, C.K., and Richards, I.A. The Meaning of Meaning. London: Duckworth, 1923. pp. 115.

الفصل الرابع

وسائل الاتصال الاجتماعي

أهمية اللغة :

اللغة عامل قوى فى نشوء وتعديل السلوك الاجتماعى . وهى وسيلة فعالة فى تبادل المعرفة وفى توثيق أو اصر الصلة الاجتماعية . فهى إذن لحة المجتمع وسداه . وهى قوة خيرة حينما تؤلف بين قلوب الناس ، وقوة مدمرة حينما تفرق الناس أشتاتا وشيعا . وسنتناول فى هذا الفصل دراسة اللغة على أنها الوسيلة الأساسية فى الافصاح عن كل علاقة اجتماعية قائمة عند الإنسان فى جميع مراحل نموه .

اللغة والحواس

وتقسم اللغة إلى نوعين تبعاً للحواس التى تدركها .

- (١) لغة تعتمد فى إدراكها على الأذن ، كمثل الكلام حينما يُسمع حديثاً أو حواراً .
- (ب) لغة تعتمد فى إدراكها على العين ، كمثل الكلام المكتوب وإشارات اليدين ، وتعبيرات الوجه . وهذه تنقسم بدورها إلى نوعين :
- (١) نوع تلقائى لاشعورى ، كاحمرار الوجه خجلاً .

- (٢) نوع شعورى يحتاج إلى تعلم ومران مثل الإشارات التى يتدرب عليها الجنود ، كإحدى وسائل التفاهم فى ميادين القتال .

وهذا التقسيم لا يعنى الفصل الحاد البين ، وإنما قصد به تصنيفاً يصلح للدراسة العلمية . هذا وقد تكون اللغة حسية مباشرة كلغة الصم والبكم والعمى فى اعتمادها على اللمس .

اللغة اللفظية واللغة غير اللفظية

اللغة بمعناها العام تعنى كل الوسائل الممكنة — لفظية كانت أم غير لفظية — للتفاهم بين الكائنات الحية . وبذلك فحركة اليد لغة ، وإيماء الرأس لغة ، وقس على ذلك غمز الحاجب ورمز الشفة وإنفاض الرأس وطرف الجفون ، والتصفيق ورفع اليدين للدعاء ، وبسط اليدين للسؤال تكففاً . فالإشارة التي تؤدي إلى فهم معنى ما تخدم نفس الغرض الذي تسعى الألفاظ إلى تحقيقه .

ويذهب أوجدن C. K. Ogden وريتشاردز I. A. Richards إلى أن لغة الإشارات أدق من أى لغة رمزية أخرى⁽¹⁾ . ولا يفوقها في دقتها إلا لغة العلوم الرياضية ، ولغة العلوم التجريبية ، واصطلاحات النوتة الموسيقية ؛ وذلك لأن الألفاظ المجردة من الإشارات والایماء طريقة هزيلة ضعيفة في الاتصال الاجتماعي . لكن هذه الدقة تتلاشى أمام المعاني المجردة . فمدلول كلمة « الله » أعمق من رفع يديك للسماء داعياً .

والإشارات بأنواعها المختلفة إحدى وسائل الطفل الأولى لاتصاله المباشر بالاجتمع وذلك قبل أن يفهم من الناس ما يقولون وقبل أن يقلدهم فيما يتحدثون ، فهو يتسم للوجه الضاحك ويبكى للوجه العابس . والخطيب البارع يدرك أثر تلك اللغة في التأثير على الناس ، ويجيد أداءها . فهو يختار لنفسه وقفة خاصة لها سحرها وروعها ويحرك يديه بلباقة وقوة ، ويُعبّر بوجهه عن إيمانه العميق بما يدعو الناس إليه .

كل إشارة تؤدي معنى واحداً بسيطاً ، هي وحدة تعبيرية لها ذاتيتها . وهي بذلك تشبه — إلى حد كبير — الكلمة في اللغة اللفظية . فالإشارات كلمات صامتة . ولقد لجأ إليها الإنسان في الإفصاح عن رغبات نفسه ، وسنحات فكره قبل أن يكتشف اللغة اللفظية .

(1) Ogden, C.K., and Richards, I.A., The Meaning of Meaning, 1938, p. 15; 115.

ولغة الإشارات من إحدى نواحيها ، لغة عالمية يشترك فيها أفراد الجنس البشري كافة ، وذلك حينما تعبر عن الرغبات والحاجات الأساسية الجوهرية للإنسان ككائن حي . ومثل ذلك بعض الإشارات التي تدل على الجوع والحاجة إلى الطعام .

وهي من ناحية أخرى لغة محلية تخضع في بعض أشكالها للمجتمع القائم والحضارة الراهنة التي تهيمن — إلى حد كبير — على السلوك الاجتماعي للأفراد . ومما يؤيد هذا الرأي نتيجة التجربة التي قام بها بوس F. Boas ، وأفرون D. Efron ، وفولي J. P. Foley سنة ١٩٣٧ والتي تتلخص في البحث عن الفروق الأساسية في إشارات الإيطاليين واليهود^(١) . لكن هذا الفرق يزول ويتلاشى حينما تستقر المجموعتان في مجتمع واحد كالمجتمع الأمريكي مثلاً . ويرجع هذا إلى تكيفها لحضارة مشتركة واحدة تؤثر بدورها في أساليب الاتصال الاجتماعي وتكاد أن توحيدها .

تحليل سيكولوجي لتعبيرات الوجه

أثبت دنلاب K. Dunlap سنة ١٩٢٧ بطريقة قاطعة أن عضلات الفم هي أهم عامل في الإفصاح عن تعبيرات الوجه ، وانفعالات النفس^(٢) . وتتخلص تجربة دنلاب في أنه صور عدداً كبيراً من الناس وهم متأثرون بحالات انفعالية مختلفة ، ثم قطع كل صورة قطعتين بخط أفقي يمر بنقطة الأنف . ثم عرضت هذه الأجزاء على طائفة من الناس وطلب إليهم استنتاج الحالات الانفعالية التي يدل عليها كل جزء ؛ فدلّت الأجزاء السفلى من الصور على الحالات الانفعالية بطريقة واضحة قاطعة . ولم تدل الأجزاء العليا على شيء اللهم إلا نسبة تافهة صغيرة . ولقد لجأ الباحث إلى طريقة أخرى لتأكيد اكتشافه فلفصق الأجزاء العليا من الصور بالأجزاء السفلى بحيث جمع

(1) Boas, F., Efron, D., and Foley, J.P., "A Comparative Investigation of Gestural Behavior Patterns in Racial Groups Living under Different as well as Similar Environmental Conditions", Psychological Bulletin, 1936, 33, 760.

(2) Dunlap, K., "The Role of Eye-Muscles and Mouth-Muscles in the Expression of the Emotions", Genet. Psychol. Monogr., 1927, 2, pp. 196-233.

في الصورة الواحدة — لنفس الشخص — بين عيون ضاحكة وفم حزين ، وبين عيون حزينة وفم ضاحك وغير ذلك من أنواع التبادل الممكن . فدلّت نتائج هذه التجربة الثانية على أن عضلات الفم هي العامل الجوهرى في الحكم على تعبيرات الوجه . ولقد قام هولز T. H. Howells بدراسة تجريبية لنفس الظاهرة التي اكتشفها دنلاب ، فأثبتت نتائجها صحة نتائج دنلاب ^(١) .

ولقد دلت التجارب التي قام بها نفر كبير من العلماء نذكر منهم على سبيل المثال كلين L. W. Kline وجوهانسن D. E. Johannsen سنة ١٩٣٥ على أن حركات الكتفين والذراعين واليدين ، تسفر عن الحالات الانفعالية ^(٢) ، وتشبه وظيفتها النفسية الاجتماعية وظيفة عضلات الفم في الإفصاح عن التعبيرات النفسية .

أهمية الإشارات

تتلخص أهمية الإشارات فيما توفره على الفرد من وقت وجهد في اتصاله الاجتماعى . ويرجع ذلك إلى بساطتها وسهولتها وعالميتها ومرونتها . ولهذه الأسباب مجتمعة ظلت الإشارات وما تزال وسيلة هامة في التفاهم ، ولم تنقرض عندما اكتشف الإنسان اللغة اللفظية ، بل بقيت واستمرت تؤدي وظيفتها . والحق إنها ما فتئت أقوى ما انحدر إلينا من تراث الإنسان الأول .

ولغة الإشارات لغة غنية واسعة عريضة . ولقد دلت أبحاث باجت R. Paget على أن هناك حوالى ٧٠٠ ٠٠٠ إشارة مستقلة متميزة تؤديها الكتفين والذراعين والمصمين والأصابع ^(٣) ، وأن اليد البشرية وحدها تفوق بعدد إشاراتها وظائف الفم اللفظية بحوالى ٢٠٠ ٠٠٠ مرة .

(1) Howells, T.H., "A Study of Ability to Recognize Faces", J. Abnorm. Soc. Psychol., 1938, 33, pp. 124-127.

(2) Kline, L. W., and Johannsen, D.E., "Comparative Role of the Face and of the Face-Body-Hands as Aids in Identifying Emotions", J. Abnorm. Soc. Psychol., 1935, 29, pp. 415-426.

(3) Paget, R., "Sign Language as a Form of Speech", Nature, 1936, 137, p.p. 384 - 388.

لكن الإشارات لم تتطور مع الإنسان بنفس السرعة التي تطورت بها اللغة اللفظية ويرجع ذلك إلا أنها لغة مادية محسوسة خالية من التجريد والتعميم . ولهذا أصبحت عاملاً ثانوياً في تطور الحياة الاجتماعية عند الإنسان ، ولم ترق إلى ما بلغتة اللغة اللفظية من أهمية .

اعتماد اللغة اللفظية على الإشارات

يدلنا التحليل السابق على أن صلتنا الاجتماعية بالناس — وتأثرنا بهم وتأثيرنا فيهم — لا تعتمد على اللغة اللفظية وحدها بل تستمد مقوماتها مما نلاحظه على أوجه الناس من تعبيرات مختلفة تفصح عن حالاتهم المزاجية العاطفية ، ومما ندركه من إشارات اليدين وإيماء الرأس . هذا وقد تجتمع هذه الأمور جميعاً حينما يخاطب الناس بعضهم بعضاً . وقد تفرد اللغة وحدها بنقل المعرفة حينما يسترق الإنسان السمع فينفو إليه الصوت ولا يرى مصدره . ونحن في استماعنا لصديق يحاضر في المذيع نذهب مذاهب شتى في تأويل صوته فننكره بادية ذى بدء . ويبدو لنا غريباً عن صاحبه لأنه جرد منه فنستريح إليه ونألفه .

والصوت نفسه قد يسفر عن حالات نفسية اجتماعية متباينة ، فالممثل الماهر يستطيع أن يقرأ أية عبارة ما بطرق عدة ليؤدى في كل مرة معنى مستقلاً بذاته فيغير لهجته ليشعر سامعيه بأنه غضبان أو بأنه هادىء قرير العين ، أو بأنه خائف أو بأنه حزين أو بأن الأمر لا يعنيه .

واللحن الغنائى أو الموسيقى الواحد قد يتسع أو يضيق ، ويطول أو يقصر ، فيحدث في نفوس السامعين تأثيرات مختلفة متعددة .

اللغة اللفظية

الحوار — وهو إحدى صور اللغة اللفظية — مظهر واضح للدافع الإنسانى لحب التجمع . والصمت يلقي عادة في روع الناس لوناً من ألوان الفزع والخوف . وما تزال بعض القبائل البدائية الهمجية تعتبر الغرب الذى لا يتحدث لغتها عدواً طبيعياً لها .

واشتراك أهل الأقليم الواحد في لهجة متميزة يُعد مظهراً من مظاهر الوحدة الاجتماعية ،
أو إحدى الوسائل الأولى للتعارف .

ويهدف الحوار وهو في أبسط صورته إلى مجرد التألف الاجتماعي . وبذلك تبدو
لغته سهلة فياضة ، ولا يجد المتحدث حرجاً في أن يلقي القول على عواهنه دون منطق
واضح أو فكرة عميقة ؛ وإنما كل ما يعنيه هو أن يُشعر رفيقه بضرب من ضروب
الألفة الاجتماعية . ومثل ذلك الأحاديث العابرة التي تنشأ أحياناً بين زملاء الرحلة
فإنها عادة تتناول أموراً عارضة كالاستفسار عن الصحة . والتعليق على حالة الجو ،
وتأكيد بعض البدهيات التي لا تحتاج إلى تأكيد . وقد يستطرد المتحدث فيروى
قصة حياته بعد أن يضيف عليها ألواناً عاطفية مختلفة ، بينما ينتظر زميله دوره على
مضض ليروى هو الآخر قصته .

هذه الأحاديث لا تهدف إلى المعرفة أو الإيضاح وإنما تهدف إلى الألفة والالتئاس .

الحوار والأنماط السيكولوجية

الناس في أساليب حوارهم ينقسمون إلى أنماط مختلفة . فمنهم المنطوي على نفسه ،
وهو إنسان لا تنهأ له الدنيا إلا إذا تكلم وأفاض واستطرد في لغوه وهذره وثرثرته .
ومنهم الخجول ، وهو إنسان يرغب في الحوار ويتمناه حتى إذا واثته الفرصة تنحى
عنها وصمت ، ثم يعود على نفسه بعد ذلك بالوم والعتاب .

والخجل اتجاه نفسي خاص وحالة عقلية تتميز بالشعور بالضيق في اجتماع الخجول
بالناس ، وفي محاولته الدائمة لسكف ومنع بعض الاستجابات الاجتماعية العادية . وقد
يكون الخجل هروبا من الواقع وتجنباً له فهو بذلك مظهر للمرض النفساني المعروف
باسم سكينزوفرنيا Schizophrenia

ولعل أول من استعمل هذا الاصطلاح العالمى هو بلولر Bleuler سنة ١٩١١ وكازينى
به اقسام العقل كما يبدو في الهلوسة والخلط العقلى الإيهامى والحياة العاطفية المرتبكة
التي تلازم التحفظ العقلى الشديد ، وفقدان العلاقة العاطفية مع البيئة ، والسلوك السلبي

الذى يتميز بالطاعة العمياء والمنطق الذاتى البحت . ولقد حله فرويد Freud سنة ١٩١١ بأنه الميل اللاشعورى إلى الجنس المائل . وفسره بواسن Boisen سنة ١٩٣٦ بأنه عقدة نفسية تنشأ من تعارض حاد بين الشعور بتأكيد الذات والشعور بالدالة والضعف .

هذا وقد يكون الخجل سلوكاً خاصاً لتجنب أحاديث الثقلاء من الناس . وقد يكون مرجعه إلى عجز ما فى قدرة الفرد اللغوية ، عجزاً يحول بينه وبين صياغة أفكاره صياغة لفظية واضحة ، فيشعر لذلك بالخرج فى حوار مع غيره فيبتسم لمحدثه بدل أن يجاذبه الحديث ويبالغ فى اتساماته حتى تبدو شاذة غريبة ، ويبدى اهتمامه بالحديث وهو يود من أعماق نفسه لو أن بينه وبين محدثه أمداً بعيداً . وقد يكون مرجع الخجل إلى شعور الفرد بأن محدثه ينتمى إلى مستوى ثقافى أو اجتماعى أرقى منه ، فهو يخشى فى حديثه معه أن تبدو منه عبارة تُنبئ عن بعض نواحي عجزه .

ومن الناس من يبالغ فى الحديث عن نفسه والإشارة إليها صراحة . فيكثر من قول «أنا» أو يشير إلى نفسه من قريب أو بعيد بأساليب مختلفة . وتلك صفة نفسية تدل على الإثرة وحب الذات .

الحوار الظاهر والحوار الباطن

الكلام قد يكون حواراً ظاهراً علنياً كحديث شخص لآخر أو كحديث الشخص لنفسه بصوت مسموع . وقد يكون حواراً باطناً خفياً يجرى فى تيار الشعور النفسى ويدركه الفرد حينما يقف وقفة عقلية ليتأمل كما يحدث أثناء عملية الاستبطان . أو قد يستمر ، أرادته الفرد أم لم يرده . ومن الناس من يستعيز عن الحوار الباطنى بالصور العقلية المختلفة فيصبح شعوره تياراً متصلاً من صور بصرية أو سمعية أو غيرها من الصور الحسية . وقد تكون الصور حركية ديناميكية ، وقد تكون مزيجاً من ذلك كله . فالإشارة والإيماء مظهر من مظاهر هذه الصور الحسية الحركية الباطنة ، والكلام المسموع قد يكون مظهراً للكلام خفى باطنى .

هذا وقد غالى بعض علماء النفس (دعاة المذهب السلوكي) ففسبوا لذلك الصوت الباطن كل ما يحدث في عقل الإنسان من عمليات عقلية مختلفة وفسروه على أساس آلى مادي بحت ، يتلخص في المثير والرجع . واستدلوا على ذلك بأن اللغة الباطنة تبدو كحركات رقيقة في العضلات الصوتية . ولقد برهن كريج W. Craig على بطلان هذا الرأي بتجربة بسيطة تتلخص في إمكان القيام بصوتين داخليين في وقت واحد كقولك « لا .. لا .. » وعد ما تقول في نفس الوقت ⁽¹⁾ . فاشتغال العضلات الصوتية بصوتين معاً وفي آن واحد يبطل الرأي القائل بضرورة حركة هذه العضلات مع كل صوت داخلي . فحركة إحدى العضلات في اتجاهات مختلفة وفي وقت واحد أمر مستحيل من الناحية البيولوجية الفسيولوجية .

هذا وقد أوضحت التجربة السابقة وجود صوت ثالث يصاحب الصوت الذي يتكلم والصوت الذي يعد . وينحو ذلك الصوت نحو نقد وتشجيع العمليتين معاً ، فهو ينطلق معهما — في نفس الوقت — مردداً قولاً كهذا (استمر .. حاذر .. مدهش) وهذا الصوت الأخير صعب المراس ، لا يسفر عن نفسه إلا بعد لأى وجهه . ذلك لأنه مندفِع مع تيار الزمن فإن تأملته لترصد ماضيه القريب انطلق منك مع الحاضر الراهن ليفوه بكلام جديد . وهكذا يختلط القريب بالبعيد ويستمر الصوت ملحاف في سيره وعمله ، مضمياً على ماضيه ظلاً قائماً .

النمو اللغوى عند الاطفال

لغة الطفل هي وسيلته الجوهرية للاتصال بالعالم الخارجى المحيط به ، وهي أيضاً وسيلتنا لفهم الطفل في تطوره ونموه العقلى وما خفى عنا من أمره . والطفل يصيح ويشير بيديه ويحرك رجليه ثائراً ، ثم ينادى في هدر كسجع الحمام . ثم ينطق بألفاظ لا تكاد تستبين مخارجها . ثم تستقيم لغته وتنمو بسرعة فائقة .

(1) Craig, W., and Pear, T.H., "Observations on Internal Speech", Memoirs, Manchester Literary and Philosophical Society, 1936-1937, 81, pp. 1 — 14.

بدء اللغة غير اللفظية

تبدأ مظاهر الحياة عند الطفل بصرخة الميلاد . فالطفل يصيح صارخا بعد ولادته نتيجة اندفاع الهواء بقوة خلال حنجرتة في طريقه إلى رئتيه ، فتهتز أوتار الحنجرة ، وتحدث الصيحة الأولى . وهكذا تبدأ حياة الطفل بفعل منعكس مثيره هواء واستجابته صياح .

وتختلف هذه الصيحة من طفل إلى طفل ، وتباين بتباين نوع الولادة ، وحالة الطفل الصحية . فالطفل السليم يصيح صيحة قوية ، والطفل الضعيف يصيح صيحات خافتة متقطعة

ثم تتطور هذه الصيحات تطورا سريعا مع نمو الطفل حتى تصبح مُعبّرة عن بعض رغباته . فالصرخة الرتيبة المتقطعة تدل على الضيق ، والصرخة الحادة تدل على الألم ، والصرخة الطويلة تدل على الغيظ والغضب . وهكذا يكتسب صراخ الطفل معنى ، ويمسى وسيلة من وسائل الاتصال اللغوي القائم بين الرضيع وأمه أو بين الرضيع والقائمين بأمره .

واقعدلت أبحاث H.P. Chen وإروين O.C. Irwin على أن الطفل العادي يستعمل سبعة أصوات مختلفة متباينة قرب نهاية الشهر الثاني من عمره ، ثم يزداد عددها إلى سبعة وعشرين صوتا حينما يبلغ عمر الطفل ٢٥ سنة^(١) .

وتدل أبحاث مكارثي D. Mc Carthy على أن الطفل العادي يناغى فيما بين الشهر الثاني والشهر الرابع من عمره^(٢) . ويحدث أصواتا تدل على السرور والارتياح فيما بين الشهر الثالث والشهر السابع . ويقلد بعض الأصوات فيما بين الشهر السادس والشهر الثامن ، ويستجيب للتحية فيما بين الشهر التاسع ونهاية السنة الأولى من عمره .

(1) Chen. H P., and Irwin, O.C., "Infant Speech Vowel and Consonant Types", Journal of Speech Disorders, 1946, 11, pp. 27-29.

(2) Mc Carthy, D., "Language Development in Children," in Carmichael, L., A Manual of Child Psychology, 1946, pp. 476 - 581.

بدء اللغة اللفظية

وهكذا تنشأ لغة الطفل أول ما تنشأ على أنها لغة غير لفظية ، تعتمد في جوهرها على الصياح والإشارات البدنية المختلفة ثم تتطور إلى لغة لفظية قوامها كلمات خاصة يلتقطها الطفل من بيئته المباشرة .

ولعل أهم المثيرات التي تستحث الطفل على الحوار اللفظي هي رغبته الملحة في استكشاف بيئته ، وفي أن يتصل بها اتصالا اجتماعيا ؛ وفي معرفة بعض المعلومات عن نفسه وعن الأفراد المحيطين به ، وفي أن يعبر عن حاجاته ومطالبه ، وفي أن يكشف للآخرين عن أفكاره وآرائه وخوارج نفسه .

والكلام عند الطفل عملية معقدة تقوم على نفس الأسس السيكولوجية التي تقوم عليها عملية كسب المهارة . فهي في جوهرها توافق متصل يُنسّق حركات الشفتين واللسان وعضلات الحنجرة والأوتار الصوتية والرئة ، كلها معا .

ويبدأ الكلام عند الطفل العادي حينما يبلغ عمره خمسة عشر شهراً بالتقريب فإذا تأخر إلى السنة الثانية فهو في حاجة إلى دراسة خاصة لتشخيص أسباب تأخره لتتير للباحث طرق العلاج الممكنة .

ويقاس الانتقال من مرحلة اللغة غير اللفظية إلى مرحلة اللغة اللفظية بمقياسين نلخصهما فيما يلي :

(١) ألا يكون فهم الألفاظ التي يستعملها الطفل قاصرا على ذوى قرابه المتصلين به ، بل أن تكون ألفاظه واضحة مفهومة للآخرين .

(٢) أن ترتبط ألفاظ الطفل ارتباطا صحيحا بمعانيها فلا يخلط مثلا بين اللفظ الدال على الكرة والألفاظ الدالة على لعبه الأخرى ، حتى لا يسمى كل لعبة يراها كرة .

هذا ويجب أن تفي لغة الطفل اللفظية بكلا الشرطين لنقر له ببدء المرحلة اللفظية الصحيحة . وقد يتأخر النمو اللفظي عند بعض الأطفال إذا لم يجدوا ما يستحسنهم

ويدفعهم نحو الكلام . ولنضرب لذلك مثل الطفل الذى يصل إلى كل رغباته فى سهولة ويسر بصراخه وإشاراته . إنه فى غنى إلى حين عن استعمال الألفاظ . وهكذا يتأخر نموه اللغوى لضعف الدافع والمثير .

وتدل أبحاث سميس M.E. Smith التى أجراها على ٢٧٣ طفلاً تتراوح أعمارهم فيما بين ٨ شهور و٦ سنين على أن الحصول اللفظى عند الأطفال يبدأ ضعيفاً ثم ينمو بسرعة فائقة^(١) . والجدول التالى يلخص نتائج هذه التجربة : —

العمر بالسنة	عدد الكلمات
١	٣
٢	٢٧٢
٣	٨٩٦
٤	١٥٤٠
٥	٢٠٧٢
٦	٢٥٦٢

تذبذب النمو بين الابطاء والإسراع

لا يسير الطفل فى سرعة نموه اللغوى على وتيرة واحدة بل يبطؤه النمو حيناً ويسرع أحياناً أخرى . ولقد دلت التجارب على أن النمو اللغوى عند الأطفال يضعف ويقل فيما بين الشهر التاسع والشهر الثامن عشر من أعمارهم . وتلك هى المرحلة التى يتعلم فيها الطفل المشى . وهكذا يتعلم الطفل مهارة جديدة فسيكتنفد أكثر جهده فيها ولا يترك للمهارة الأخرى التى بدأها من قبل إلا جزءاً يسيراً لا يساعدها على النمو السريع . وعند ما يجيد الطفل المشى يتجه مرة أخرى إلى زيادة الجهد فى تعلم الكلام فينمو محصوله اللغوى بسرعة فائقة .

(1) Smith, M.E., "An Investigation of the Development of the Sentence and the Extent of Vocabulary in Young Children". University of Iowa, Studies in Child Welfare, 1926, 3.

وتدل أبحاث شيرلى M.M. Shirley على أن النمو اللغوى يقوى ويضعف .
ويسرع ويبطئ في فترات خاصة من عمر الطفل نلخصها فيما يلى : — (١)

(١) نمو سريع من الأسبوع الخامس إلى الأسبوع الثالث عشر .

(٢) نمو بطيء من الأسبوع الرابع عشر إلى الأسبوع الثالث والعشرين ، حيث يستنفد الطفل أكثر جهده في إجادته اكتساب مهارة الوصول إلى الأشياء البعيدة عنه ، والتي يرغب هو في اجتذابها إليه .

(٣) نمو سريع من الأسبوع الرابع والعشرين إلى الأسبوع الثلاثين .

(٤) نمو بطيء من الأسبوع الواحد والثلاثين إلى الأسبوع الثانى والثلاثين ، حيث يستنفد الطفل أكثر جهده في تعلم الجلوس متزنًا .

(٥) نمو بطيء من الأسبوع الثالث والثلاثين إلى الأسبوع الرابع والثلاثين حيث يستنفد الطفل أكثر جهده في تعلم الزحف .

وتتصل مرحلة الزحف بمرحلة المشى ويعود الطفل بعد ذلك إلى استعادة سرعة نموه اللغوى .

العوامل التى تؤثر فى النمو اللغوى عند الاطفال

يتأثر النمو اللغوى عند الأطفال بعوامل عدة أهمها : الذكاء ، والبيئة الاجتماعية ، والبيئة اللغوية ، والسلوك المضاد ، والازدواج اللغوى ، وبالفروق الجنسية بين البنين البنات .

(١) الذكاء

تدل أبحاث ميد C.D. Meed على أن الطفل العادى يبدأ الكلام حينما يبلغ

(1) Shirley, M.M., The First Two Years, 1933.

١٥,٨ شهراً^(١) . ونعني ببداية الكلام نطق الألفاظ نطقاً صحيحاً وفهم معناها .
ويبدأ الكلام عند ضعف العقول في سن ٣٤,٢٤ شهراً . وتدل أبحاث تيرمان
L.M. Terman على أن الطفل الموهوب يبدأ الكلام حينما يبلغ عمره ١١,٧٤
شهراً^(٢) . والطفلة الموهوبة تبدأ كلامها حينما يبلغ عمرها ١١,٠١ شهراً . ويرتبط
الحصول اللفظي عند الأطفال ارتباطاً قوياً بنسبة ذكائهم حتى أن بعض علماء النفس
يتخذونه أساساً لقياس ذكاء الأطفال .

(٢) البيئة الاجتماعية

تدل أبحاث جيزل A. Gesell ولورد E.E. Lord التي أجريها على أطفال
الرياض على أن الأطفال الذين ينتسبون إلى البيئات الاجتماعية الممتازة يتكلمون
تلقائياً ويعبرون بوضوح عن آرائهم^(٣) . وأن أطفال البيئات الفقيرة يصيحون
ويضحكون في ألعابهم الحرة ولا يميلون كثيراً إلى الحوار .

(٣) البيئة اللغوية

يعتمد الطفل على التقليد في تعلمه اللغوي ، فإذا اتصف بعض ذوى قواه بعيوب
لغوية خاصة كالتبتهة مثلاً ، فإنها تنتقل إليه من حيث لا يدري . وقد تؤخر هذه
الأمراض اللغوية المكتسبة نموه اللغوي .

ويقلد الإخوة بعضهم بعضاً في أساليب حوارهم فإذا تساوت أعمارهم كالتوائم ،
فإنهم يتأخرون في نموهم اللغوي . ولقد أثبتت أبحاث داي E.J. Day أن التوائم
يتأخرون عن قرنائهم في كمية محصلهم اللغوي^(٤) ، وفي طول الجمل التي يستعملونها ،

(1) Meed. C.D., "The Age of Walking and Talking in Relation to General Intelligence", Ped. Sem., 1913, 20, pp. 460-484.

(2) Terman, L.M., Genetic Studies of Genius, 1925.

(3) Gesell, A., and Lord, E.E., "A Psychological Comparison of Nursery School Children from Homes of low and High Economic Status," J. Genet. Psychol., 1927, 34, pp. 339-356.

(4) Day, E.J., "The Development of Language in Twins", Child Devel. 1932, 3, pp. 298-316.

وفي وضوح عباراتهم ، ويتأخرون أيضا في بدء كلامهم . ويقدر داي هذا التأخر
بحوالى شهر

وقديماً فطن العرب لأهمية البيئة اللغوية ، فكانوا يرسلون أطفالهم إلى مرضعات
في البادية ليتعلم الطفل اللغة الأصلية التي لم تشبها رطانة المدن بأية شائبة .

(٤) المرض

قام سيمس S.Smith بدراسة مقارنة على جماعتين من الأطفال تتكون أولهما من
أطفال أصيبوا بأمراض مختلفة في حياتهم الأولى وتتكون الثانية من أطفال يتساوون
مع أفراد الجماعة الأولى في كل العوامل المختلفة المؤثرة على النمو اللغوي ماعدا المرض^(١) .
ولقد دلت نتائج هذه الأبحاث على أن العمر المتوسط لبدء الكلام يبلغ ١٢٦, ١١
شهرًا في الجماعة الأولى و ١٠٠, ٢٦١ شهرًا في الجماعة الثانية . وأن العمر المتوسط لاستعمال
التعبيرات اللغوية والجل اللفظية يبلغ ١٦, ٤٥ شهرًا في الجماعة الأولى و ١٤, ٤٨٧ شهرًا
في الجماعة الثانية . ويمكننا أن نستدل من ذلك على أن المرض الذي ينتاب الطفل
في السنين الأولى من حياته يؤخر نموه اللغوي إلى حد ما .

ويرتبط مدى التأخر اللغوي عند الأطفال بنوع المرض الذي يصابون به . فمن
المسلم به أن الأمراض التي تتصل من قريب بعملية الكلام تؤثر تأثيراً قوياً في
التأخر اللغوي . ولهذا فالصمم الكلى أو الجزئى يحول بين الطفل وبين التقليد الصحيح
والألفاظ والعبارات التي تملأ حياته ولا يكاد يستبين مخارجها .

(٥) السلوك المضاد

يبالغ بعض الآباء في تدريب أطفالهم على الكلام في سن مبكرة جدا وذلك
قبل أن يصلوا إلى مراحل النمو المناسبة لتعلم تلك الخبرة الجديدة . فيفشل الطفل في
إرضاء والديه لعجزه البيولوجى عن الوصول إلى المستوى الذى يريده له أهله ، ويكسبه
هذا للفشل ثورة حادة على الكلام ، وعلى كل ما يتصل به . فيحجم عن التكلم حينما

(1) Smith, S., "Influence of Illness During the first two Year
on Infant Development", J. Genet. Psychol., 1931, 39, pp. 284-287

يصل به نموه إلى المستوى المناسب لأداء هذه العملية بنجاح . وهو في إحجامه هذا يسلك سلوكاً عكسياً مضاداً . وقد يتطور معه هذا الإحجام بعد نضج تطوره اللغوي إلى اتجاه خاص في سلوكه اللفظي يؤدي به إلى تجنب الحوار تجنباً واضحاً ملموساً .

(٦) الازدواج اللغوي

الأطفال الذين يراد بهم تعلم لغتين مختلفتين في سن مبكرة يتأخرون في تقدمهم اللغوي ؛ ذلك بأن لكل لغة صفاتها الخاصة التي تميزها عن أية لغة أخرى . ولهذا يخلط الطفل بين اللغتين في ألفاظهما وفي تعبيراتهما فيتأخر نموه في كليتهما . ويرجع هذا التأخر إلى الأثر السلبي الذي يتركه تعلم لغة ما في تعلم لغة أخرى . ومن أمثلة هذا الأثر السلبي ما يحدث أثناء تعلم الآلة الكاتبة وتعلم التوقيع على البيانو معاً ، إذ تضطرب حركات الأصابع للأثر السلبي الذي تتركه إحدى العمليتين التعليميتين في الأخرى . فالتوقيع يحتاج إلى الضغط على مفاتيح البيانو بأصابع عدة في وقت واحد ، والكتابة تحتاج إلى فاصل زمني — ولو قصير — بين حركة كل إصبع وحركة الإصبع الآخر أثناء الضغط على مفاتيح الآلة الكاتبة وإلا تصادمت الحروف المعدنية نحو تدافعها للطبع . ويحدث مثل هذا الأثر أثناء تعلم لغتين معاً ، إذ تتداخل إحدى العمليتين تداخلاً مضاداً في العملية الأخرى . ولهذا يحسن أن يقتصر التعلم على لغة واحدة بادية ، ذي بدء حتى يجيدها الطفل ؛ ثم له بعد ذلك أن يتعلم لغة أخرى .

(٧) الفروق الجنسية

تدل التجارب والأبحاث المختلفة التي تدور حول أثر الفروق الجنسية في النمو اللغوي عند الأطفال على أن البنات يفقن ويتميزن دائماً على البنين في القدرة اللغوية . ولقد أسفرت تجارب ميد C.D. Meed على أن الطفل المتوسط يبده يتكلم في سن ١٥,٧٦ شهراً ، بينما تبدأ الطفلة المتوسطة كلامها في سن ١٤,٨٨^(١) شهراً وأسفرت تجارب مكارثي D. Mc Carthy على أن نسبة الاستجابات المفهومة عند الذكور تبلغ ١٤٪ في سن ١٨ شهراً وتبلغ حوالي ٣٨٪ عند الإناث في نفس السن^(٢) .

(1) Mead, C.D., Op. CIT.

(2) Mc Carthy, D., The Language Development of Preschool Child, 1930.

عم يتحدث الناس ؟

تختلف أحاديث الأفراد باختلاف أعمارهم ، وباختلاف حظهم من النضج الاجتماعي . هذا وأحاديث الذكور تختلف عن أحاديث الإناث ، في كنه الموضوع ومادته وفي أهدافه وأغراضه . وسنحاول في الدراسة التالية أن نستعرض أهم مميزات أحاديث الأطفال ، وأحاديث المراهقين والبالغين ، وأحاديث الرجال والنساء .

(١) أحاديث الأطفال

تُقسم أحاديث الأطفال من حيث موضوعها وهدفها إلى نوعين : أحاديث فردية تغلب عليها الأنانية والإثرة ؛ وأحاديث اجتماعية . وتعتمد مادة الأحاديث الفردية على كل ما يتصل بحياة الطفل اتصالاً مباشراً قريباً . ومن أمثلتها حوار الطفل مع نفسه وهو يلعب أو يستحم أو يأكل . ويبدو الحديث الاجتماعي في صلة الطفل ببيئته ، وفي علاقته مع رفاقه وأقرانه وأقربائه . وتكثر نسبة الأحاديث الفردية في السنين الأولى من حياة الطفل ثم تقل تدريجياً مع تطور مراحل النمو .

والطفل حتى السادسة يتحدث كثيراً عن أسرته وأمه وأبيه وأشقائه وأخوته عامة . ويُقدر نسبة هذه الأحاديث بحوالى ثلث مجموع أحاديثه كلها .

وتتطور أسئلة الطفل بتطور نموه ، فتدور أسئلته وهو في عامه الثاني حول الاستفهام عن بعض العلاقات المكانية البسيطة فيكثر من استعمال كلمة أين ؛ وعند ما يصل الطفل إلى العام الرابع من عمره يجد نفسه مندفعاً إلى استكشاف بعض العلاقات السببية والوصفية والزمنية المحيطة به فيكثر من استعمال لماذا ، وكيف ، ومتى .

هذا وتهدف أسئلة البنات لمعرفة أسماء الأشياء ، والأمكنة ، والآداب المرعية ، بينما تهدف أسئلة الأولاد لمعرفة كيفية حدوث ظاهرة ما وسببها .

(٢) أحاديث المراهقين والبالغين

تدور أغلب أحاديث المراهقين والبالغين حول الأمور الجنسية . وتدل أبحاث

كونكلين E.S. Conklin على أن ٢٢٪ من أحاديث البنين هي في جوهرها أحاديث جنسية ، يقابلها عند البنات ٣٥٪^(١).

ويميل الفتيان في أحاديثهم إلى مناقشة بعض الاختراعات الغريبة والتعليق على أنباء الرياضة والبطولة. وتميل البنات إلى الحديث عن الموسيقى والرحلات والتمثيل والفن.

(٣) أحاديث الرجال وأحاديث النساء

دلت تجربة مور H.T. Moore التي سجل فيها أحاديث الناس في برودواي بنيويورك على أن أحاديث النساء تدور حول الملابس والأزياء وألوان الحياة الاجتماعية^(٢). وتتناول أحاديث الرجال شؤون المال والاقتصاد. أما الأحاديث المشتركة بين الرجال والنساء فتبدو فيها مملأة النساء للرجال في اختيارهن لموضوع الحديث الذي يساير رغبات الرجال.

وقام لانديس M.H. Landis و بيرت H.E. Burt بتجربة بولاية أوهيو على غرار تجربة مور^(٣)، وسجلا فيها حوالي ٥٠٠ حديثاً من أحاديث الناس في الجامعة والطرق والفنادق والحواريات والكنائس والأماكن العامة. ولقد أيدت نتائج هذا البحث النتائج التي وصل إليها مور في الفروق الجنسية القائمة بين أحاديث الناس، ولقد دلت نتائج هذه التجربة على أن ٣٧٪ من أحاديث النساء تدور حول الأشخاص، يقابلها في أحاديث الرجال ١٦٪.

ولقد تمكن لانديس من رصد مائتي حديث في حي أكسفورد بلندن^(٤)،

(1) Conklin, E.S., Principles of Adolescent Psychology, 1935.

(2) Moore, H.T. "Further Data Concerning Sex Differences", J. Abn. and Soc. Psychol., 1922, 17, pp. 210-214.

(3) Landis, M.H., and Burt, H.E., "A Study of Conversation", J. Comp. Psychol. 1924, 4, pp. 81-90.

(4) Landis, C., "National Differences in Conversations", J. Abn. and Soc. Psychol., 1927, 21, pp. 354-357.

وأُسفرت أحاديث الرجال والنساء عن مملأة الرجال للنساء في اختيارهم موضوعا للحديث يتفق ورغبات النساء .

ولقد دلت الدراسات التمهيدية التي قام بها المؤلف بالقاهرة على أن أحاديث الرجال تدور حول الدرجات المالية ، والسياسية ، والعمل والبطالة . وتدور أحاديث النساء حول الرجال ، والأزياء ، والمشاكل العائلية .

هذا ويرجع الفضل في جمع هذه الأحاديث إلى معاونة طلبة معهد التربية العالي المعلمين بالقاهرة ١٩٥٢ - ١٩٥٣ . فلقد تطوع عدد كبير منهم لرصد أحاديث الناس في بطاقة نظمت تنظيما خاصا يتناول تسجيل بعض المعلومات عن صفات المتحدثين من حيث الجنس ، والسنة ، والحالة الاجتماعية .

المراجع

- ١ - الدكتور عبد العزيز القوصي وآخرين : اللغة والفكر
- ٢ - الدكتور مصطفى فهمي : النمو النفسي
- ٣ - الدكتور مصطفى فهمي : سيكولوجية الطفولة والمراهقة
- ٤ الأستاذ عبد المنعم المليجي : النمو النفسي
5. Hampton, F.A., "Shyness", J. Neurol. Psychol., 1927, 81, pp. 124-131.
6. Hurlock, E.B., Child Development, 1942, Chapter 7.
7. Pear, T.H., The Psychology of Conversation.
8. Samuels, M.R., "Judgment of Faces", Character and Personality, 1939, 8, p.p. 18-27.
9. Sapier, E., "Language", Ecyc. Soc. Sci., 1933, 9, p.p. 155-169.
10. Wingfield-Stratford E., Good Talk, 1936.
11. Wundt, W., Elements of Folk Psychology, 1928 ed.

الفصل الخامس

أنواع العلاقات الاجتماعية

دراسة تحليلية

مدارج العلاقات عند الكائنات الحية :

أدت الدراسات التي قام بها بارك R E. Park و بيرجس E.W. Burgess^(١) و روتر E.B. Reuter و هارت C.W. Hart^(٢) إلى تقسيم مدارج العلاقات عند الكائنات الحية إلى خمسة مستويات ، تبدأ بعلاقات عرضية ، تليها علاقات طفيلية ، فعلاقات عامة ، فعلاقات متبادلة ، ثم تنتهي بالعلاقات الاجتماعية الصحيحة . وسنحاول في السطور التالية تبين الصفات الأساسية لكل مستوى من مستويات هذه العلاقات ، موضحين كل نوع بأمثلة عدة تقربه إلى الأذهان ، و برسم تخطيطي يبين عناصر كل علاقة .

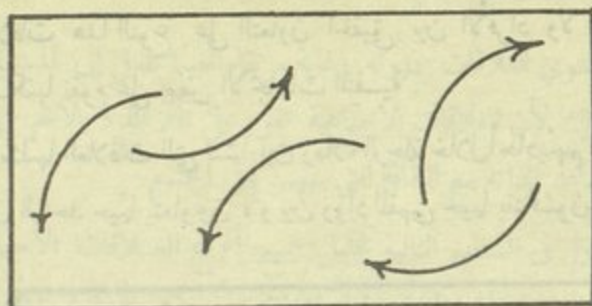
(١) العلاقات العرضية

يتصف هذا المستوى من العلاقات بخلوه من المؤثرات الثابتة المحدودة ، وتعتمد هذه العلاقات على الصدفة العابرة .

ومن أمثلتها الحشد الضخم من الناس الذي يسير في الطريق العام ولا يكاد يحس أفرادُه بأية صلة ما تجمع بينهم وبين بعضهم بعضاً .

(1) Park, R.E., and Burgess, E.W., Introduction to the Science of Sociology, 1924, Chapters 2 and 3.

(2) Reuter, E.B., and Hart, C.W., Introduction to Sociology, 1933.



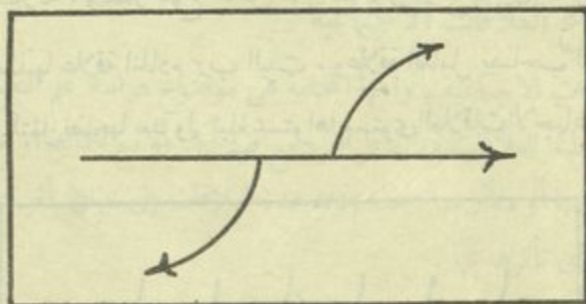
(شكل ١)

العلاقات العرضية كخطوط عشوائية قوامها الصدفة العابرة

(٢) العلاقات الطفيلية

قوام هذا النوع من العلاقات اعتماد كل فرد على آخر اعتماداً كلياً أو ما يقرب من الاعتماد الكلي .

ومن أمثلتها تطفل الأطفال على آبائهم . والشحاذين على المحسنين ، واللصوص على ضحاياهم . وقد تكون هذه الصلة الطفيلية قريبة إلى النفس عزيزة عليها ، كعلاقة الآباء بأبنائهم . وقد يصاحبها النفور أو الخوف في صورها وأشكالها المختلفة .



(شكل ٢)

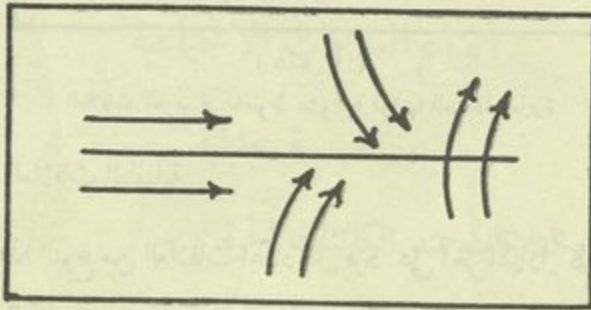
العلاقات الطفيلية كخطوط تستمد وجودها من خط واحد جوهري

(٣) العلاقات العامة

يبدو هذا المستوى في كل علاقة عابرة لا تنطوي على حق لفرد أو واجب عليه .

ولا تقوم علاقات هذا النوع على التعاون الحقيقي بين الأفراد ولا على الخصومة والتناوب، لكنها تقوم على بعض الاتجاهات النفسية .

ومن أمثلتها العلاقات التي تنشأ بين زملاء الرحلة خلال أحاديثهم العابرة، وبين نزلاء الفندق الواحد حينما يتعاونون، وبين رواد المقهى حينما يتناقشون .



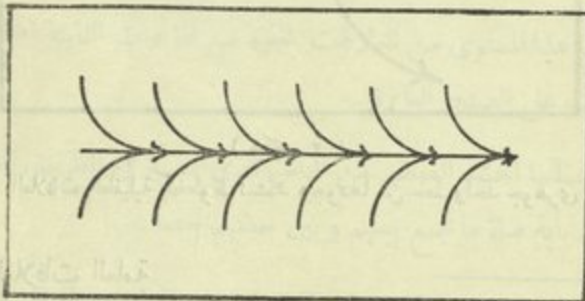
(شكل ٣)

العلاقات العامة كخطوط تتوازي فيها المسالك والضروب

(٤) العلاقات المتبادلة

يقوم هذا المستوى من العلاقات على بعض الاتجاهات النفسية المتبادلة التي تؤدي إلى المنفعة المشتركة . وتتميز بنوع خاص من التفاهم والارتباط بين الأفراد .

ومن أمثلتها علاقة الخادم برب البيت . وعلاقة العامل بصاحب المصنع . وتلك العلاقات لم يكتمل نضجها بعد ولم تبلغ بمستواها مستوى العلاقات الاجتماعية الصحيحة .



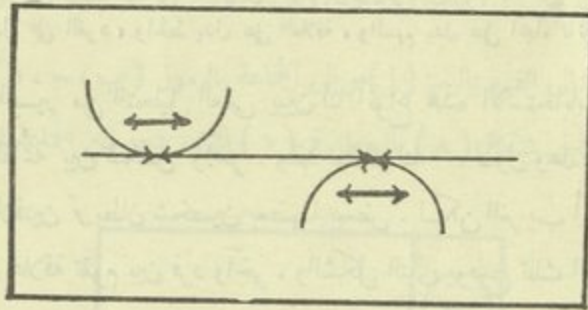
(شكل ٤)

العلاقات المتبادلة كخطوط تتصل نهايتها بخط واحد

(٥) العلاقات الاجتماعية

يبلغ مستوي العلاقات ذروته وغاية مرتقاه حينما يصل إلى المستوى الاجتماعي الصحيح . ذلك لأن العلاقات الاجتماعية تقوم على تأثير الفرد بالآخرين وعلى تأثيره فيهم وعلى تفاعله الدائم مع الثقافة التي تهيم على المجتمع .

وسنحاول في السطور التالية تحليل جميع أنواع العلاقات الاجتماعية ، تحليلاً يعتمد على تنظيم أصولها وعلى تنسيق أنواعها تنسيقاً يهدف إلى تبيان الأسس الجوهرية التي يقوم على أركانها علم النفس الاجتماعي .



(شكل ٥)

العلاقات الاجتماعية كخطوط تتصل اتصالاً يشعير إلى التأثير والتأثير

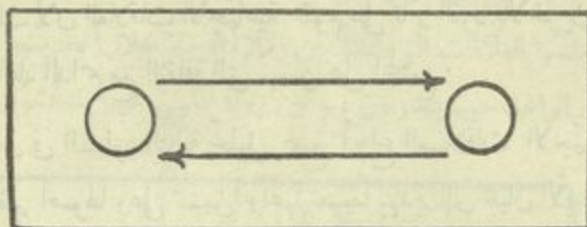
أنواع العلاقات الاجتماعية

العلاقات الاجتماعية بأنواعها المختلفة هي موضوع دراسة علم النفس الاجتماعي . وتتلخص هذه العلاقات في تفاعل الفرد مع فرد آخر أو مع الجماعة أو مع الثقافة القائمة وهو مؤثر فيها أو متأثر بها ؛ هذا وتمتد هذه العلاقات إلى تبيان أثر الجماعة في جماعة أخرى ومدى تأثيرها بها .

(١) تأثير الفرد بفرد آخر

من أمثلة ذلك أن يخفي الطفل لعبته حينما يرى أخاه . أو كأن تصاحب أنت شخصاً ما من أقرانك ولا تميل إلى صحبة شخص آخر . فإل هناك عوامل عامة وخاصة تجذب إليك صحبة شخص دون آخر ؟ ثم ما هي طبيعة هذه العوامل إن

وجدت ؟ وهل يتمكن البحث النفسى الاجتماعى من تحديدها أو التنبؤ بتأثيراتها المستقبلية ومدى نشاطها السافر والخفى ؟

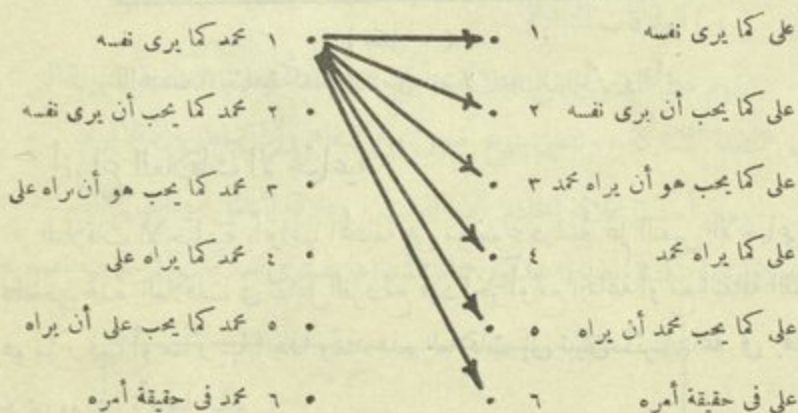


(شكل ٦)

تأثير الفرد بفرد آخر

الدائرة تدل على الفرد ، والخط يدل على العلاقة ، والسهم يدل على اتجاه تأثير كل علاقة

ولعل اليسير من التحليل العلمى يبين لنا أنواع هذه الاستجابات والعلاقات الاجتماعية القائمة بين شخص وآخر . ولقد يبدو لنا — لأول وهلة — أن هناك علاقة أو علاقيتين تربطان شخصين ببعضهما ببعض . لكن الغريب أن هناك حوالى ستاً وثلاثين علاقة تقوم بين فرد وآخر . والشكل التالى يوضح تلك العلاقات .



(شكل ٧)

توضيح العلاقات المختلفة التى تصل ما بين كل شخصين

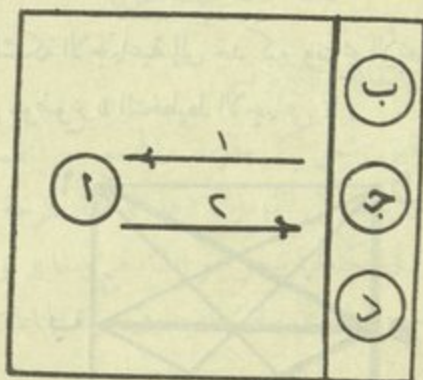
فهناك إذن ست شخصيات اجتماعية لعلى وست آخر لمحمد . وعدد الاحتمالات التى تقوم بين شخصية محمد كما يرى نفسه وشخصيات على كلها ستة احتمالات . وقد أوضحنا هذه العلاقات الست بالخطوط التى تربط الشخصية الأولى لمحمد بشخصيات

على كلها . وهناك كذلك ستة احتمالات بين شخصية محمد كما يجب أن يرى نفسه ، وبين شخصيات على كلها . وهكذا يستمر تبادل وتوافق العلاقات والمواقف بين شخصيات على ومحمد حتى يبلغ عددها ستة وثلاثين نوعاً مختلفاً من العلاقات النفسية الاجتماعية .

(٢) تأثير الفرد بالجماعة

عند ما يهتف الفرد مع الجبهة الثائرة صائحاً بحياة أو سقوط نظام ما ؛ وعند ما يدفعه التنافس وهو يعمل مع رفاقه إلى أن يزيد من إنتاجه ليتفوق عليهم جميعاً ، فهو يسفر بذلك عن أثر الجماعة في سلوكه وعن مدى تأثيره هو بتلك العوامل الجماعية .

فلورمزنا إلى الفرد بالرمز (١) وإلى الجماعة بالرموز (ب ، ج ، د) فإن تلك العلاقة تبدو كما في شكل (٨) بالخط رقم (١) الذي يتجه من الجماعة إلى الفرد .



(شكل ٨)

علاقة الفرد بالجماعة ، علاقة تأثير وتأثير

(٣) تأثير الجماعة بالفرد

تتأثر الجماعة بالفرد (وتؤثر فيه إلى حد ما) حينما تنقاد وراء زعيم ما يدعو إلى فكرة خاصة ، وحينما تؤمن برسالة هذا الزعيم فتندفع وراءه لتحقيق هذه الأهداف وتلك المثل العليا .

وتبدو هذه العلاقة كما في شكل (٨) بالخط رقم (٢) الذي يتجه من الفرد (١) إلى الجماعة (ب ، ج ، د) .

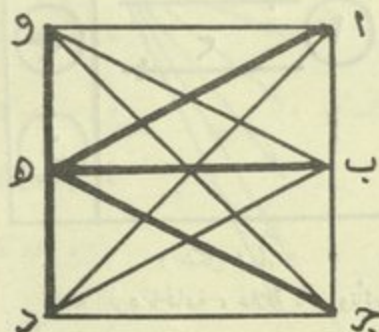
(٤) شبكة العلاقات الاجتماعية

يمكن تمثيل علاقات الفرد بالفرد ، والفرد بالجماعة بشبكة من الخطوط تمتد بين أفراد الجماعة .

ففي الجماعة التي نرمل لأفرادها بالحروف (ا ، ب ، ج ، د ، هـ ، و) والتي تبدو في شكل (٩) يدل الخط الممتد بين (ا) و (د) على العلاقة القائمة بين (ا) كفرد و (د) كفرد آخر .

وعند ما يتحول انتباه الجماعة نحو فرد ما مثل (هـ) لتأثيرها به ، ولتزعجه لها ؛ فإن الخطوط التي تربط (هـ) بكل أفراد الجماعة تقوى وتغلظ فتضعف لذلك الخطوط الأخرى ضعفا نسبيا .

وتتفق تلك الشبكة الاجتماعية إلى حد كبير ونتائج الأبحاث التجريبية ، وسيأتى بيان ذلك في تحليل موضوع « التخطيط الاجتماعي » .



(شكل ٩)

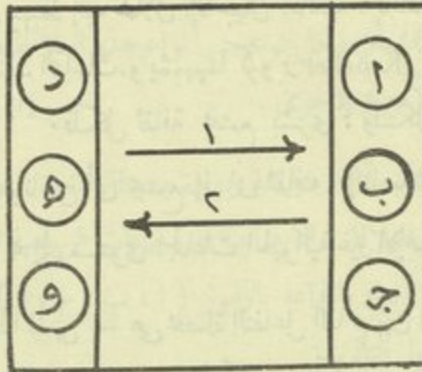
شبكة العلاقات الاجتماعية

خيوط تصل ما بين الأفراد ، وتؤلف فيما بينها نسج الحياة النفسية الاجتماعية

(٥) تأثر الجماعة بجماعة أخرى

تفسر لنا العلاقات المختلفة المتعددة القائمة بين جماعة وجماعة أخرى ، كثيراً من

عوامل السلم والحرب والتعصب الجماعي . وشكل (١٠) يوضح نوعى هذه العلاقة .
ولقد رمزنا إلى الجماعة الأولى بالرموز (ا ، ب ، ج) وللجماعة الثانية بالرموز
(د ، هـ ، و) وللتفاعل القائم بين الجماعتين بالخططين الأفقيين (١) و (٢) .



(شكل ١٠)
علاقة الجماعة بجماعة أخرى

(٦) تأثير الفرد بالثقافة وتأثيره فيها

الثقافة بمعناها الدقيق تشمل كل مقومات المجتمع من أنظمة اقتصادية وقوانين وأديان وفن وخلق وغير ذلك من المقومات . هذا ويختلف درجة تكامل هذه العناصر من مجتمع لآخر . وهى فى تكاملها تنحون نحو إنشاء قيم ومعايير واضحة الحدود قوية الآثار . وتؤثر تلك القيم والمعايير فى سلوك الفرد وفى حياة الجماعات ، وتتأثر بهما .

وتؤدى نظم بعض الجماعات إلى ظهور طبقات اجتماعية عدة ، تختلف وتباين فى مستوياتها العامة . ولكل من هذه الطبقات معاييرها التى تؤثر بها فى سلوك الفرد . وتشابه هذه المعايير فى بعض نواحيها . وهى بهذا التشابه تنطوى تحت لواء المجتمع الكبير الذى يحتويها . وتمايز هذه المعايير فى بعض نواحيها الأخرى وتنشئ بذلك لنفسها ذاتية خاصة تؤثر بدورها فى سلوك الفرد .

وكما أن الفرد يولد داخل مجتمع ما فهو يولد أيضا داخل ثقافة خاصة . وتشكله تلك الثقافة وهو بدوره يشكلها . فإنتاجه بناء لها ومقوماتها إطار له . وهى تؤثر فيه .

بطريقة مباشرة في الأسرة والمدرسة ، وهو يسعى جاداً في سعيه ليكيف نفسه للثقافة القائمة حينما يقبل ليتعلم الأساليب العامة للحياة التي يرتضيها لنفسه .

وبهذا فالثقافة نتاج المجتمع وأفراده . وهو يؤثر في الثقافة الراهنة نتيجة تأثيره بالتراث الثقافي الذي يهبط إليه خلال الأجيال الماضية . فالثقافة والمجتمع ظاهرتان مرتبطتان متماسكتان أشد التماسك . ويشبههما كروبر A.L. Kroeber بأنهما كسطحي الورقة في تلاصقهما ⁽¹⁾ . فلكل ثقافة مجتمع بشري ؛ ولكل مجتمع بشري ثقافة خاصة تميزه . فإذا محونا من أي مجتمع إنساني ثقافته فإننا بذلك نكون قد سخلنا عنه بشريته وهبطنا به إلى مستوى الجماعات الحيوانية غير الإنسانية .

فالثقافة — بهذا المعنى — هي محصلة التفاعل القائم بين الفرد والمجتمع والبيئة . هي ثمرة علاقة الفرد بالفرد وبالزمن وبالمكان وبالكون .

حجم الجماعة وأثره في العلاقات الاجتماعية

تتأثر العلاقات الاجتماعية — إلى حد كبير — بعدد أفراد الجماعة ؛ ويرتبط هذا العدد بوظيفة الجماعة وهدفها . فلكل نوع من أنواع الجماعات حجم خاص يناسب بناءها وتكوينها ، فإذا ازداد عدد أفرادها زيادة كبيرة عن المدى الضروري لها ، انقسمت الجماعة إلى جماعات عدة صغيرة .

وأصغر أنواع الجماعات هي التي تتكون من شخصين . كالزوج وزوجه ، أو كصديقين تجمعهما مناقشة ما . وتتلخص علاقتهما الاجتماعية في تأثير فرد بفرد آخر . وفي تأثيره فيه كما أسلفنا في تبياننا لهذا النوع من العلاقات .

وعند ما يزداد عدد أفراد الجماعة إلى ثلاثة ، تزداد — تبعاً لذلك — العلاقات الاجتماعية التي تنشأ بين فرد وآخر ، وتظهر علاقات أخرى جديدة تربط الفرد بالجماعة . ولنضرب لذلك مثل الأسرة التي تتكون من أب ، وأم ، وإبن . وتتلخص

(1) Kroeber, A.L., Anthropology, 1948, Chapter 8.

العلاقات الاجتماعية التي تربط أفراد هذه الجماعة الثلاثية في ثلاث علاقات فردية ، وثلاث علاقات فردية جماعية . أما العلاقات الفردية فتبدو في علاقة الأب بالأم ، وعلاقة الأب بالإبن ، وعلاقة الأم بالإبن . وأما العلاقات الفردية الجماعية فتبدو في علاقة الأب بالأم والإبن معاً ، وفي علاقة الأم بالإبن والأب معاً ، وفي علاقة الإبن بالأب والأم معاً ولا شك أن لكل نوع من أنواع هذه العلاقات صفات ديناميكية خاصة تميزه عن بقية الأنواع الأخرى .

هذا وكلما ازداد عدد أفراد الجماعة زيادة بسيطة صغيرة ، ازداد عدد العلاقات زيادة ضخمة كبيرة . فالعلاقات الاجتماعية في الجماعات الرباعية تصل إلى ٢٥ علاقة مختلفة . فإذا رمزنا إلى أفراد الجماعة بالرموز (ا ، ب ، ج ، د) أمكننا أن نوضح هذه العلاقات في الجدول التالي :

نوع العلاقات	توضيح رمزي للعلاقات	عدد العلاقات
فرد - فرد	(ا - ب) (ا - ج) (ا - د) (ب - ج) (ب - د) (ج - د)	٦
فرد - جماعة ثنائية	(ا - ب ج) (ا - ج د) (ا - د ب) (ب - ج د) (ب - د ا) (ب - ا ج) (ج - د ا) (ج - ا ب) (ج - ب د) (د - ا ب) (د - ب ج) (د - ج ا)	١٢
فرد - جماعة ثلاثية	(ا - ب ج د) (ب - ج د ا) (ج - د ا ب) (د - ا ب ج)	٤
جماعة ثنائية - جماعة ثنائية	(ا ب - ج د) (ب ج - د ا) (ا ج - ب د)	٣
المجموع		٢٥

ولهذه العلاقات أهميتها البالغة في تحليل وفهم السلوك الاجتماعي الذي تقوم عليه جميع الأبحاث الحديثة في علم النفس الاجتماعي . فالمميزات النفسية الاجتماعية للطفل

تختلف باختلاف عدد أخوته ، وتختلف أيضاً باختلاف ترتيبه الميلادى بالنسبة لهؤلاء الأخوة . فصفات الطفل الأول تختلف عن صفات الطفل الأخير . والطفل الذى يجد نفسه فرداً فى أسرة ثلاثية يختلف عن طفل آخر يجد نفسه فرداً فى أسرة رباعية أو خماسية .

وهكذا نرى أن عدد العلاقات يتأثر تأثيراً مباشراً بحجم الجماعة . هذا وتؤثر تلك العلاقات بدورها فى حجم الجماعة ، فإذا ازداد عددها زيادة تحول بين الأفراد وبين التفاعل الاجتماعى الصحيح لتجاوزها النهاية القصوى لمقدرة الأفراد على إدراك بعضهم بعضاً — انقسمت الجماعة إلى جماعات صغيرة .

ويتأثر عدد أفراد الجماعة بعوامل خارجية عدة ومن أمثلة ذلك تأثر عدد أفراد الأسرة بنسبة المواليد ونسبة الوفيات . هذا ويتأثر حجم جماعات الأطفال بأعمارهم ، فكلما ازداد عمر الطفل كلما ازدادت قابليته للتألف واللعب مع الأطفال الآخرين .

العلاقات الطولية والعلاقات المستعرضة

عندما يضطرب ازدياد عدد العلاقات الاجتماعية نتيجة ازدياد عدد أفراد الجماعة، فإنها تنفشر فى مستوى طولى رأسى أو فى مستوى أفقى مُستعرض . فالعلاقات فى صورها المختلفة ؛ سواء أكانت تقوم على الحب والصدقة والإعجاب والاحترام ، أو على البغض والعداوة والاشتمزاز والاحتقار ، أو على غير هذا وذاك من الصور المختلفة — قد تمضى صُعداً درجاً بعد درج وسلاماً بعد سلم كما فى علاقة الطفل بأبيه ، والأتباع بالزعيم . هذا وقد تقوم هذه العلاقات بين صديقين يهيمن عليهما مستوى واحد أو بين جماعتين تربطهما علاقات تساوى بينهما أو تكاد .

المراجع

- ١ - الدكتور عبد العزيز القوصي : علم النفس ، ١٩٤٢ ، فصل ١٨
- ٢ - الأستاذ محمد فؤاد جلال : التربية القومية ، ص ١٢-١٣ : ١٦ .
- ٣ - الدكتور محمد خليفة بركات : تحليل الشخصية : ، فصل ١١
- ٤ - فرد كلارك : التربية والثقافة ، صحيفة التربية ، يوليو سنة ١٩٤٩ ص ٢٢ - ٣٧

5. Allport, F.H., Social Psychology, 1924, Chapters 1 and 7.
6. Brown, J.F., Psychology and the Social Order, 1936, Chapter 1
7. Fuller, J.L., "Situational Analysis: A Classification of Organism-Field Interactions", Psychological Review, 1950, 57, p.p. 3-18.
8. Gurnee, H., Elements of Social Psychology, 1936, Chapter 1.
9. Krout, M.H., Introduction to Social Psychology, 1942, Chapters 4 and 5.
10. Lillie, R.S., "Randomness and Directiveness in the Evolution and Activity of Living Organisms", Amer. Nat., 1948, 82, pp. 5-25.
11. Steinzer, B., "The Development and Evaluation of a Measure of Social Interaction", Human Relation, 1949, 2, p.p. 103-122.

الفصل السادس

أنواع الجماعات

ودراسة تحليلية لبعض أنواع المجتمع

مقدمة

يجتمع الناس لأشياء كثيرة . فقد يجتمعون لمشاركة زميل لهم في أفراحه أو في أحزانه ، وقد يجتمعون لمشاهدة حادث في الطريق العام ، وقد يجتمعون للمطالبة بحق ورفع الجور عن أنفسهم ، وقد يجتمعون لغير هذا من الأسباب المختلفة .

هذا وقد تجمعهم أمور موضوعية أو أمور ذاتية تتصل بهم من قريب أو من بعيد ، وقد يجتمعون في منظمات تهيمن على جميع ظروف حياتهم ، أو لأشياء تتناول حياتهم من بعيد . وقد تجمعهم لحظة عابرة ينفذ بعدها شملهم . وقد تجمعهم صلات عميقة . تؤثر فيهم مدى الحياة .

والحقائق النفسية التي تقوم عليها هذه التقسيمات المختلفة تستند في جوهرها إلى أسس عدة ، تحاول كل منها أن تستوعب الأنواع المختلفة للتجمع الإنساني في إطارها العامي . ولكل من هذه الأسس نواحي قوتها ونواحي ضعفها .

هذا وتتلخص التقسيمات المختلفة للجماعات في الأنواع التالية : —

(١) الموضوعية والذاتية

تنقسم الجماعات بالنسبة لموضوعية وذاتية العوامل المؤثرة في التجمع إلى أربعة أنواع :

(١) وحدة العوامل الموضوعية

ومن أنواعها التفرقة القائمة بين الجماعات على أساس اختلاف البيئات الجغرافية ، واختلاف لون البشرة ، والفروق الواضحة في العمر الزمني وفي مستويات الدخل .

ومن أمثلة التفرقة الجغرافية التمييز بين سكان الوجه البحري وسكان الوجه القبلي بمصر، وبين سكان السواحل وسكان الوادي. ومن أمثلة التفرقة القائمة على اختلاف لون البشرة، التمييز بين الشعوب البيضاء والشعوب الصفراء والشعوب السوداء. لكن الوحدة الموضوعية لا تعني وحدة سيكولوجية. ونعني بالوحدة السيكولوجية الشعور بالتألف الجماعي الذي ينطوي على تشابه الآراء، والتفكير والاتجاهات. وقوام هذا التشابه التفاعل الاجتماعي الذي ينشأ بين أفراد الجماعة كنتيجة للتجمع نفسه.

(ب) وحدة المعايير الاجتماعية والاتجاهات

ومن أمثلتها التفرقة القائمة بين أفراد حزب سياسي ما، وأفراد حزب آخر. ونقد كانت الأحزاب السياسية بمصر إلى عهد قريب تُدشّن جماعات مختلفة لكل جماعة منها وجهتها الخاصة التي تتفق مع أهداف الحزب الذي تنتمي إليه والتي تتعارض وتختلف عن اتجاهات الجماعات الأخرى، تبعاً لتباين غايات وأهداف الأحزاب المختلفة.

(ج) تشابه السلوك ووحدة العمل

فعمال المصنع الواحد تجمعهم رابطة خاصة تؤلف بينهم، وتنشئ من هذا التألف جماعة لها مميزاتها السيكولوجية.

(د) الشعور المشترك بالتبعية

كشعور الطالب بتبعيته لكليته حتى إذا تخرج فيها وانفصل عنها، لا يفتأ يحس بنوع من التبعية غير المرئية تربطه بها وبقاى الخريجين مهما اختلفت أجيالهم. وينطوي شعور التبعية على إدراك الفرد للتشابه القائم بينه وبين أفراد الجماعة التي ينتمي لها. ويُعتبر « جيدنجز » F. H. Gidding أول باحث درس هذا النوع من التجمع وسماه وقتئذ « الشعور بالنوع ».

ولقد أسفرت أبحاث مظفر شريف M. Sherif ونيوكمب T. Newcomb عن عامل آخر يؤدي إلى نوع من أنواع التجمع . فالناس ينتمون بأفكارهم وأهوائهم ورغباتهم إلى « إطار » ينسبونه إلى جماعة خاصة أو ينسبون الجماعة إليه . وهذا الإطار يهيمن إلى حد كبير على تآلفهم وتآزرهم وسلوكهم الجماعي . هذا وقد ينتمي الأفراد إلى جماعة ما ، ويهيمن عليهم إطار جماعة أخرى . وهكذا نفرق هنا بين نوعين من أنواع الجماعات : الجماعة التي يظن الناس أن الفرد ينتمي إليها ، والجماعة التي يظن الفرد نفسه أنه ينتمي إليها .

(٢) الجزئية والكلية

تنقسم الجماعات بالنسبة للسلوك الاجتماعي للفرد إلى نوعين : —

(١) الجزئية

تتمثل الجزئية في الجماعة التي يهيمن على جزء محدود من النشاط الاجتماعي للفرد . فانتساب الفرد إلى أندية عدة ، واشتراكه في نشاط جماعات مختلفة هو في جوهره انتساب واشتراك جزئي .

ومشاركة الفرد الجزئية في نشاط الجماعة التي ينتسب لها تختلف باختلاف مدى هذا النشاط ، فقد يهب الفرد جماعة ما ، ما يساوي ٩٠٪ من مجموع نشاطه الاجتماعي ، وقد يهبها ما يساوي ١٪ .

هذا وقد يمضي الفرد أغلب وقته مع أفراد جماعة ما ، بينما « الأنا Ego » الخاصة به ، تخلق في جو جماعة أخرى .

(ب) الكلية

وتتمثل الكلية في سيطرة إحدى الجماعات سيطرة مطلقة على جميع نواحي الفرد . حتى تفنى فيها شخصيته وتصبح الجماعة بمثلها العليا وبمبادئها وبدستورها هي كل ما يحيا له ويجاهد في سبيله .

ومن أمثلة هذا النوع جماعة الإخوان المسلمين المتحمسين لدعوتهم ، وجماعة الفدائيين ، وأعضاء الجمعيات السرية .

(٣) التقييد والحرية

تستلزم بعض أنواع الجماعات خضوع الفرد لاتجاهات ثابتة ، ودساتير موضوعية ومعايير مقننة . ولعل أوضح مثل لهذا النوع من الجماعات ، جماعة الجنود في خضوعهم للنظام العسكري وفي احترامهم لتقاليده . ومن أمثلتها أيضاً الخضوع المطلق للتقاليد الدينية التي تهيمن على جماعة ما ، والمغالاة والتعصب لحزب سياسي خاص .

(٤) الاستقطاب

تنقسم الجماعات بالنسبة لتكوينها الداخلي وبالنسبة للعلاقات القائمة بين أفرادها إلى نوعين : جماعة مستقطبة ، وجماعة غير مستقطبة .

والاستقطاب يعنى اتجاه الجماعة كلياً نحو فرد منها . هذا وتفاوت درجات الاستقطاب من كلى إلى جزئى إلى تشتت .

ومن أمثلة الاستقطاب الكلى ، الجماعة التي تنصت إنصاتاً تاماً للمتحدث أو الخطيب . وستناول تحليل هذا النوع من الجماعات في دراستنا « للجماعة المستمعة » . ومن أمثلته أيضاً سيطرة الزعيم على الجماعة وخضوع أفرادها له .

ويتميز الاستقطاب الجزئى بأن بعض أفراد الجماعة يتجه مُنصباً خاضعاً للمتحدث أو الزعيم ، بينما ينصرف الآخرون إلى أنفسهم وإلى زملائهم .

ومعنى التشتت فوضى في العلاقات الاجتماعية . بحيث لا تنصرف هذه العلاقات نحو فرد واحد من الجماعة ، ولا نحو الآخرين بل تختلط في تضاد يكاد يزول معه أثرها .

(٥) الثبات

تنقسم الجماعات بالنسبة لثباتها إلى نوعين : جماعة ثابتة كالأُسرة ، وجماعة غير ثابتة كالجمهرة ، وجماعة ثابتة نوعاً ما كجماعة النادى أو الطائفة .

هذا وتختلف الجماعات في درجة ثبات أثرها وفي درجة تجانسها .

وأثر الجماعة الثابتة قوى عميق يهيمن على حياة الفرد طول حياته أو يكاد .

فأثر الأسرة يظل في تفاعل دائم مع الفرد في ضروب ومسالك حياته المختلفة . هذا وللأسرة أثران بارزان في حياة الفرد هما الوراثة والبيئة . وتساعد البيئة على اكتساب الصفات الاجتماعية ، وسنتناول هذا بالتفصيل في دراستنا لسيكولوجية الأسرة .

أما الجماعة غير الثابتة فإنها غالباً ما تنشأ لسبب عارض كاجتماع الناس في الطريق العام لمشاهدة حادث ما . وسرعان ما ينفض شمل الجماعة ويمضي كل فرد إلى وجهته التي كان يسعى إليها من قبل . فالجمهرة إذن جماعة يؤلف بينها شعور واحد كما أسلفنا ، لكنه شعور سطحي مؤقت يتولد بسرعة ويزول بنفس السرعة التي بزغ بها . وليس لهذا النوع من الجماعات وحدة اجتماعية قوية تربطها ، فأهدافها قريبة وعواطفها سطحية وذكرياتها معدومة .

وجماعة النادي Club أقوى أثراً وأكثر تماسكاً وتجانساً من الجمهرة . ومن أمثلتها اتحاد أصحاب المهن ، وخريجي معهد أو كلية واحدة وأعضاء الأحزاب السياسية . ويتميز هذا النوع بذكريات مشتركة ، وعواطف متبادلة ، وأهداف بعيدة وعلاقات داخلية تربط الأعضاء بعضهم ببعض ، وقوانين ودساتير خاصة تعمل على تنظيم وتآلف أفراد هذه الجماعة .

والطائفة Community تشابه جماعة النادي في صفاتها العامة . وتزيد عليها بأن هذه الصفات أعمق أثراً في حياة الفرد ، فهي بذلك أكثر استقراراً وثباتاً من الجمهرة ومن جماعة النادي .

(٦) الداخلية والخارجية

الجماعة التي ينتمى إليها الفرد تسمى بالجماعة الداخلية ، والجماعة التي لا ينتمى إليها هي جماعة خارجية بالنسبة له . وبين الجماعتين فوارق وحدود قائمة . وتختلف هذه الفوارق قوة أو ضعفاً ، وضوحاً أو غموضاً باختلاف آراء واتجاهات الجماعتين . فإذا اتفقت الآراء والاتجاهات اختفت الفوارق والحدود أو كادت . وإذا تضاربت الاتجاهات ، اشتد التنارع بين الجماعتين وانضحت الفوارق ، وأسفر الموقف عن تعصب يشتد ويقوى كلما اشتد التباين والتمايز .

وبهذا فافراد الجماعة الداخلية يرتبطون معاً بعلاقات عاطفية واتجاهات خاصة .
آراؤهم مشتركة متقاربة ومعاييرهم الاجتماعية متحدة أو متشابهة ، يثورون معاً لأى
اعتداء يصيب أحد أفرادها ، ويفخرون معاً بأى نجاح يلقاه أحدهم . وأول جماعة
داخلية ينتسب لها الفرد هى أسرته . هذه الجماعة تحس نحو الجماعة الخارجية بالاشتمزاز
والمعارضة والخوف والبغض .

وقديما قسم العبرانيون الناس إلى نوعين : شعب الله المختار ، وشعوب الله
الأخرى . وقسم اليونان شعوب العالم إلى نوعين — على أساس وحدة اللغة — فمن
كانت لغته اليونانية فهو إنسان مهذب فاضل ، والبقية الباقية التى تجهل اليونانية فهم برابرة .
ولا يعنى هذا أن لكل جماعة داخلية جماعة خارجية تقابلها . فهناك من الجماعات
أنواع لا تثير فى الفرد نفوراً أو ميلاً . وتلك ما نسميها بالجماعات المحايدة

(٧) الأولية والثانوية

تقسم الجماعات بالنسبة لأسبقية ظهورها فى حياة الفرد إلى أولية وثانوية . هذا
وتسبق الجماعة الأولية جماعة أخرى تسمى بالجماعة الوثقى ، وتسبق الجماعة الثانوية
الجماعة الوسطى . وسميت بالوسطى لأنها تقع بين الجماعة الأولية والجماعة الثانوية .

(١) الجماعة الوثقى

وعلاقات هذا النوع من الجماعات أعمق وأقوى وأوثق عرى من علاقات أى
نوع من أنواع الجماعات . ومن أشكالها الجماعة التى تقوم على علاقة الأم بطفلها ،
وعلاقة الزوج بزوجه ، وعلاقة الحار بين فى جبهة القتال وهم بين الحياة والموت .

(ب) الجماعة الأولية

يعرف كولى C.H. Cooley الجماعة الأولية بأنها تلك التى يتصل فيها الناس
اتصالاً قوياً قريباً مباشراً^(١) . وتسمى أمثال هذه الجماعات بالجماعات الأولية
لأنها تشمل المؤثرات الجوهرية الأساسية التى تقوم عليها حياة الفرد الاجتماعية .

1) Cooley, C. H. Social Organization 1909

والاتصال المباشر يؤدي إلى اندماج الفرد في الكل العام الذي ينظم تلك الجماعة ،
وتصبح ذات الفرد نفسها جزءاً قوياً في الحياة العامة المشتركة لهذه الجماعة ، وتسائر
أغراضه أهدافها .

ومن أنواع الجماعات الأولية : الأسرة ورفقاء اللعب والجيران .

والجماعة الأولية: هي البنية الأساسية في صرح المجتمع ، وهي عريقة في القدم تمتد
جذورها إلى نشأة الحياة الإنسانية وتعاصر نشأة الإنسان الأول . وهي أساسية جوهرية
في تكوين الفرد لأنها تشبع حاجاته الرئيسية . وهي عامة بين أفراد النوع الإنساني
كافة في مختلف بقاع الأرض ، وخلال الأجيال المتعاقبة .

وتتميز هذه الجماعات بنموها اللاشعوري وبتكوينها التلقائي في بيئة يسكنها
أناس يجمعهم تجانس قريب في صلة الدم حيناً والثقافة أحياناً أوهما معاً أحياناً أخرى .

ومن تلك الجماعات تبرز شخصية الفرد ، وفيها تتشكل إلى محد كبير . ففي
نطاقها الضيق يتلقى الفرد مؤثراته الاجتماعية الأولى ، ويتلقى لأول مرة نماذج الثقافة
المختلفة ، وتتشرّب نفسه المعايير الاجتماعية والخلقية . وتسرى إليه بعض الانجاهات
النفسية الهامة .

وتتميز للمؤثرات والعلاقات الاجتماعية بأنها مباشرة قريبة ، ومستواها أولى
جوهري . ويقوم على لقاء الأفراد بعضهم ببعض ، وجها لوجه ، وصوتاً لصوت
في أحاديثهم المتبادلة . فيولهم مشتركة وأذواقهم قريبة ، وصلتهم قوية عميقة .

ودراسة أثر الجماعة الأولى في السلوك الاجتماعي تؤدي بنا إلى فهم سلوك الفرد
في الجماعات الكبرى المعقدة المتشابكة التي يدين أفرادها بألوان مختلفة متباينة من
ثقافات عدة . فالأسس الأولى لهذا السلوك تتكون في الجماعات الأولى وتسرى منها
إلى الجماعات الثانوية . ذلك لأن نوع استجابة الطفل لسلطة أبيه أو أمه يفسر لنا
الأسس النفسية لاستجابة الإنسان للقانون القائم وللزعامة أيضاً .

ولقد دلت الأبحاث التي قام بها بيك Peak عام سنة ١٩٠٥ على الشعب

الألماني ، على أن الأشخاص الذين نشأوا في أسر تهيم عليها سلطة الأب وصرامته
يَلْقَوْنَ أمناً ومتمعة في الاستكانة والخضوع لرؤسائهم وسيطرون بدورهم على مرءوسيهـم .

(ج) الجماعة الوسطى

وتقوم هذه الجماعات على علاقات تقرب في جوهرها من العلاقات المباشرة
الشخصية وتتميز أحيانا باتجاهات متشابهة أو مختلفة نوعا ما ؛ كجماعة أحد الفصول
في مدرسة ما ، أو كالجماعة التي تتكون من سكان أحد الكفور في ريفنا المصري .

(د) الجماعة الثانوية

يتميز تكوين الجماعات الثانوية عن الجماعات الأولية بالقصد والاختيار .
وتمثل هذه الجماعات الرغبات والمخافات العامة للأفراد ، ولا تعتمد دائما على العلاقات
الحاسية المباشرة بين الأفراد التي تقوم على مقابلة أفرادها بعضهم لبعض ، ووجها لوجه
بين الحين والآخر . بل تقوم على وسائل الاتصال غير المباشر كالصحف والمسرة
وغيرها . ومثال ذلك الهيئات العلمية ، فقد ينتسب الفرد إلى جمعية علمية ويصبح
عضواً فيها دون أن يقابل جميع أعضائها . وقس على ذلك الهيئات السياسية والجمعيات
الدينية والنقابات المختلفة .

ورغم أن هذه الجماعات تمثل رغبات عامة فإن هذه الرغبات نفسها تتطلب من
أفراد الجماعة تنظيماً وتنسيقاً يفوق ما تتطلبه الجماعات الأولية . ولهذا الجماعات
تقاليدها وداستها .

وتواجه الحضارة الراهنة طغيان الجماعات الثانوية على الجماعات الأولية .
لكن ليس معنى هذا زوال أثر الجماعات الأولية من حياة الفرد الاجتماعية . فكل
ما يكتسبه الفرد من عادات واتجاهات في جماعته الأولى ينتقل إلى نواحي نشاطه
المختلفة في الجماعات الثانوية .

دراسة تحليلية للاتصال الاجتماعي في الجماعات الأولية والثانوية

هذا ولأهمية هذا التقسيم نستعرض الصفات الأساسية للاتصال الاجتماعي من حيث نوعها ، وتكرارها ، وحدتها الانفعالية ، ومدى ارتباطها واستقلالها - للجماعات الوثقى والأولية والوسطى والثانوية - فيما يلي :

(أ) الجماعة الوثقى

- ١ - أمثلة : علاقة الطفل بأمه ، وعلاقة الرجل بزوجه .
- ٢ - نوع الاتصال الحاسى : وجهها لوجه ، اتصال مباشر حاسى ، وبالأخص لحاسى المس والشم ، ولأغلب النواحي البيولوجية الحيوية .
- ٣ - درجة الاتصال : اتصال مستمر حيناً وكثير التكرار أحياناً .
- ٤ - الحدة الانفعالية للاتصال : حدة الانفعال عميقة تؤثر في الفرد طول حياته .
- ٥ - مدى الارتباط ومدى الاستقلال : ارتباط كلى أو شبه كلى .

(ب) الجماعة الأولية

- ١ - أمثلة : الأسرة ، وبالأخص علاقة الأخوة بعضهم ببعض .
- ٢ - نوع الاتصال الحاسى : وجهها لوجه ، اتصال مباشر لحواس البصر ، والسمع والشم .
- ٣ - درجة تكرار الاتصال : اتصال كثير التكرار في وقت خاص من مراحل نمو الأفراد ، ثم تقل بعد ذلك مرات التكرار .
- ٤ - الحدة الانفعالية للاتصال : اتصال يترك في نفوس الأفراد طابعاً خاصاً وذكريات تبقى مدى الحياة .
- ٥ - مدى الارتباط ومدى الاستقلال : أفكار مشتركة ، طموح متقارب ، استقلال عاطفى نوعاً ما .

(ج) الجماعة الوسطى

١ - أمثلة : طلبة الفصل الدراسى الواحد . الكشافة . جماعة النادى . جماعة العمال الذين يعملون فى مصنع واحد صغير .

٢ - نوع الاتصال الحاسى : وجهاً لوجه . اتصال مباشر لحاسى البصر والسمع .

٣ - درجة تكرار الاتصال : أحياناً ؛ حيث تتشابه الأهداف أو تختلف .

٤ - الحدة الانفعالية للاتصال : اتصال سطحي ؛ علاقات شكلية أو تقرب من الشكلية .

٥ - مدى الارتباط ومدى الاستقلال : رغبات وميول تكاد تكون مشتركة .

تحفظ فردى بالنسبة لنواحي الطموح المختلفة ؛ استقلال عاطفى نوعاً ما .

(د) الجماعة الثانوية

١ - أمثلة : الجماعات التى تقوم على وحدة السلالة ، أو وحدة العنصر ، أو وحدة القبيلة ، أو وحدة الوطن ، أو الوحدة الاقتصادية .

٢ - نوع الاتصال الحاسى : غالباً ما يكون ، الاتصال غير شخصى وغير مباشر وقوام هذا النوع الاتصال الآلى الميكانيكى ، ومن أمثلة وسائله الصحف والمذيعات والبرق (التلغراف) والمسرة .

٣ - درجة تكرار الاتصال : اتصال نادر بالنسبة للزمان والمكان .

٤ - الحدة الانفعالية للاتصال : شكلية .

٥ - مدى الارتباط ومدى الاستقلال : آراء لفظية مشتركة . تحفظ تام بالنسبة للأهداف وضروب الطموح المختلفة . استقلال عاطفى اللهم إلا فى الأزمات التى تمس جميع أفراد الجماعة .

الأنواع المختلفة للجماعات والفرد

اختلاف تقسيم الجماعات من حيث الموضوعية والذاتية ، والجزئية والكلية والتمييد والحرية ، والاستقطاب ، والثبات ، والداخلية والخارجية ، والأولية والثانوية لايعنى قط تقسيماً حاداً جامداً . فتللك الأنواع متشابكة متداخلة . فالعلم يصنف دائماً ليدرس ويحلل . وتظل الحقائق بعد ذلك كله تسرى من نوع إلى نوع ومن قسم لآخر لكنها في سرانها هذا تتجمع وتتركز في نواح خاصة ، وتخف وتكاد تشف في نواح أخرى فتبدو أمام الباحث أقساماً وأنواعاً .

فعلاقة الفرد الاجتماعية بالأفراد الآخرين تختلف من حيث النوع . والمدى ، والحدة . وتلك الصفات مجتمعة هي ما يطلق عليها ينج K. Young المشاركة الاجتماعية Social Participation . ذلك بأن هذه المشاركة تحتل مستويات مختلفة في نشاط الأفراد وتمهد بذلك لإقامة ما يقرب من المقاييس المعيارية للعلاقات الاجتماعية .

فالأسرة مثلاً . تهيمن على الفرد في بدء حياته ، ثم يتسع الأفق الاجتماعي للطفل — في حدود الجماعات الأولية — فيشارك رفقائه في ألعابهم ويصادق جيرانه ، ثم تنمو دائرة نشاطه الاجتماعية فتشمل بعض الجماعات الثانوية كالمدرسة ، وتخف بذلك حدة اتصاله المباشر بالمنزل والجماعات الأولية الأخرى . وقد يحدد نفسه في شبابه المبكر يشترك في حشد ضخم من جماعات عدة .

وبما أن هذه العلاقات تختلف من حيث النوع ، والمدى ، والحدة — كأسلفنا — فلا يضير الفرد أن يعيش في أطوارها جميعاً ، كل وفق مستواه ونوعه . فقد تكون علاقات الفرد العائلية علاقات مودة وعطف وحب ، بينما علاقاته في عمله تقوم على الكفاح الشديد أو على أى لون من ألوان قانون الغابة ؛ أنانية وقسوة .

دراسة تحليلية لبعض أنواع التجمع

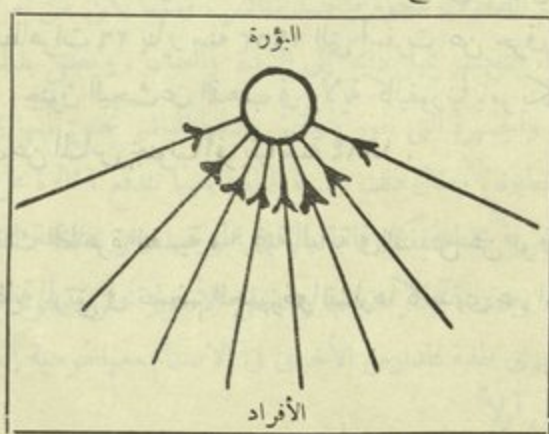
١ - الجماهير

تعريف الجماهير وأنواعها

الجماهير جماعة من الناس تستجيب عاطفياً لمثير مشترك ، والاستجابة العاطفية الحادة، هي أهم ما يميز الجماهير عن بقية الأنواع الأخرى للجماعات . ومن أمثلة الجماهير تجمع الناس في الطريق العام حول جريح صدمته عربة . فالاستجابة هنا عاطفية ، والمثير واحد ، والجماعة بسيطة في تجمعها ؛ لا هي بالتماسكة ولا هي بالمستقرة . أهدافها قريبة ، وذكرياتها كوحدة اجتماعية معدومة أو ضعيفة . سرعان ما يتجمع أفرادها ، وسرعان ما ينفذ شملهم .

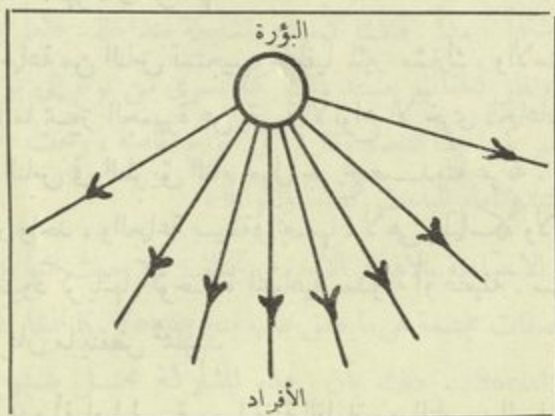
ويتباين عدد أفراد الجماهير من الحفنة القليلة من الناس ، إلى الحشد الضخم . وتختلف الاستجابة العاطفية للجماهير من تخريب وصياح إلى فرع وخوف إلى غير ذلك من الاستجابات المختلفة . فالجماهير الثائرة تختلف في استجاباتها عن الجماهير التي تجتمع فوق سطح باخرة توشك أن تغرق .

والجماهير في تجمعها تتجه نحو بؤرة واحدة يتركز فيها هدفها ومثار انتباهها ، كما يبدو ذلك في شكل (١١) حيث تدل الدائرة على البؤرة وترمز الخطوط إلى الأفراد وتشير الأسهم إلى اتجاه تجمع هؤلاء الأفراد .



(شكل ١١) الجماهير في تجمعها

والجمهرة في فرعها تتجه بعيداً عن البؤرة التي يتركز فيها انتباهها فيتدافع أفرادها بالمناكب والأكتاف ، وقد يشتد الزحام فيهلك من يهلك ويعدو من يعدو خوفاً وفرعاً كما يبدو ذلك في شكل (١٢)



(شكل ١٢) الجمهرة في هروبها

الوباء العقلي

في حياة كل أمة موجات تشبه الجنون ، يندفع فيها الناس كافة فيتجههرون في كل مكان ، ويشورون في كل بقعة طوائف وجاعات ، رجالاً ونساء وأطفالاً ، صيحتهم عامة ، وعاطفتهم حادة مشتركة . يهدفون جميعاً إلى شيء واحد لا يبتغون عنه حولا حتى حين . ذلك هو ما نسميه مجازاً « الوباء العقلي » ومن أمثلته القريبة إلى أذهاننا ، مظاهرات ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ التي أسفرت عن حرق القاهرة . ومن أمثلته في العالم ، جنون البحث عن الذهب في ولاية كاليفورنيا بأمريكا سنة ١٨٤٨ . وجنون البحث عن الماس بجنوب أفريقيا سنة ١٨٨٤ .

وأساس تلك الظاهرة النفسية ، الرغبة العامة في التنفيس عن التوتر اجتماعي حاد . والوباء العقلي غاية المرتقى في تضخم الجمهرة وانتشارها كالعدوى عبر المكان والزمان .

الصفات والمظاهر النفسية للجمهرة

الجمهرة وحدة اجتماعية تميز عن بقية أنواع الجاعات بصفات مشتركة أهمها :

(١) تشابه الاستجابات

التجمهرون في مظاهرة ما يسلكون سلوكاً متشابهاً . فهم يصيحون معاً هاتفين بحياة أو سقوط زعيم ما ، يرددون معاً عبارات قصيرة قوية عاطفية حماسية مثل « الدين لله » و « الوطن للجميع » أو « النيل لا يتجزأ » أو « يسقط الاستعمار » .

وقد يبدو أحياناً على سلوك أفراد الجمهرة نوع من الاختلاف والتباين حينما يصيح بعضهم في ثورة ، وحينما يقذف البعض الآخر الحجارة على المنشآت العامة أو التجارية ، وحينما يهز فريق آخر أيديه في وعيد وتهديد ، لكنهم جميعاً يسلكون هذا يهاجمون في غضب وثورة . فاستجاباتهم متشابهة مشتركة رغم اختلافها الظاهري .

(٢) وحدة الدافع والمثير

يصدر تشابه الاستجابات عن دافع واحد مشترك ، فالجمهرة كلها تهدف في نفس الوقت إلى غرض واحد . وقد يكون الغرض واضحاً محدداً ، وقد يكون عاماً غامضاً . ويتضح غموض الهدف عند ما ينهض — من بين المتجمهرين — زعيم يحدد هدف التجمهر وينظم الصفوف لهجوم واحد مباشر . ومهما يكن من أمر الهدف فالدافع الذي يكن وراء التجمهر يميل دائماً إلى الشدة والعنف ، ويضفي بذلك على الهدف حيوية وقوة . والجمهرة التي تفوز بتحقيق هدفها المباشر تحس بأنها نجحت في القيام بمهمة جد خطيرة . ومثال ذلك جمهرة الطلبة حينما تندفع ، ناثرة على نظم المدرسة وتقايلدها ، مخربة محطة كل ما يقابلها في طريقها وهي مندفعة لتترك المدرسة إلى الطريق العام . وعند ما تجتاز عقباتها وتتخطى الأسوار تحس بنشوة الانتصار وتمضى في سيرها لتستهوى طلبة المدارس الأخرى في الانضمام معها موحية إليهم بنفس الدافع الذي أثارها هي أولاً .

(٣) العاطفة الجارفة

الدافع القوى الحاد يتصل من قريب أو من بعيد بعاطفة جارفة هو جاء تهيمن على أفراد الجمهرة كافة . وبذلك فكل سلوك يصدر عن الجمهرة يصطبغ بشحنة انفعالية قوية تُسفر عن نفسها في ثورة الأفراد واضطرابهم . وقد يكون غير هذا وذاك . وهو متصل في هذا كله بطبيعة الظروف المحيطة بالموقف . وكلنا يذكّر حماس الناس عندما يشاهدون مباريات كرة القدم وصياحهم كلما انتصر فريق على آخر، وتصفيقهم في دوى قاصف . وكلنا يذكّر غضب (المتظاهرين) وسلوكهم العدائي . وخوفهم وارتياحهم حينما يطلق عليهم الجنود النار .

(٤) حِطَّة الذكاء

سلوك الأفراد في الجمهرة يدل على غياب وحِطَّة وإهميار مستويات الذكاء إلى مدارجها الدنيا في الجمهرة قد يُعزى إلى ضرورة هبوط ذكاء الجمهرة كلها إلى مستوى أغبي فرد فيها حتى يفهم عنها سلوكها ويندمج في زمرتها فتتحرك الجموع المتراصة كوحدة . ذلك قول سقيم . فليس على كل فرد في الجمهرة أن يدرك بوضوح سلوكها ، وإنما هو ينساق معها عاطفياً لا عقلياً . ومثله في ذلك مثل الجندي في ساحة القتال يحارب مهاجماً ومدافعاً دون أن يفهم تماماً (التكتيك الحربى) وسياسته العليا .

والقول بأن حِطَّة الذكاء ترجع إلى ما يطرأ على الجمهرة من عود على بدء المستويات الحيوانية الأولى في سلوكها الهمجى، قول حق، لكن تعوزه الصبغة العلمية في إقامة دعواه وتوطيد أداته .

ويميل المؤلف إلى تفسير هذه الظاهرة على أساس النظرية السكلية - عضوية كانت أو بحالية - فالتوتر الشديد يساعد على ثورة الجماهير ويؤدى إلى انفعال حاد وعاطفة جارفة تزيد في قوة الجمهرة الغضبي لتحقق بذلك هدفها . وحدة هذا الانفعال تشل القوى الإدراكية العليا فتنتطلق الجمهرة في ثورة الحمى وصياح الأطفال .

و يؤيد هذا الرأي ما نلاحظه على أنفسنا حينما يشتط بنا الغضب ويعصف بنا الغيظ ،
فتنبو عنا ألفاظ وأفعال هوجاء ، هي أقرب ما تكون إلى سلوك الحمقى .

(٥) أحكام الجماهرة نهائية لارجعة فيها

تصدر الجماهرة حكمها على ما يعترضها في سرعة واندفاع وسلوك كهذا يغلب
عليه الطيش . ومصدر تلك القرارات الهوجاء انعدام روح النقد النزيه بين أفراد
الجماهرة لانحطاط الذكاء ولطفيان العاطفة وسيطرتها على أساليب المتجمهرين ، وعلى
الفرد أن يقبل ما تفعله وتقره الجماهرة لا على أنه إحدى السبل الصحيحة لتحقيق
الهدف بل على أنه السبل الوحيد والطريق السوى ، وآية هذا كله زيادة التكتل .
ذلك بأن النقد الجارح يؤدي إلى الانقسامات الداخلية ومعارضة فريق لفريق آخر .
وهذا يتنافى مع قوة الجماهرة في سيطرتها المطلقة على أفرادها إذ هم ينساقون في مجالسها
وكانهم دمي تحركها يد غير منظورة .

(٦) القابلية للاستهواء

الأفراد في الجماهرة يخضعون للاستهواء في سهولة وبسر ، لضعف روح النقد
ولانحطاط الذكاء ، فكل رغبة طارئة ، وكل فكرة عابرة ، تستهوى الجماهرة طالما
أن تلك الرغبات والأفكار لاتعارض ، وملايسات الموقف العام الذي يشمل المتجمهرين
عامة . وكل من تزعم أو يتزعم أية جماهرة ما ، ويدرك أهمية الاستهواء في التأثير على
الحشد الضخم من الناس ، ويدرك تماماً متى وأين وكيف يوحى إلى أفراد الجماهرة
بالأفكار التي تصلح لإثارتهم واندفاعهم في حماس وقوة .

ومن الأمثلة البارزة للاستهواء ما يحدث في أسواق ريفنا المصري حيث يقف
أحد الباعة يلقي خطاباً مثيراً حماسياً لبيع بعض العقاقير التي يحملها في حقيبته ، فيوحي
إلى الجمع الساذج بسحر عقاقيره ، ويعلم الله أن عقاقيره لافائدة فيها ولا جدوى . لكن
قوله هو الذي سحر وأسلوبه هو الذي قنن ، فاستهوى الجمع وأوحى لهم بما أوحى .

(٧) ضعف الشعور بالمسئولية الفردية

سلوك الجمهرة يتصف بالرعونة والطيش ، وسلوك كل فرد فيها ، يتنافى أحياناً والمعايير الخلقية التي أقامها الفرد لنفسه ، ولو كان الفرد بمعزل عن الجمهرة لراجعته نفسه فيما يفعل . ولأحجم بشدة عما يأتيه وهو منساق مع التيار العام للجمهرة . ومرجع ذلك كله ضعف شعور الفرد بمسئوليته ، فهو عند ما يخرب ويعيث في الأرض فساداً لا يخشى لومة لائم ولا صولة القانون ، فهو فرد في جمع حاشد من الناس ، تخرب كما يخرب وتعبث كما تعبث . فتحديد المسئولية الفردية أمر شاق جد عسير ، فهو عند ما يسأل عما فعل وعما يفعل ، يلقى التبعة على غيره . وهم جمع كثير ، ويظن بذلك أنه ناجٍ من العقاب ، وهذا الظن وحده هو أقوى ما يضعف شعور الفرد بمسئوليته .

(٨) الشعور بالعالمية

التكتل البشرى الذى يبدو فى الجمهرة يكسب كل فرد فيها شعوراً بالقوة فالفرد يسمع الجمع كله يهتف كما يهتف ويصيح كما يصيح . فالتجاوب بينه وبين الأفراد الآخرين تجاوباً تاماً ، وهو عند ما يرى الأفراد المحيطين به فى اندفاعهم يمد البصر إلى ما لا يرى ، فيذهب فى تعميمه مذهباً واحداً ، فىرى الجماعة كلها وكأنها رجع قريب أو صدى عام مشترك لما تفعله فئته القريبة منه ، وآية ذلك كله شعور الفرد بالعالمية كما يسميها ألبورت F.H. Allport وبنشوة من القوة تغمره لإحساسه العميق بما يعنى هذا الحشد الضخم المحيط به من قوة ^(١) .

(٩) الزعامة فى الجمهرة مؤقتة قصيرة الأجل

تنشأ الجمهرة فجأة ، دون زعيم يقودها أو يوجهها . ونشأتها رهينة بموقف مثير يؤلف بين الأفراد فى استجابة مشتركة لمثير واحد . وقد ينهض من بين صفوفها زعيم ينظم قواها ويوجه اتجاهاتها وجهة واحدة . لكن ديدن الجمهرة عدم الاستقرار . فهى رعناء متحولة . وسرعان ما ينهض زعيم آخر ويختلط الأمر بينهما وقد يختلفان فجأة بين الحشد الضخم وبيتلعمهم التيار الجارف وتسمى الجمهرة كما بدأت دون زعيم ما .

(1) Allport, F.H., Social Psychology, 1924, Chapters 11 and 12

الأبحاث التجريبية لسيكولوجية الجمهرة

الدراسة التجريبية للجمهرة تواجه مشاً كل عدة يتلخص أهمها : في عدم القدرة على متابعة رصد سلوك الجمهرة للسرعة الفائقة التي يتطور بها مجرى الحوادث ، ولكثرة عدد المتجهرين كثرة تحول دون بحث سلوك كل فرد فيها ، ولصعوبة التنبؤ بالخطوة التالية لأي سلوك ما للجمهرة كتوطئة لدراسته وبحته .

ولقد تغلب الباحثون على بعض هذه الصعوبات باستخدام الرصد السينمائي لدراسة التغيرات التي تطرأ على سلوك الجمهرة . بيد أن طريقة كذلك لا تصلح لاكتشاف الدوافع التي تنزع بالأفراد إلى التجهر ولا تصلح أيضاً لمعرفة حالة الأفراد العقلية قبيل التجهر .

ولعل أهم الأبحاث التي أجريت في هذا الميدان تجارب ميير N.C. Meier ومنجنا G.H. Mennenga وستولتز H.J. Stoltz وتتلخص إحدى هذه الدراسات في استفتاء طائفة من الناس في مواضيع خاصة ، ثم تهيئة الجو المناسب لتجهر تلك الطائفة ، ثم دراسة استجاباتهم المختلفة وهم متجهرون^(١) .

ويهدف الاستفتاء إلى معرفة اختيار كل فرد لإحدى الحالات التالية : —

- ١ — إذا تجهر الناس ، أسارع بالانضمام إليهم .
- ٢ — إذا تجهر الناس ، أنضم إليهم لا عن رغبة صادقة في التجهر ذاته ، بل لمساعدتهم .
- ٣ — إذا تجهر الناس ، لا أشارك معهم قط .
- ٤ — إذا تجهر الناس ، أحاول إقناعهم بالحسنى حتى لا يأتون بمنكر .

(1) Meier, N.C., Mennenga, G.H., and Stoltz, H.J., An Experimental Approach to the Study of Mob Behavior, J. Ab. Soc. Psych. 1941, p.p. 506—524.

وبلى هذا الاستفتاء ، استفتاء آخر لتحليل دوافع اختيار كل حالة من الحالات الأربع التى اشتمل عليها الاستفتاء السابق فتحليل الحالة الأولى يتلخص فى الإجابة بالإيجاب أو بالنفى على الأسئلة التالية : —

(١) أسارع بالانضمام ، لأن القانون لا ينال المتجهرين بسوء

(نعم — لا)

(٢) أسارع بالانضمام ، لأن ذلك التجاهر يضع الحق فى نصابه

(نعم — لا)

(٣) أسارع بالانضمام ، لأن ذلك التجاهر يضع الحق فى نصابه

(نعم — لا)

وتحليل الحالة الثالثة لنفس الاستفتاء الأول يتلخص فى الإجابة بالإيجاب أو بالنفى على الأسئلة التالية :

(١) لا أشارك مع المتجهرين لأن التجاهر خيانة للمجتمع القائم

(نعم — لا)

(٢) لا أشارك مع المتجهرين لأنى لا أميل إلى العنف والاعتصاب

(نعم — لا)

(٣) لا أشارك مع المتجهرين تجنباً للوقوع تحت طائلة القانون مذنباً أو شاهداً

(نعم — لا)

وبلى التحليل السابق ، تهيئة الجو المناسب للتجهر وذلك باستثارة الأفراد استثارة عاطفية حادة ، وتوجيههم نحو هدف واحد يؤلف بينهم جميعاً كالثورة ضد مجرم أو خائن والأخذ بناصيته وتلاييه .

ولقد أسفرت التجربة التي قام بها مبير وزملاؤه على ١٢٤ من طلبة إحدى الكليات ، يبلغ متوسط أعمارهم ٣٩ و ٢٠ سنة ويتراوح سنهم ما بين ١٧ ، ٢٨ سنة يتألفون من ٧٩ طالباً ، ٤٥ طالبة — عن النتائج التالية :

(١) تتلخص الاستجابات الفردية عن الاستفتاء الأول في الجدول التالي :

نوع الاستجابة	عدد الأفراد	درجة الاستجابة بالنسبة لهدف التجمهر		
		غير متأكد	متأكد نوعاً ما	متأكد تماماً
الإسراع بالانضمام	١٩	٢	٣	١٤
مجرد الانضمام للمساعدة	١٩	٨	٤	٧
الامتناع عن الاشتراك	٤١	١٤	١٦	١١
محاولة منع التجمهر بالامتناع	٤٥	٢٠	١٦	٩
المجموع	١٢٤	٤٤	٣٩	٤١

(٢) وتتلخص الفروق الجنسية في الجدول التالي :

نوع الجنس	عدد الأفراد	نوع الاستجابة			
		انضمام	مساعدة	امتناع	منع
طلبة	٧٩	١٤	١١	١٨	٣٦
طالبات	٤٥	٥	٨	٢٣	٩

(٣) وكانت أعلى نسبة للذين اشتركوا في التجمهر هي نسبة الطلبة الجدد بالكلية ، تليها نسبة الطلبة عامة ، تليها نسبة الطالبات .

(٤) الاستهواء — ولقد دلت تقارير الطلبة عن مدى تأثرهم بالجاعة ، على أن ٨٥ ٪ منهم تأثروا بشدة لُهاث زملائهم و ٦ ٪ بالخوف و ٣ ٪ بالغضب ، أما ٦ ٪ الباقية فلم تستطع تحديد نوع تأثرها .

(٥) الإسقاط الاجتماعي — وبلغت نسبة الذين يعتقدون أن كل فرد

في الجماهرة يشعر بنفس شعورهم ٨٤٪ ، وذلك ما نسميه بالإسقاط الاجتماعي Social Projection أى إسقاط شعورهم وإحساساتهم في الجماعة كلها وكأنها صدى لهم أو هم رجع لها . ولقد بلغت نسبة الذين يقررون أن شعورهم يشابه شعور الجماعة ٧٠٪ ونسبة الذين يميلون إلى الاعتقاد بأن بعض أفراد الجماعة يشعرون شعورهم ٣٠٪ (١) .

(٦) سلوك الأفراد المتجمهرين — تفاعل مع الموقف واستجابة مباشرة له .

(٧) يتأثر الأفراد وهم في الجماهرة بسابق اتجاهاتهم وعاداتهم ونماذج سلوكهم الذاتية .

٢ — الجماعة المستمعة

تمهيد وتعريف

المستمعون زمرة من الناس تجمعت للاستماع أو للرؤية أو لهما معاً . وتسميتنا لتلك الزمرة بالمستمعين . تنطوى على تجاوز للمعنى اللغوي الدقيق الذى نقصده . ولعل شفيقنا في ذلك أن الأسس النفسية لتكوين وتنظيم تلك الزمرة بنوعها واحدة . وتلك الجماعة أكثر تنظيماً وأرقى شكلاً وموضوعاً وهدفاً من الجماهرة . وهى تتفق والجماهرة في خضوعها لمظاهر التأثير الجماعى . وقد تتحول الجماعة المستمعة إلى جماعة متجمهرة إذا واثبها العوامل الخاصة بهذا التحور . وهى لذلك محط أنظار الزعماء، الطامحين في إثارتهم للجموع الحاشدة إثر خطاب حماسى يلقونه على مستمعيهم .

ونهيمن على الجماعة المستمعة صفات ثقافية متشابهة ، فالمستمعون في الجامعة لمحاضرة تلقى عليهم ، والمستمعون في السراشق خطاب سياسى ، والمستمعون في الفصل لدرس ما ، والمستمعون في المساجد للوعظ . كل أولئك يشتركون في صفات عامة تجمع بينهم كمستمعين لمحاضرة أو لخطاب أو لدرس أو لوعظ .

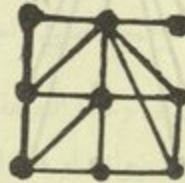
(١) يؤدى الإسقاط الاجتماعى إلى الشعور بالعالمية .

عملية الاستقطاب

نعني بالاستقطاب اتجاه انتباه الجماعة المستمعة نحو هدف واحد مشترك . وهذا الهدف إما أن يكون المحاضر ، أو المدرس ، أو الخطيب أو الواعظ أو الممثل أو غير ذلك من الاحتمالات الممكنة ، وتمر هذه العملية بمراحل ثلاث :

(١) مرحلة التمهيد للاستقطاب :

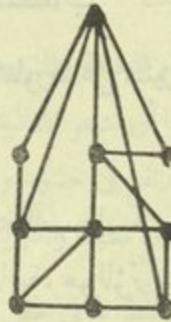
وتبدو في وفود المستمعين واحداً إثر آخر ، داخل قاعة المحاضرات واختيارهم لأماكنهم ، ثم حديثهم مع بعضهم بعضاً ، وتأملهم لمبنى القاعة ، واتجاه أنظارهم أحياناً لمقعد المحاضر الشاغر . فهي إذن مرحلة تنسم بتشتت الانتباه . ويمكن تمثيلها توضيحياً في شكل (١٣) بنقط تدل على الأشخاص . وخطوط تدل على تفاعلهم الاجتماعي وانتباههم الموزع .



(شكل ١٣) التمهيد للاستقطاب

(٢) مرحلة الاستقطاب الجزئي :

وتبدو في توزيع انتباه الجماعة المستمعة مناصفة . أو ما يقرب من المناصفة بين



(شكل ١٤) الاستقطاب الجزئي

المحاضر وبين ما هم كانوا فيه من قبل. وتُسفر هذه الظاهرة عن أمور عدة. أهمها ملل المستمعين . وعجز المحاضر عن تركيز انتباههم نحوه ، ووجود بعض عناصر مشاغبة بين المستمعين . ويمكن تمثيل هذه المرحلة توضيحياً في شكل (١٤) .

(٣) مرحلة الاستقطاب الكلى

وتبدو في انتباه المستمعين انتباهها كلياً للمحاضر ، لاستماعتهم العميق بما يقول ، وتأثرهم البالغ بما يعنى . وبذلك تبلغ عملية الاستقطاب ذروتها . وتلك الظاهرة لا تستمر طويلاً ، بل تفسح الميدان للاستقطاب الجزئى ، وتلك بدورها تفسح لها الميدان .



(شكل ١٥) الاستقطاب الكلى

هكذا تتوالى الظاهرتان واحدة إثر أخرى . مع تباين متصل في المدى الزمنى لكل منهما . ويمكن تمثيل مرحلة الاستقطاب الكلى توضيحياً في شكل (١٥)

الشروط اللازمة للاستقطاب

تعتمد عملية الاستقطاب في تطورها على متغيرات عدة أهمها :-

(١) المتحدث أو المحاضر

يتوقف نجاح عملية الاستقطاب على المتحدث نفسه ، فهو العامل النشط في ذلك النوع من العلاقات الاجتماعية، هو المؤثر والجاعة خاضعة لتأثيراته . هو مؤثر في عرضه لأفكاره ، وفي تصويره وتمثيله القصصى لحديثه ، وفي قوة حجته ، ووضوح

برهانه . موقفه إيجابي فعال . وموقف الجاعة منه موقفاً سلبياً . وتظل تلك العلاقة قائمة حتى تنشط الجاعة المستمعة فتضحك ، أو تبكي ، أو تصفق ، أو تصيح ، فتعكس العلاقة الاجتماعية ، ويصمت المتحدث إلى حين ، ثم يعاود إقامة الحدود النفسية السابقة ، ويعاود تنظيم المجال الاجتماعي من جديد . ويحيد بعض الخطباء معرفة التوقيت الزمني لصمتهم ، ومعرفة الوقت المناسب لإيحاءهم للأفراد بالتصفيق . هذا وقد تصفق الجاعة فجأة لتأثرها البالغ بما تسمع .

(٢) التجانس العقلي الثقافي

الجاعة المتجانسة عقلياً وثقافياً ، هي الجاعة التي يكتمل استقطابها في سرعة وقوة . فالجاعة المؤلفة من أفراد حزب سياسي واحد ، أسرع إلى الاستقطاب في استماعها لخطيب ما من جماعة تتكون من أحزاب عدة يعارض بعضها بعضاً . وطلبة الفرقة الدراسية الواحدة أكثر تجانساً من طلبة فرق عدة مجتمعة . وتلك بدورها أكثر تجانساً من طلبة مدارس عدة يجمعها صعيد واحد في استماعها لخطيب ما .

فالتجانس العقلي الثقافي يؤدي إلى وحدة الجاعة ، وتلك الوحدة تؤدي بدورها إلى استقطاب الانتباه في بؤرة واحدة . وانعدام هذا التجانس ينشئ فراغاً نفسياً بين الأفراد . وهذا الفراغ يعمل على توزيع الانتباه ، ويعمل أيضاً على تفرقة الأفراد تفرقة سيكولوجية . فالجاعة المستمعة ليست هي الزمرة من الناس يجمعهم صعيد واحد في استماعهم لخطيب ما ، بل هي تفاعل واستجابة نفسية بين الجاعة والخطيب .

(٣) الخبرة السابقة والتدريب

الجاعة المستمعة في ظهر يوم الجمعة بالمسجد تنصت إلى الخطيب في انتباه وتستجيب لأوامره حينما يصيح بها أن تدعو الله ليغفر لها ذنوبها ، فإذا الشفاة تتحرك في همس خافت وإذا الأكف ترتفع في خشوع وضراعة . وهذا الإنصات وتلك الحركات تعتمد في جوهرها على خبرة سابقة وتدريب ومران .

والجاعة المستمعة للمطرب أو المطربة في حفل غنائى عام ، تعلم متى تصفق ومتى

تهتف في حماس ومتى تنصت في سكون . فالاستقطاب هنا يعتمد في جوهره على
الخبرة الفردية السابقة بتلك الأمور .

(٤) التمهيد الصحيح للحديث المقبل

نعني بالتمهيد الصحيح إثارة انتباه الجماعة المستمعة بشتى الطرق قبيل اجتماعها .
وتهدف تلك الإثارة لتهيئة الأذهان لنوع الحديث المقبل . فالجماعة المقبلة للاستماع
إلى حديث علمي خاص تنفر حينما تجد تغييراً مفاجئاً يستبدل فيه بالحديث العلمي
حديث سياسى ، فهى أقبلت بحالة عقلية خاصة . ووطأت النفس على الاستماع إلى
ضرب خاص من ضروب الأحاديث . واستقطاب مثل تلك الجماعة أمر شاق عسير
يتطلب من المتحدث مقدرة كبيرة وجهداً بالغاً .

(٥) توافق مقومات الموقف العام

تتأثر الجماعة المستمعة في استقطابها بعوامل ثانوية تعتمد في جوهرها على قاعة
الاجتماع ذاتها ، وعلى مميزاتها الضوئية والصوتية . ولحجم القاعة أثر سيكولوجى
في نفوس الأفراد . فالحفنة القليلة من الناس في البهو الواسع العريض تحس بالوحدة .
والحشد الضخم في القاعة التى تضيق بالأفراد يحس إحساساً خفياً بأهمية موضوع المحاضرة .
ولطبيعة الجو العام المحيط بقاعة الاجتماعات أثره في نفوس المستمعين . فالحديث
الدينى في مرقص شعبي لا يهيىء الجو المناسب لتقبله ، ومحاضرة عن الفلسفة في مزاد
على مقضى عليها بالفشل . ولهذا كان لجو المساجد والكنائس الدينى أثر كبير
في خشوع الناس وإنصاتهم لإمامهم . ولهذا أيضاً تلجأ صناعة القصص السينمائي
إلى ألوان مختلفة من الموسيقى لتهيئة الأذهان لجو القصة .

فتوافق وحدات الموقف في كل عام يهيمن على المتحدث والمستمعين معاً يضيف
على الحديث نفسه صفات يشتقها من الكل الذى يحتويه ويساعد عملية الاستقطاب
على اكتمال نموها .

أثر مدى الانتباه في الاستقطاب

كلما احتفظت الجماعة المستمعة بتركيز انتباهها في المحاضر أو المحاضرة مدة أطول كلما كان الاستقطاب أقوى وأشد . ويتأثر مدى الانتباه بدرجة تجنبان المجموعة ، وبطريقة المتحدث في الإلقاء ، وبمادة الحديث نفسه . فالجماعة غير المتجانسة لا تقوى على الاحتفاظ بالاستقطاب مدة طويلة . وقد تساعد الجمل القصيرة على تركيز انتباهها لأن قصرها يمتشى وضيق مدى الانتباه . والخطيب الذي يلجأ إلى الجمل الطويلة قمين بأن يفشل .

والمحاضر الذي يقرأ محاضراته على الطلبة من مذكرات يحتفظ بها معه . أضعف تأثيراً في المستمعين من محاضر لا يعتمد في إلقاء محاضراته إلا على العناصر الأساسية التي يدونها في بطاقة صغيرة ويستطرد هو في بناء محاضراته مستجيباً للتغيرات التي تطرأ على الموقف العام .

ولقد دلت تجربة هنري مور Henry T. Moore على أن الطريقة الثانية تفوق الطريقة الأولى بكثير . وتتلخص تجربته في قراءة إحدى الموضوعات على مجموعة من الطلبة ، ومحاضرة مجموعة أخرى من الطلبة في نفس الموضوع . ثم قياس مدى فهم المجموعتين كل محاضراته . ولقد دلت نتائج هذه التجربة على أن المجموعة الثانية فاقت المجموعة الأولى بحوالى ٣٦٪ في احتفاظها بمادة المحاضرة وبموضوعها .

أنماط الجماعات المستمعة

تنقسم الجماعات المستمعة إلى أنماط خمس تعتمد في جوهرها على طبيعة العلاقة الاجتماعية القائمة بين المتحدث والجماعة المستمعة له . ولقد أدت دراسات هولينجورث Hollingworth إلى تقسيم التأثيرات السيكولوجية المختلفة التي يتركها الخطيب في نفوس سامعيه إلى (١) : —

(1) Catch, Hold, Impress, Convince, and Direct the Prospect.

(١) إثارة الانتباه بشتى الطرق حول الخطيب .

(٢) زيادة اهتمام وشوق الجماعة للاستماع .

(٣) انطباع أثر الحديث فى نفوس السامعين وتأثيرهم به .

(٤) اقتناع المستمعين بأقوال المتحدث .

(٥) توجيه الجماعة وإرشادها لنزوع خاص يؤدى إلى القيام بعمل ما . ولهذا التحليل علاقة وثيقة بسيكولوجية الإعلان ، وآية ذلك أن المعلن يلجأ لنفس الخطوات السابقة فى التأثير على الناس .

ولمتحدث أن يسلك بالجماعة المستمعة تلك الضروب الخمسة مبتدئاً بالأولى ومنتهاً بالخامسة . وله أن يبدأ بإحداها لينتهى عند التى تليها ، أو عند أية مرحلة من المراحل السابقة . ويعتمد اختياره لتلك المراحل على طبيعة الحديث وهدفه وعلى الجماعة المستمعة وعلى الموقف العام .

فالمستمعون لخطيب يقف على قارعة الطريق إنما يجتمعون حوله لأنه أثار انتباههم . وقد يتركونه بعد حين . وهم يقدون إلى اجتماعهم من كل صوب وحذب ، مختلفى المشارب والأهواء متعددى الاتجاهات والأهداف . وقد ينتهى اجتماعهم عند تلك المرحلة الأولى ، وقد يسلك بهم الخطيب مسلكاً خاصاً فى حديثه إليهم حتى ينتهى بهم إلى المرحلة الأخيرة . كمثلاً الحملات الانتخابية التى يقوم بها رجال السياسة لاكتساب أصوات ناخبينهم . فهدف الخطيب هنا توجيه الجماعة المستمعة لانتخابه . وهذا نزوع يؤدى إلى القيام بعمل ما .

والطلبة فى فصولهم الدراسية يمثلون جماعة درس ومناقشة . فهم باجتماعهم هذا فى قاعة واحدة ، ليسوا إذن بحاجة إلى من يثير انتباههم للتجمع . إذ هم فعلاً مجتمعون . وبذلك يبدأ المتحدث إليهم من المرحلة الثانية فيثير اهتمامهم وشوقهم للاستماع وهو يمضى معهم فى سرد حديثه إليهم ، ويمضى بهم حتى ينتهى إلى المرحلة الخامسة .

واجتماعات ممثلى النقابات للمطالبة بحق أو لإعلان رأى خاص تمثل جماعة

مستمعة مُختارة ، فهي إذن ليست بحاجة إلى من يشير انتباهها لتجمعها ، وليست بحاجة إلى من يشير انتباهها للانصات فأهمية الموضوع الذي من أجله يجتمعون ، واتصاله الوثيق بحياتهم ، تقوم عندهم بأداء المرحلة الأولى والثانية ، وعلى المتحدث إليهم أن يبدأ معهم مباشرة من المرحلة الثالثة ليتنهي إلى الخامسة .

والعلماء في اجتماعهم لبحث موضوع ما ، ينصتون إلى من يتحدث منهم إنصات الباحث الناقد ، وهو يعني إقناعهم بالخطة التي يجب أن يسير بها نظام البحث مثلا ، وهم يبعثون مناقشته ونقده لتستبين المسالك والطرق ولينتهوا إلى رأى يبدأون معه عملهم . وتلك جماعة مُدبرة متفقة تبدأ من المرحلة الرابعة لتنتهي إلى الخامسة .

والجنود في إصغائهم لقائدهم وتنفيذهم لأوامره ، إنما يمثلون بذلك جماعة نظامية تبدأ بالمرحلة الخامسة . وتنزع توجهاً إلى سلوك خاص .

وبذلك تلخص أنماط الجماعات المستمعة في الجدول التالي ⁽¹⁾ :-

الأنماط	الأثر				
	انتباه	اهتمام	انطباع	اقتناع	تروع
جماعة المارة	×	×	×	×	×
جماعة المناقشة		×	×	×	×
الجماعة المختارة			×	×	×
جماعة مُدبرة				×	×
جماعة نظامية					×

(1) Pedestrian, Discussion, Selected, Concerted, Organized.

المراجع

- ٢ - الدكتور عبد العزيز القوصي : علم النفس سنة ١٩٥٢ ، الباب الخامس
2. Allport, F. H., Institutional Behavior, 1933.
3. Allport, F. H., The J Curve Hypothesis, Journal of Social Psychology, 1934.
4. Burgess, E. W., Personality and the Social Group, 1929.
5. Chapin, F. S. , Contemporary American Institution, 1935, Chapter 20.
6. Groves, E. R., The Family and Its Social Functions, 1940, Chapter 1.
7. Gurnee, H., Elements of Social Psychology, 1936 , P. 316.
8. Hollingworth, H. L., The Psychology of the Audience, 1935, Chapters 2 and 3.
9. Jennings, H. S., The Biological Basis of Human Nature, p 254.
10. Katz, D., The Concept and Methods of Social Psychology, in Guilford, J. P., Fields of Psychology, 1950, Chapter 6.
11. Krech, D., and Crutchfield, R., Theory and Problems of Social Psychology, 1948, p. 54.
12. Krout, M. H., Introduction to Social Psychology, 1942. p. 224.
13. Moore, H. T., The Attention Value of Lecturing without Notes J. of Educational Psychology, 1919, 11 p.p. 467-469.
14. Park, R. E., and Burgess, E. W., Introduction to the Science of Sociology, 1921, Chapters 2 and 3.
15. Peak. H., Observations on the Characteristics and Distribution of German Nazis, Psychological Monograph, 1945, 59, No. 276.
16. Scott, W. D., The Psychology of Public Speaking, 1907.
17. Sherif, M., Outlines of Social Psychology, 1948.
18. Sidis, B , The Psychology of Suggestion, 1898, p.p. 310-312.
19. Young, K., Source Book for Social Psychology, 1927, Chapter 4, p.p. 20-24.
20. Young, K., Handbook of Social Psychology, 1948, p. 329.
21. Woolbert, C. H., The Audience, Psychological Monograph, 1916, Vol 21, No. 92, p.p. 37-54.

الباب الثالث

تفسير وقياس العلاقات الاجتماعية

الفصل السابع : العقل الجماعي

الفصل الثامن : النظرية الكلية الحيوية

الفصل التاسع : نظرية المجال وديناميكية الجماعات

الفصل العاشر : التخطيط الاجتماعي

البُصْبُ السَّابِغ

العقل الجماعي

مقدمة

يحاول كل باحث أن يصف الظاهرة التي يدرسها من زاوية خاصة تتفق والنظرية العلمية التي تهيم على تفكيره . ولهذا اختلفت وتعددت التجارب التي تهدف إلى دراسة ظاهرة ما . وسواء أكانت هذه التجارب وما تؤتيه من نتائج ، مجتمعة أم منفردة ، فإنها لاتعتمد أن تخلو من بعض أطراف الحقيقة التي تبغى معرفتها . ومثلها في ذلك كمثّل جماعة من العميان مروا في طريقهم بفيل ضخم فلمس كل واحد منهم جزءاً منه ، وظن أن الفيل كله يتلخص في ذلك الجزء الصغير الذي لمسه هو وأدركه . وهكذا نرى أن لكل منهم نواحي صحيحة ونواحي خاطئة . أما الصحة فتكمن في الوصف الدقيق للجزء الذي لمسه كل فرد ؛ وأما الخطأ فيبدو في التعميم الذي ينحون نحو رسم صورة خيالية للكل مستعيناً على ذلك بصورة محدودة لأحد أجزائه .

والتعميم الصحيح يحتاج إلى عبقرية فذة تضم أشتات هذه النتائج وتؤلف منها نموذجاً علمياً عاماً يصلح للدراسة والتنبؤ بالظواهر العلمية الجديدة . ومهما يكن من أمر هذا التعميم فإنه يقترب من الحقيقة لكنه لا يصل إليها . ومثل إدراكنا الناقص للحقيقة كمثّل إدراكنا لحزمة الأشعة المنبعثة من كوة قاعة الخيالة (السينما) في انسيابها وتجمعها وتفرقها وعلوها وانخفاضها ، لترسم على الشاشة المقابلة لها قصة قطاع ما في شبكة حياة بعض الأفراد . فالأشعة وحدها هي كل ما نصل إليه بأبحاثنا ونظرياتنا ؛ أما حقيقة القصة فهي تيه نتعسف فيه ولا نراه .

هذا وسنحاول في هذا الباب أن ندرس وننقد النظريات المختلفة التي تعتمد من قريب أو بعيد على فكرة العقل الجماعي في تفسيرها للسلوك والعلاقات الاجتماعية . وسنتناول فيما سنتناول نظريات جوستاف ليبون ، ومكدوجل ، وفرويد ، ومارتن ، وألبورت ، لنرى تطور فكرة العقل الجماعي عند جميع هؤلاء العلماء ؛ ثم نخلص من ذلك إلى تحليل علمي للنظريات الحديثة عن ديناميكية الجماعات كما تبدو في النظرية الكلية الحيوية ، وفي نظرية المجال ونخلص من ذلك كله إلى دراسة أبحاث مورينو في قياس العلاقات الديناميكية الاجتماعية .

الجماعة أم الفرد

وقديما انقسم الباحثون في علم النفس إلى فريقين : فريق بحث مظاهر السلوك من زاوية الوراثة والقطرة والتكوين البيولوجي ؛ وفريق آخر بحث مظاهر السلوك من زاوية البيئة وأثرها في الكائن الحي . وحديثاً حاول الباحثون مزج هذين الاتجاهين مزجاً صحيحاً . وهكذا أصبحت نظرتنا العلمية للسلوك نظرة ثنائية مزدوجة تشمل الوراثة كما تشمل البيئة .

هذا ولقد انعكس أثر هذا الازدواج في ثنائية أخرى تتأرجح بين وحدتين من وحدات التحليل العلمي : الجماعة والفرد . فالذين يتخذون الجماعة أساساً للدراسة العلمية يميلون إلى التشيع للمدركات الجماعية مثل العقل الجماعي ، وشخصية الجماعة . والذين يتخذون الفرد وحده أساساً للدراسة العلمية يميلون إلى إنكار العقل الجماعي وإنكار شخصية الجماعة .

لكن ماهي الجماعة ؟ وبأيهما نبدأ في التحليل النفسي الاجتماعي ؟ وأيها يصلح أن يتخذ إطاراً لبحث الآخر ؟

ويتطرق بنا التحليل إلى الاعتراف بوجود الجماعة كمدرَك من مدرَكات علم

النفس الاجتماعى أو إلى إنكار وجودها إنكاراً تاماً . فهل للجماعة وجود علمى ؟ الحق أن الاعتراف بوجود شيء ما ينطوى على الاعتراف بوجود المقاييس العلمية التى تُقَرُّ له هذا الوجود . فالقلم الذى أكتب به الآن يشق وجوده من لون خاص يوصف بالسواد ، وطول خاص يقاس بالسنتيمترات ، ووزن خاص يقاس بالجرامات ؛ ووظيفة خاصة تقاس بالعمل الذى يؤديه . فهل للجماعة وجود كهذا الوجود ؟ لاشك أن وجوداً كهذا إن هو فى جوهره إلا وجودٌ نسبى . وهو نسبى لأنه مُدرك يعتمد فى تكوينه على مدركات يتخذها هو إطاراً له ، وتلك بدورها تشتق كيانها من مدركات أخرى ، وهكذا . فالجماعة إذن بهذا المعنى فرضٌ علمى ومُدرك نفسى اجتماعى يعتمد فى جوهره على مميزاته المنطقية . وكل ما يهمننا من أمر هذا المدرك ، أهميته فى فهم السلوك الاجتماعى . أى أن كل ما يهمننا من أمره هو أنه يصلح لأن يكون نموذجاً يوضح نتائج تجاربنا على الظاهرة التى نبحصها ، ويوحى بتجارب جديدة تؤدى إلى فهم أعمق وأقوى .

وهكذا نستطرد فى تحليلنا لنقرر للفرد وجوداً علمياً كوجود الجماعة . لكن الجماعة كجماعة لا تكفى وحدها أساساً للتحليل . والفرد كفرد لا يصلح كذلك وحده أساساً للتحليل . والازدواج هنا ضرورة لاغنى عنه يوجب التحليل العلمى العميق للسلوك الاجتماعى . فالجماعة تتأثر بالفرد ، والفرد يتأثر بالجماعة . ويبدو هذا التأثير فى التفاعل الديناميكى الذى يهيم من قريب ومن بعيد على ذلك السلوك .

ومثلنا فى تحليلنا الازدواجى كمثل الطبيعى فى تحليله ودراسته لصفات الغازات . وتتلخص طريقة الطبيعى فى دراسة الغازات ككل له صفاته العامة ثم فى الرجوع أخيراً إلى جزئيات تلك الغازات لتفسير الظاهرة التى يحاول دراستها تفصيلاً علمياً صحيحاً . فإذا كان هدف الطبيعى هو دراسة العلاقات القائمة بين حجم الغاز وضغطه ودرجة حرارته ، فإنه يمضى أولاً فى بحثه غير عابىء بصفات الجزئيات فيثبت الحرارة مثلاً ، ويغير الحجم وقيس أثر ذلك على الضغط ، وهكذا يستمر فى تحليله حتى يكتشف القانون العام الذى يربط هذه المتغيرات الثلاث بعضها ببعض . لكن صحة

اكتشافه هذا لا تنطبق إلا على الكليات التي كان يدرسها ، أى أنها صحيحة فقط بالنسبة للوحدات التي كان يحللها . وله أن يقرر بعد ذلك أن حجم أى غاز يتناسب تناسباً عكسياً مع ضغطه فى درجة حرارة واحدة ثابتة . لكنه إذا أراد أن ينفذ إلى الأعماق فعليه أن يدرس صفات الجزىء داخل الإطار الجعى للغاز ، وأثر تلك الصفات فى الكل العام الذى يشملها وأثر صفات ذلك الكل فيها . أى عليه أن يبحث العلاقات القائمة بحثاً عميقاً شاملاً . وتلك ازدواجية تشمل الغاز والجزىء ، أى الكل والجزء ، أى الجماعة والفرد .

ولهذا لا يوافق المؤلف على رأى الذى نادى به أخيراً كرتش D.Krech وكرتشفيلد R. C. Crutchfield فى كتابهما المشهور « نظرية ومشاكل علم النفس الاجتماعى » . حيث أعلنوا أنه « ما من ظاهرة من ظواهر علم النفس الاجتماعى لا يمكن تفسيرها تفسيراً منطقياً فى مستوى سيكولوجية الفرد »^(١) .

وإنما يميل المؤلف إلى اعتبار سيكولوجية الفرد صحيحة فى إطارها الفردى ، وإلى اعتبار سيكولوجية الجماعة صحيحة فى إطارها الجعائى . أى أن صحة كل سيكولوجية صحة نسبية تعتمد فى جوهرها على الإطار الذى يحتويها ، وأن بين الإطارين علاقات قائمة تجمع بينهما فى إطار أعم وأعمق ، هو إطار علم النفس بجميع أبحاثه ودراساته . وعلى الباحثين أن يوجهوا نشاطهم لاكتشاف تلك العلاقات إذ هى فى جوهرها الأصول والأسس التى تقوم عليها أبحاثنا النفسية الاجتماعية .

العقل الجعائى

اشتد الجدل حول فكرة العقل الجعائى . فمن قائل إن سلوك الجماعات يرجع فى جوهره إلى عقل جعائى يتألف من مجموعة منتظمة متسقة من القوى المختلفة التى تهدف إلى غرض خاص . ومن قائل إن سلوك الجماعات يرجع إلى ديناميكية خاصة

1) Krech, D., and Crutchfield, R. S., Theory and Problems of Social Psychology, 1948, P. 366.

تنشأ من تفاعل الأفراد تفاعلاً يعتمد في جوهره على العلاقات الاجتماعية المختلفة التي تلبس الموقف الذي يحيط بالأفراد. ومن قائل إن المشكلة لغو لا معنى له؛ وهو بإنكاره هذا لا يفسرها أو يوضحها وإنما هو يعرض عنها ويباعد بينها وبينه.

هذا ولقد مهدنا لمناقشة هذه الفكرة بعرض سريع لها في الفصل الأول من هذا الكتاب.

وترجع نشأة فكرة العقل الجماعي إلى العلماء الفرنسيين، فأمن بها جوستاف ليبون، ودوركايم، ولني برهل^(١). ولقد تغالى الفلاسفة الفرنسيون في تعميمها. ففرقوا بين الشعوب على أساس العقل، ومضوا في غلوهم، ففرقوا بها بين الأجناس البشرية واتخذوها أساساً لتعصبهم «ومن الغريب أن الفرنسيين — خصوم العنصرية السياسية — هم الذين أثلروها خرباً شعواء في القرن الماضي، وبذروا بذور عنصرية علمية وفلسفية امتدت بعض آثارها إلى القرن الحاضر. فقد صرح رينان أنه أول من قرر أن الجنس السامي دون الجنس الآري.... وما العقل السامي، والعقل الآري، اللذان قال بهما ليون جوتييه في أوائل هذا القرن إلا امتداد لهذه الدعوى، وعنده أن العقل السامي لا طاقة له على إدراك الجزئيات والمفردات منفصلاً بعضها عن بعض أو مجتمعة في غير ما تناسب ولا انسجام ولا تناسق ولا ارتباط، فهو عقل مباحدة وتفريق... لا جمع وتأليف. أما العقل الآري فعلى العكس يؤلف بين الأشياء بوسائط تدرجية لا تتخطى واحداً منها إلى غيره إلا على سلم متداني الدرج لا يكاد يحسر التنقل فيه، فهو عقل جمع ومزج....»

«... غير أنه لحسن الحظ قد انقضى الزمن الذي كان يُتَبَاهى فيه بأن في الإمكان أن تستخلص صفات أي شعب العقلية ومميزاته الفكرية من بيئته الجغرافية، أو من الجنس الذي ينتمي إليه؛ وبدا علم النفس الجمعي أدق وأعمد مما يظن.

1. a) Le Bon, G. Psychologie de Foules, Trans. as The Crowds 1917
- b) Durkheim, E., The Elementary Forms of Religious Life, 1915
- c) Lévy-Bruhl, L; Mentalité Primitive, Trans. as Primitive Mentality, 1923.

وما كان أيسر أن تُرسل دعاوى عامة كالتى قدمناها على علاتها ، وأن تطلق إطلاقاً دون سند واضح ولا دعامة قوية ؛ ولكن المنهج الصحيح أضحى يمتق أمثال هذه الدعاوى وينكرها « (١) .

ومشكلة العقل الجماعى إحدى صور التنازع القائم بين علماء الاجتماع وعلماء النفس ، حول تبعية علم النفس الاجتماعى وذلك حينما كان يجاهد هذا العلم لإثبات وجوده فى مُستهل نهضته . وكان الاجتماعيون يؤكدون ميدانهم على حساب الميدان النفسى ، وكان علماء النفس يؤكدون العكس . فإذا سلمنا جدلاً بوجهة نظر علماء الاجتماع فإننا نكون قد سلمنا ضمناً بأن الجماعة هى وحدة التحليل العلمى . وإذا سلمنا جدلاً بوجهة نظر علماء النفس فإننا نكون قد سلمنا ضمناً بأن الفرد هو وحدة التحليل العلمى . والانجاء الحديث لا ينقاد اقتياداً مباشراً وراء إحدى هذين الاتجاهين ، لكنه يدرس تفاعل الفرد مع الأفراد الآخرين . أى أنه لا يتخذ الفرد وحدته بمعزل عن الجماعة ، ولا يتخذ الجماعة وحدته بمعزل عن الفرد ، لكنه يبحث العلاقات الديناميكية والحيوط غير المنظورة التى يتألف منها نسيج الحياة (٢) .

ولا شك أن الفرد يحيا حياة اجتماعية تتأثر إلى حد كبير بالأفراد الآخرين ، وتتأثر أيضاً بالثقافة القائمة .

ولا شك أيضاً أن للفرد ذاتيته البيولوجية التى تجعله ينتمى إلى نوع خاص من أنواع المملكة الحيوانية .

ولا شك أن لمرونة الجهاز العصبى عند الفرد حدوداً خاصة تحد من تأثيره المطلق بالجماعة التى ينتمى إليها . فإذا ركه رهن بمدى حواسه ، وعقله رهن بنسبة ذكائه ، وسلوكه الحركى رهن بقوة احتماله للتعب .

(١) الدكتور إبراهيم مذكور ، فى الفلسفة الاسلامية — منهج وتطبيقه ، ١٩٤٧

س ١٠ — ١٢ .

(٢) أفضل الفصل الخامس « أنواع العلاقات الاجتماعية » .

لكن لاشك بعد كل ذلك من استحالة عزل الفرد عزلاً تاماً عن أثر الجماعة كما أسلفنا ، ومن استحالة عزل الجماعة عزلاً تاماً عن أثر الفرد . فكلها مؤثر ومتأثر بالآخر .

١ — نظرية جوستاف ليبون

حاول جوستاف ليبون أن يفسر أثر الجماعة في سلوك الفرد فاتجه بميدان بحثه نحو دراسة سيكولوجية الجماهير ، وانتهى بتحليله إلى أن الجماعة تهبط دائماً بمستوى الفرد . ولقد كان ليبون مخطئاً في بحثه هذا لأنه أقام نتيجته على تعميم خاطئ ، وذلك لأنه اهتم فقط بدراسة نوع خاص من أنواع الجماعات البشرية .

ومما لا مراء فيه أن الجماهير تحط من تفكير أفرادها .

ومما لا مراء فيه أيضاً أن بعض الأنواع الأخرى من الجماعات ترتفع بالفرد وتدفعه دفعا قويا نحو مستويات عليا من التفكير والعمل والخلق .

ولقد أرجع ليبون أثر الجماهير في جنوح الأفراد إلى عوامل مختلفة تتلخص في ضعف إدراك الفرد بالمسئولية لشعوره باختفاء القيم والمعايير الأخلاقية وسط ذلك الحشد الضخم الناجم عن الناس ؛ ولشعوره بالقوة التي يكتسبها من الكثرة التي تحيط به .

ويذهب ليبون إلى أن الجماهير تعمل على إخفاء الشخصية الشعورية للفرد ، وعلى إظهار شخصيته اللاشعورية ، مستعينة على ذلك بتأثيرها الإيحائي على العقول وتهيئتها الجو المناسب لانتشار المشاركة الوجدانية بين الأفراد ، ولإثارتهم نحو تقليد بعضهم بعضاً في كل ما يفعلون .

وهكذا يعمى في تحليله إلى أن يقرر اختفاء عقل الفرد وظهور عقل الجماعة الذي يعبر عنه تعبيراً قوياً واضحاً عن الدوافع اللاشعورية المشتركة عند جميع أفراد النوع الإنساني^(١) .

(١) يمكن تشبيه الحياة النفسية عند الفرد بجزيرة طفت فوق سطح الماء . فالجزء الشعوري من النفس يمثل الجزيرة . واللاشعور الفردى يمثل الجزء الممتد من الجزيرة تحت سطح الماء . واللاشعور الجماعي يمثل قاعدة الهضبة أو الجبل المغمور الذي طفت قمته لتشكل سطح تلك الجزيرة . وبما أن قاعدة الجبل متصلة بطن الوادي المغمور ومتصلة بقواعد الجبال والهضاب =

ولقد فطن مكدوجل إلى خطأ جوستاف ليبون فتحاشى أن يخلط بين صفات الجمهرة وصفات الأنواع الأخرى من الجماعات وفرّق بينهما تفرّيقاً واضحاً جلياً . وفرّق أيضاً بين الصفات العامة للجماعة وصفات أفرادها . وذهب إلى أن الجماعة تؤثر على أفرادها تأثيراً يختلف عن التأثير القائم بين كل فرد وفرد آخر . وحاول أن يعلل اختلاف سلوك الفرد وهو عضو في الجماعة عن سلوكه وهو بمعزل عنها فأرجع اختلاف السلوك في كلتا الحالتين إلى صفات كامنة في الفرد تظل مُجَبَّاة في أعماق نفسه حتى يثيرها التجمع فتنتطق مُعبرة عن نفسها لتتجاوب مع الأفراد الآخرين . وتشق هذه الصفات خواصها من الكل العام الذي يهيمن عليها . أى أنها تشق صفاتها من الجماعة ذاتها . وبذلك فلكل جماعة عقل يختلف عن عقل أى فرد فيها ، ويختلف أيضاً عن مجموع عقول الأفراد .

والعقل كما يُعرّفه مكدوجل ماهو إلا مجموعة منظمة متسقة من قوى غرضية^(١) . ويؤدى بنا هذا التعريف إلى افتراض ثبات مجموعة تلك القوى ثباتاً نسبياً يكسبها بعض صفات الظواهر العقلية المعروفة بالأفكار والذكريات والعواطف والانفعالات ، وإمكان استنتاج السلوك من طبيعة الموقف المحيط به والشعور بالذات^(٢) . وتلك صفات يتميز بها الفرد وتتميز بها الجماعة سواء بسواء . فإذا أدى هذا التعريف إلى تحديد صفات عقل الفرد فهو يؤدى أيضاً إلى تحديد صفات عقل الجماعة .

والعقل الجماعى — كما يراه مكدوجل — ينمو ويقوى ويتكامل وفقاً لشروط خاصة نلخصها فيما يلى^(٣) : —

== الأخرى . لذلك يصبح هذا اللاشعور الجماعى قاع المحيط في نشيئنا هذا . وقوام اللاشعور الفردى عند فرويد الطاقة الجنسية . وقوامه عند آدلر مركب النقص ؛ أما اللاشعور الجماعى فهو جوهر البحث عند يونغ وهو أبعاد أغوار النفس اللاشعورية .

1, Mc Dougall. W., The Group Mind, 1920, p.p. 7-10.

(٢) الدكتور عبد العزيز القوصى ، علم النفس سنة ١٩٥٢ ، ص ٣٧٥ .

3, Mc Dougall, W., OP. CIT., p.p. 49—50.

١ - الاستمرار : فكما ازداد تماسك الجماعة كلما ازداد عقلها الجماعى قوة ونموا والتماسك يصدر عن مدى استمرار الجماعة . والاستمرار قد يكون ماديا أو شكليا . ويبدو الاستمرار المادى فى ثبوت أشخاص الجماعة . ويبدو الاستمرار الشكلى فى ثبوت النظام الذى يؤدى إلى انتخاب أعضاء الهيئة المشرفة على الجماعة ذاتها . وتتصف أغلب الجماعات بالاستمرار المادى والشكلى . وبذلك يتفاوت عقلها الجماعى نضجاً بتفاوت حفظها من ذلك الاستمرار .

٢ - فكرة الجماعة : يعتمد العقل الجماعى فى تكوينه على مدى إدراك كل فرد من الأفراد لفكرة الجماعة التى ينتمى لها ، وعلى مدى فهمه لطبيعة تلك الفكرة من حيث مكوناتها ووظيفتها ونواحى قوتها . هذا ويؤدى انتشار فكرة الجماعة بين الأفراد إلى تركيز انفعالاتهم حولها وبذلك يكتب العقل الجماعى ناحيته الشعورية الانفعالية .

٣ - التصادم الخارجى : أى تصادم خارجى تواجهه الجماعة يؤدى بها إلى المغالاة فى التكتل لدفع الأذى المقبل . وهذا التكتل يؤدى إلى تماسك قوى العقل الجماعى ، وبالتالي إلى الشعور بالذات والشعور بالأهمية .

٤ - التقاليد : لكل جماعة منظمة تقاليد خاصة ، وطقوس مرعية ، وعرف قائم . وتلك مجتمعة تحدد معايير العقل الجماعى .

٥ - التنظيم : قوة الجماعة رهن بتوزيع العمل الداخلى توزيعاً يتفق ومواهب الأفراد وأهداف الجماعة . والتوزيع العادل يعمل على تنظيم قوى العقل الجماعى . وقد ينشأ هذا التنظيم من طبيعة تقاليد الجماعة . أو من طبيعة الظروف الخارجية المحيطة بالجماعة .

ويعتقد كلينبرج O. Klineberg أن الأساس الذى تستند إليه نظرية مكندوجل عن العقل الجماعى أساس ضعيف لا يخلو من الخطأ^(١) فالزعم القائل بأن هناك عقلا

1. Klineberg. O., Social Psychology, 1940 p.p. 330—332.

جماعيا يسيطر على عقول الأفراد من عل ، ولا يعتمد في جوهره على المخ أو على الجهاز العصبي من ناحيته البيولوجية المباشرة — زعم يصعب علينا قبوله .

وقد يكون لزاماً علينا إنصافاً لمكدوجل ، أن نقرر هنا أن هذا النقد نفسه لا يخلو من المغالطة ، فالعلم ينحود دائماً نحو بناء نماذج خاصة رمزية تفسر لنا الظواهر المختلفة التي ندرسها . وهذا لا يستلزم قط وجوداً مادياً لهذه النماذج . ولنضرب لذلك مثلاً ، الأبحاث الذرية الحديثة ؛ فلقد قامت بادية ذى بدء على نماذج محسوسة للذرة بنواتها وكهبرياتها (إلكتروناتها) ثم تحولت هذه النماذج إلى أمواج وشحن كهربائية ، ثم تحولت أخيراً إلى مجرد معادلات رياضية . لكنها بتطورها هذا سمت في شمولها وفي دقة تفسيرها للكون المادى وللطاقة التي تنتشر بين أرجاء الكون .

هذا ولقد ألقينا في مستهل هذا الفصل لأثر المستويات المختلفة ووحدات التحليل المتباينة في تضارب الآراء حول ثبوت وجود العقل الجماعى أو إنكار هذا الوجود . وسنعود في نهاية هذا الفصل لنفس الفكرة محاولين أن نلقى بها ضوءاً جديداً على المشكلة الراهنة .

وبين ليبون ومكدوجل تشابه واختلاف . فهما يتشابهان في الفرض القائل بوجود العقل الجماعى . وهما يختلفان في وصف هذا العقل . فليبون يراه عقلاً لا شعورياً ويتخذ أساساً لسيكولوجية الجمهرة . ومكدوجل يراه عقلاً شعورياً . ويتخذ أساساً لتفسير قوة الجماعات .

٣ - نظرية فرويد

يقرر فرويد S. Freud في كتابه « علم النفس الاجتماعى وتحليل الأنا » (١) . أن التفرقة الحادة بين علم النفس الفردى وعلم النفس الاجتماعى ، أمر يكاد يكون مستحيلاً ، ويذهب إلى أن حياة الفرد النفسية لا تخلو من تأثير فرد آخر يبدو كنموذج يُحتذى أو كموضوع يُناقش أو كرفيق يؤازر أو كعدو يكيد .

وهو يحاول بتحليله هذا أن يضعف ويمحو التفرقة القائمة بين سلوك الفرد كفرد ،

1. Freud, S., Group Psychology and Analysis of Ego, 1922.

و بين سلوكه وهو عضو في الجماعة . وهو لهذا لا يقر فكرة العقل الجماعى ، لكنه يستعيز عنها في تفسير نواحي جنوح السلوك الاجتماعى في الجمهرة ، بارتباط يقوم بين الطاقة الجنسية اللاشعورية Libido عند الأفراد ^(١) .

٤ — نظرية مارتن

يتفق مارتن E. D. Martin مع ليبون في أن الجمهرة حالة عقلية خاصة تؤدي إلى ظهور الرغبات اللاشعورية ^(٢) . ولكنه لا يتفق معه في ثبوت وجود العقل الجماعى الذى ينشأ من الجمهرة ومعها ، ثم يسيطر عليها .

و يمضى مارتن في تحليله فيفسر اختفاء شعور الفرد بقداصة الحياة وذلك عند ما يقتل أو ينوى قتل الآخرين مندفعاً في ذلك مع تيار الجمهرة الجارف . وحينما يخرب ويحطم ممتلكات الناس دون تردد أو ندم منساقاً في ذلك مع زملائه المتجمهرين .

و يرجع مارتن هذا الجنوح إلى التغير الطارىء الذى يعترى البيئة الاجتماعية المحيطة بالمتجمهرين . وينشأ هذا التغير من التجاوب النفسى القائم بين الأفراد . يهدف ذلك التجاوب بادية ذى بدء إلى تحقيق عمل تقرر المعايير الاجتماعية القائمة ثم يتطور سريعاً بتأثير التجمهر ذاته فيؤدى إلى إضعاف الرقيب النفسى (الذات العليا) ،

(١) تنقسم الحياة النفسية عند فرويد إلى : —

(أ) الأنا Ego : وهى الذات الشعورية الخلقية المنطقية التى تخضع لمعايير المجتمع والزمن والمكان والسكون .

(ب) الهى Id : وهى الذات اللاشعورية ، التى لا تخضع لمنطق المجتمع والزمن والمكان والسكون . وتتكون من غرائز المحافظة على الذات وهى غرائز أئبة ، وغريزة المحافظة على النوع وتلك تنلخص في الطاقة الجنسية أو الليبدو Libido .

(ج) الذات العليا Superego : وهى كصمام الأمن الذى يحول بين الهى وبين الانطلاق إلى الحياة الشعورية ، وهى أيضاً رقيب شديد على أعمال الأنا ، وتتسكون من تأثير القيم والمعايير التى تفرضها سلطة الأب على الطفل في باكورة حياته ، وهى لاشعورية .

2. Martin, E. D., The Behavior of Crowds, 1920.

فتنطلق الرغبات اللاشعورية الفردية من مكمنها العميق وتقل بذلك سيطرة القيم والمعايير الاجتماعية على سلوك الفرد .

وهكذا نجد أن مارتن قد استعاض عن فكرة العقل الجماعى وعن كل ما يتصل بها من لاشعور عام مشترك بين جميع الأفراد ؛ بفكرة النزاع القائم بين المعايير الاجتماعية والرغبات الذاتية اللاشعورية .

وهو يشايح بهذا التحليل مذهب فرويد القائم على اللاشعور الفردى . وينأى بذلك بعيداً عن مذهب يونج القائم على اللاشعور الجماعى .

لكن إرجاع كل سلوك فرد من أفراد الجماعة إلى اللاشعور ، أمر لا يستقيم ومنطق الملاحظة الدقيق ، ومن الخطأ الواضح أن ننسب كل خروج على معايير الجماعة إلى اللاشعور كما فعل مارتن . وإذا جاز لنا أن نقرر بأن كل سلوك يستمد جوهره من اللاشعور ، سلوك لا يستقيم والقيم الاجتماعية المرعية ، فلا يجوز لنا أن نقرر أن عكس هذه الحقيقة صحيح .

٥ — نظرية ألبورت

يختلف ألبورت F. H. Allport عن مارتن في تفسيره لسلوك المتجمعين في أنه لم يعتمد اعتماداً كلياً على مذهب فرويد في تحليله العالمى ؛ بل استعان بنتائج أبحاث علم النفس الاجتماعى ، وعلم نفس الشواذ في دراساته وأبحاثه^(١) .

وهو يذهب إلى أن الجماعة جماعة من الناس — حالت الظروف بادية ذى بدء بينها وبين تحقيق رغباتها الأساسية . وبذلك فهو يلخص سلوكها في إخفاق يودى إلى سلوك عدائى . وقد يتصل الإخفاق من قريب أو بعيد بدوافع المحافظة على الذات كالجوع مثلاً ، أو بدوافع المحافظة على النوع . هذا وقد يكون دافع السلوك العدائى شعورياً وقد يكون لا شعورياً . ولا ينبع هذا السلوك من عقل جماعى يسيطر على الناس ، بل ينبع من تمسك الأفراد لرغباتهم . وتنقل عدوى الحماس

1. Allport, F. H., Social Psychology, 1924.

في يسر وسهولة من فرد لفرد لكثرة المتجمهرين . ويزداد الحماس قوة كلما ازداد انتشاراً ، فتضعف بذلك القوة الناقدة عند الفرد و يُصبح ميداناً مهيئاً لقبول أية فكرة دون التأكد من صحتها .

وهكذا يفسر لنا البورت حدة السلوك وشدة اندفاعه ، لكنه لا يعلل التغيرات النوعية التي تطرأ عليه . أى أنه يفسر نموه وازدياده في ناحية خاصة ويعجز عن تفسير تقلبه وتحوله من ناحية لأخرى . ومرجع هذا العجز تعميم خاطئ نشأ من الخلط بين الأنواع المختلفة للتجمهر ، ومن بحثها كلها وكأنها نوع واحد .

تعقيب ورأى جديد

قد يظن البعض أن فكرة العقل الجماعي قد انتهت كحقيقة علمية وآذنت بفناء . لكن في هذا الظن كثيراً من الخطأ والمغالطة إذ ما زال الاعتقاد بوجود العقل الجماعي يبدو سافراً حيناً ومستتراً أحياناً أخرى وراء دراسات بعض العلماء المحدثين . وما زال بعض علماء التحليل النفسي المشتغلين بالتحليل الجماعي يعتمدون في أبحاثهم على « عقل الجماعة » نذكر منهم على سبيل المثال بيون Bion وفولكس Foulkes ومين Main^(١) .

ولقد ارتطم كاتل R. B. Cattell بنفس المشكلة^(٢) . وذلك حينما حاول أن

1. Horowitz, M., and Perlmutter, H. V., "The Cocept of the Social Group" J. of Social Psychology, 1953,37 p.p. 69-95, especially p.p. 71-72, footnote 2.
2. A —Cattell, R. B., and others. "An Attempt at More Refined Definition of the Cultural Dimensions of Syntality in Modern Nations", American Sociological Review, 1952,16, p.p. 408-421.
B —Cattell, R. B., "Concepts and Methods in the Measurement of Group Syntality, Psychological Review, 1948,65, p.p. 48-63.
C —Cattell, R. B., and Wisp. H., "The Dimension of Syntality in Small Groups", J. of Social Psychology, 1948,28, p.p. 57-78.
D —Cattell, R. B., "The Principal Culture Patterns Discoverable in the Syntality Dimensions of Existing Nations", J. of Social Psychology, 1950,32, p.p. 215—253.

يدرس الشعوب المختلفة دراسة تحليلية ليستخرج القدرات الطائفية لكل شعب . فهو في أبحاثه الأخيرة التي سماها شخصية الجماعة Group Syntality ألقي نفسه وجهاً لوجه أمام مشكلة العقل الجماعي ، وكان موقفه حيالها غريباً فلقد ظن أن أبحاثه كلها ستنتهي ، إذ هو سمح لنفسه بانتقاد الأساس العلمي لذلك العقل الجماعي ؛ فاندفع يحاول تبرير موقفه في أسلوب لا يخلو من التشيع المغرض . واعتمد في تأييده لفكرته اعتماداً كلياً على تحليل مكدوجل لعوامل تكوين هذا العقل ولم يأت برأي جديد .

ولعل منشأ بعض هذا التضارب العلمي الذي يكتنف فكرة العقل الجماعي ، يرجع إلى المقارنة الخاطئة التي تنشأ من الانتقال المفاجيء من الفرد للجماعة . ذلك بأن للفرد صفاته النفسية التي درست واكتشفت في المستوى الفردي . واتخاذ هذه الاكتشافات — كما هي دون تعديل ما — أساساً لدراسة الجماعة ؛ خطأً منطقي كما أسلفنا في مستهل هذا الفصل .

فالكليات تتحول في سُلَّم التطور المعرفي ، إلى جزئيات تنطوي تحت لواء كليات أعم وأشمل . فالجزء يتحول إلى كل عند ما ينتقل من مستوى مرتفع إلى مستوى منخفض ، والكل يتحول إلى جزء عندما ينتقل من مستوى منخفض إلى مستوى مرتفع . ولكل مستوى من هذه المستويات التنظيمية صفات تميزه عن المستويات الأخرى . والفهم الدقيق للمستويات العليا يعتمد إلى حد كبير على الفهم الدقيق للمستويات الدنيا . لكن التنبؤ بقوانين أي مستوى ما لا ينبع من صفات المستوى الذي يسبقه في سُلَّم التنظيم الهرمي . والقوانين التي تهيم على كل مستوى من هذه المستويات ، تميز وتختلف عن قوانين المستويات الأخرى ، لكنها ترتبط وتتفاعل معها . ولكل مستوى طريقة علمية خاصة تكشف عن مميزاته وقوانينه . وترتبط هذه الطرق بالقوانين التي تهدف إلى اكتشافها . وترتبط أيضاً بالطرق الأخرى التي تناسب المستويات المختلفة .

وهكذا ينشأ التضارب العلمي حول مشكلة العقل الجماعي من ثبوت المقدار رغم تغير الوحدات ؛ أي من الانخداع بالتشابه السطحي بين الظواهر العلمية ، رغم اختلاف

الأعماق . فلا شك أن ذكاء الفرد يختلف عن ذكاء الجماعة ؛ إذا جاز لنا أن نصف
الجماعات بالذكاء والغباء . هذا وما زالت الأبحاث التي تتناول ديناميكية وتفاعل
هذه الجماعات في حاجة إلى الدراسة والبحث . وما زلنا إلى الآن نجهد نتيجة تفاعل
ذكاء الأفراد . فإذا توصلنا إلى معرفة القوانين العلمية التي تصف تفاعل الأفراد
المختلفين داخل إطار الجماعات المختلفة ، لأمكننا أن ننشئ تنظيما هرميا علميا يربط الفرد
والجماعة معاً ، ويلقي ضوءاً على أكثر مشكلاتنا الحالية .

المراجع

1. Brown, J.F. Psychology and the Social Order, 1936, Chapter 4.
2. Deutsch, M., A Theory of Co-operation and Competition, Human Relations, 1949, 2, P.P. 129-152.
3. French, J. R.P., Organized and Unorganized Groups Under Fear and Frustration," Studies in Topological and Vector Psychology, 3, Univ. Ia., Stud. Child Welf., 20.
4. Ginsberg, M., The Psychology of Society, 1949 ed., Chapter 4.
5. Gehlke, E., Durkheim's Contribution to Sociological Theory.
6. Katz, D., The Psychology of the Crowd, in Guilford, J.P., Fields of Psychology, 1939, Chapter 7.
7. Novikoff, A.B., The Concept of Integrative Levels in Biology, Science, 1945, 101, P.P. 209-215.
8. Parsons, T., The Structure of Social Action, 1937.
9. Znaniecki, F., Social Groups as Products of Participating Individuals, Am. J. Sociol., 1939, 44, P.P. 799-812

الفصل الثامن

النظرية الكلية الحيوية^(١)

مقدمة

الإنسان جزء من الطبيعة ، فهو إذن يخضع لقوانينها ، التي يخضع لها كل شيء في الوجود . فسلوكه استجابة مباشرة أو غير مباشرة لتلك القوانين .

والإنسان نظام مُتَّسق من الطاقة . والطاقة تسرى في جميع أرجاء الكون . وبما أن الإنسان جزء من الطبيعة والكون ، فهو إذن يخضع بجميع أنماط سلوكه لهذه الطاقة .

والإنسان كائن حيٌّ يخضع في مظاهر نموه لقوانين الحياة . والكائنات الحية مهما اختلفت أنواعها وتباينت صفاتها تنمو ككليات لا كجزئيات . أى أن الكائن الحىَّ ينمو كوحدة متكاملة ، لا كجزئيات منفصلة .

تلك حقائق عامة ، تواجه الباحث في علم النفس ، وفي العلوم الإنسانية الأخرى . وهى تقوم على نتائج التجارب المختلفة التى أُجريت في المعمل أو بعيدا عنه ، بين أحضان الحياة كما تبدو في آفاقها المختلفة . وهى تعتمد اعتمادا مباشرا على ما أسفرت عنه الدراسات المقارنة لنمو الجهاز العصبى عند جميع أفراد المملكة الحيوانية .

فهى إذن حقائق حيوية لانشوبها تغيرات ميكانيكية . وهى في جوهرها ثورة على الفلسفة التى كانت تقوم على تفسير كل شيء في الوجود ، على أساس ميكانيكى آلى بحت .

1) Gestalt-Organismic Theory.

هذه الوحدة التي تشمل الكون المادى والحياة ، هي الطاقة التي حاول بلانك Planck العالم الطبيعي أن يكشف قوانينها العامة في أبسط صورة لها . وهي ذاتها التي حاول فيلبوت Philpott العالم النفساني أن يدرس مظاهرها الجوهرية في المستوى النفسي ، والتي حاول هيجل Haeckel أن ينشئ عليها فلسفته ^(١) . فهو يقرر في كتابه « لغز الكون » أن الطاقة الميكانيكية ، والطاقة الصوتية ، والطاقة الحرارية ، والطاقة الضوئية ، والطاقة الكهربائية ؛ مظاهر عدة لجوهر واحد ، هو الطاقة ذاتها . وذلك لأن كل مظهر من هذه المظاهر يتحول إلى أى مظهر آخر ، قد يبدو بادىء ذى بدء وكأنه يختلف عنه ويتباين معه .

ولقد تمكن هويلر R. H. Wheeler بعد بحث علمي دقيق في تاريخ العلوم المختلفة من استنتاج القوانين الجوهرية العامة ، التي تقوم عليها العلوم قاطبة . وتلك القوانين ذاتها تتلخص في قوانين مظاهر الطاقة في أية صورة من صورها المتعددة . وبوجود هذا القدر المشترك بين العلوم ، ارتبطت الظواهر العلمية المختلفة وتكاملت فيما نسميه الكون . الكون كما نفهمه وكما نعلمه .

ولقد كانت قوانين الطاقة مصدر الاكتشافات العلمية الكبرى في جميع فروع المعرفة طوال الأجيال المتعاقبة .

وهكذا صاغ هويلر نتائج أبحاثه في قوانين عامة أسمها القوانين الكلية الحيوية ، وانتقل بها من علم الطبيعة إلى علم الأحياء إلى علم النفس إلى العلوم الاجتماعية . وانتقل بها أيضا منظما موحداً بين فروع علم النفس المختلفة ^(٢) .

والنظرية الكلية الحيوية ، إحدى فروع المذهب الكلى أو مذهب الجشتالت Gestalt كما يسميه رواه الألمان .

1) Haeckel, E., The Riddle of the Universe, 1899, Translated by, Mc Cobe, J., ed 1937, p. 208. "Thence follows the important thesis of the unity of all natural forces, or, as it may also be expressed, the monism of energy."

(٢) أنظر مقالة هويلر المشهورة عن نشأة نظريته كما في موسوعة علم النفس .

Wheeler, R.H., Gestalt Psychology, 1946, p.p. 239—244, in Harriman, P.L., Encyclopedia of Psychology.

النظرية السكائية

يؤرخ علماء النفس بدء المذهب الكلى، بنتائج البحث الذى كان يقوم به فريشمر M. Wertheimer على زميليه كوفكا K. Kofka وكيالر W. Kohler فيما بين سنة ١٩١١ وسنة ١٩١٢ .

وتتلخص التجربة فى مشاهدة خط رأسى فى مكان معين ، ثم مشاهدة الخط مرة ثانية عن يمين أو عن شمال مكانه الأول، وتفصل المشاهدتان برهة زمنية متغيرة . ولقد دلت نتائج هذه التجربة على الحقائق التالية :

نتيجة الملاحظة	طول الفاصل الزمنى بين الملاحظتين
الخط الأول ثم الخط الثانى	١ ثانية
خط واحد يتحرك فى وضوح	١/٢ من الثانية
خطان يبدوان معاً جنباً إلى جنب	١/٣ من الثانية

وتلك الحقائق التى أسفرت عنها نتيجة هذه التجربة تحتل تفسيرات عدة . منها التفسير القائل بأن الحركة الظاهرية التى تراها العين رغم ثبات الخطوط، ترجع إلى حركة العين ذاتها أثناء عرض تلك الخطوط . ويمكن تبين خطأ هذا الرأى بتغير بسيط فى طريقة التجربة، وذلك بأن يُرتب عرض الخطوط الرأسية حتى يبدو أحدها وكأنه يتحرك إلى الناحية اليسرى . أى أن تصدر الحركة من مكان متوسط ثم تنتشر فى ناحيتين متقابلتين . فإذا كان التفسير القائم على حركة العين صحيحاً، تحركت العين فى اتجاهين متضادين فى وقت واحد وهذا أمر مستحيل من الناحية الفسيولوجية .

ومن الآراء المهمة التى تحاول تفسير هذه الظاهرة ، الرأى القائل بأن العين ترى خطوطاً منفردة تفصلها مسافات زمنية ومكانية لكن العقل يستنتج الحركة ويعتمد فى استنتاجه على تعليل رؤية الخط فى مكان معين . ثم رؤيته فى مكان آخر

بعد فاصل زمنى صغير . ويرد فريمر على هذا رأى بأن نتائج التجربة تدل على أن الخطين يبدوان متتابعان تقابلاً يُفسر عن خط يتلوه آخر وذلك عند ما يقل الفاصل الزمنى عن $\frac{1}{2}$ ثانية أو يبلغ هذا المقدار . ويبدوان معاً كخطين منفصلين وذلك عند ما يبلغ الفاصل الزمنى $\frac{1}{3}$ من الثانية . لسكن الحركة تبدو وتتضح عند ما يصل الفاصل الزمنى إلى $\frac{1}{3}$ من الثانية . وبهذا فالتعليل الذى يقوم على استنتاج العقل للحركة تعليل خاطئ .

وتعليل فريمر يقوم على أننا ندرك الموقف ككل أو كجشتالت لا كأجزاء نضمها بعضها إلى بعض لنشئ منها حاصلًا جمعياً لها . فالإدراك البصرى للحركة هو إدراك كلى . والإدراك البصرى لمظاهر السكون والاستقرار إدراك كلى أيضاً . وهكذا يستطرد دعاة هذا المذهب ليفسروا مظاهر الحياة النفسية الفردية والجماعية وفقاً لأصول وأسس مذهبهم الكلى .

وهم يؤكدون أن إدراك شكل ما؛ مثل المربع لا يعتمد على تحليل أجزائه التى تشكون من أربعة خطوط متساوية وأربع زوايا قوائم، بل تقوم على الإدراك الكلى للمربع كمرجع . وأن هذه الأجزاء تشتق صفاتها من الكل أى من المربع ذاته . ويؤكدون فيما يؤكدون أن الفرد يشتق صفاته من الجماعات المختلفة التى تهيم على سلوكه . والكل دائماً لديهم هو الأساس وهو الأصل وهو الجوهر ^(١) .

(١) مشكلة الكل والجزء مشكلة قديمة ترجع إلى الفلسفة اليونانية . هذا ويعتبر أفلاطون من الرواد الأول لفكرة الكل ، فلقد « وجه كل همه إلى البحث فى هذه الناحية . وأقام مذهبه الجديد على أساس نظريته الجديدة إلى المعرفة ، حين فرق بين نوعين منها : الظن والعلم ، وجعل الظن من شأن الأعبان الجزئية ، والعلم متعلقاً بالماهيات السكبية ، وجعل الوجود الحقيقى هو وجود الماهيات أو الصور . فمن حيث الوضع فى الوجود ، قال أفلاطون ان الماهيات مفارقة بالنسبة للأشياء المشاركة فيها . ومن حيث المرتبة ، قال ان الوجود الحقيقى هو وجود الماهيات أو وبالتالي فإن الجزئيات أدنى مرتبة فى الوجود ، لأن وجودها مستعار وليس وجوداً بمعنى الكلمة . وتبعاً لهذا أيضاً سنقسم الماهيات من حيث الترتيب الوجودى تبعاً لاعتبارها من حقيقة الماهيات أو من حقيقة الجزئيات . وعلى هذا ستكون الأنواع أقل مرتبة فى الوجود من الأجناس لأنها أقرب من الأجناس إلى الجزئيات ، ، وسيكون الوجود الحقيقى المطلق هو السكلى العام المطلق » . أنظر عبد الرحمن بسوى : أرسطو ١٩٤٤ ، ص ٥٤ .

وقبيل ظهور مدرسة الجشتالت كان بعض العلماء وعلى رأسهم تيتشنر Titchener يتبع طريقة التأمل الباطنى فى تحليله للوجود النفسى وكان يعتقد أن أبسط نواحي الوجود النفسى يتلخص فى ثلاث عمليات بسيطة : هى الإحساس ، والتصور ، والوجدان ، وتلك تعتمد فى جوهرها على الجهاز العصبى . وهو يذهب إلى أن كل خبرة نفسية تمر بالفرد تمثل ظاهرة معقدة متداخلة العناصر والوحدات ، وفهمها لا يتأتى إلا بتحليلها تحليلًا جزئيًا لعناصرها الأولية من إحساس وتصور ووجدان .

لكن مدرسة الجشتالت اعتبرت هذا النوع من التحليل تحليلًا صناعيًا ينأى بالباحث بعيدا عن جوهر الحقيقة . وذهبت إلى أن الدراسة النفسية يجب أن تعتمد فى أساسها على الأطار الذى تنتظم فيه هذه العناصر أى على الخبرة ككل وبما يتصف به هذا الكل من صفات لا تتضح إلا فى كليته ومعها . فالكتاب الذى تقرأه الآن ، قد يمكن تحليله بالنسبة لك تحليلًا استبطانيًا يعتمد فى جرهه على إحساسات مختلفة بالسواد والبياض . وإلى أنواع من الضغوط تحسها بأصابعك ؛ لكنه سيبقى بعد هذا التحليل كلاً يبدو لك كصفحات مطبوعة تنقل إلى ذهنك أفكارا كلية .

وهكذا تؤكد مدرسة الجشتالت فكرة تنظيم الخبرات ككل . وتذهب إلى أن صفات الكل تزيد على مجموع صفات الأجزاء . فالمثيرات والاستجابات تتخذ صورة كلية منتظمة فى وجودنا النفسى . ويقرر كيلر تلك الحقيقة فى المعادلة التالية : —

تجمع المثيرات ← تنظيم ← استجابات كلية للتنظيم

فالمرئيات تتحول إلى أمواج ضوئية ، والسمعيات تتحول إلى أمواج صوتية وتتجمع هذه الأمواج فى التقائهما بالحواس فينظمها الجهاز العصبى ، ويؤلف من وحداتها الكل الذى يدركه الفرد . فالكل يتحلل إلى جزئياته وهو يسلك طريقه إلى أعضاء الحس ، ثم يستعيد هذه الكلية فى التقائه بالجهاز العصبى . وهكذا نرى أن تنظيم المثيرات وتنظيم الاستجابات يعتمد فى جوهره على الفرد .

ومن الظواهر التي تؤيد هذه الفكرة ما لاحظته كيلر على ثبات حجم الأشياء بالنسبة للفرد رغم اختلاف وتغير بعدها عنه . فإذا رأيت كتاباً يبعد عنك حوالى ٥٠ سم ثم رأيت ثانياً وهو يبعد عنك حوالى ١٠٠ سم فإنك تدرك ثباتاً ملحوظاً في حجمه بالرغم من أن القوانين الطبيعية لعدسة العين تدلنا على أن حجم الكتاب يتضاءل إلى النصف إذا تضاعف بعده عن عدسة العين . فخيرتك بالكتاب تأتيك من الصورة التي تقع على شبكة العين ، وتلك تتغير بتغير بُعد الكتاب عنك ، لكن إدراكك لحجم الكتاب ، يأتيك في كلتا الحالتين ثابتاً في حجمه لأنك أدركته ككل .

هذا ولقد استعان دعاة هذا المذهب في إقامة أركان هذا الاتجاه الجديد بنتائج الأبحاث العديدة التي أجريت على الإدراك والتعلم والتذكر والوجدان . وامتدت بهم آفاقهم إلى علم نفس الحيوان وخرجوا من ذلك كله بما يؤيد دعواهم ، ومن أهم تجاربهم في هذا الميدان التجربة التي قام بها كيلر على جمع من القرود . فلقد علّق كيلر موزاً في مكان مرتفع حتى لا تصل إليه القرود ، ثم وضع بالقرب من الموز صندوقاً خشبياً ، وترك ستة من القرود تحاول عبثاً الوصول إلى الموز دون جدوى . ولقد لاحظ الباحث أن أحد القرود توقف عن القفز فجأة ثم اقترب من الصندوق ثم دفعه حتى صار أسفل الموز المعلق ثم قفز فوق الصندوق ثم مد يده وجذب الموز إليه . وهكذا تمكن الفرد من الوصول إلى هدفه عند ما أدرك الموقف الكلي المحيط به ، وأدرك معه العلاقات القائمة بينه وبين الصندوق والقفز والموز ^(١) .

هذا ولقد تأثرت ميادين العلوم الأخرى بهذا الاكتشاف الجديد ، الذي نشأ بين أحضان علم النفس . وبدأ علماء الطبيعة والأحياء يطبقون فكرة الجشتالت في أبحاثهم حوالى سنة ١٩٣٠ ؛ ونذكر منهم على سبيل المثال شرودينجر Schroedinger وودجر Woodger وبيرتالانفي Bertalanffy ورسيل E.S. Russell ومورتون هويلر Morton Wheeler وكوجيل Coghill . وأثرت فكرة الجشتالت بطريقة غير

(١) هذه الظاهرة يسميها الجشتاليون الاستبصار Insight ويمرّفونها بأنها إدراك الموقف الكلي وما يشتمل عليه من تنظيم يربط أجزاءها بعضها ببعض .

مباشرة في أبحاث علماء الطبيعة الذرية والمشتغلين بنظرية النسبية مثل إدينجتون Eddington وبلانك Planck . ولقد أقام وهيته Whitehead فلسفته ومنطقه على فكرة الكل الحيوى . وتأثرت العلوم الاجتماعية بهذا الاتجاه الخصب الجديد .

وقد يُعزى إخفاق القرون الماضية في اكتشاف هذه الحقيقة الجوهرية إلى إخفاق العلماء في فهم وإدراك فكرة الثابت المتغير لتناقضها الظاهرى . فالمربع مثلاً ، جشالت يحتفظ بثبات صفاته الكلية رغم تغير أطوال أضلاعه وألوان خطوطه . فهو ثابت في كليته ومتغير في جزئياته . أى أن الثبات والتغير أمور نسبية . فالتناقض الظاهرى يحمل في طياته وأعماقه منطقاً صحيحاً قوياً . وهكذا نرى أن هذا الاكتشاف يرتبط ارتباطاً وثيقاً باكتشاف نظرية النسبية ⁽¹⁾ .

القوانين الكلية الحيوية

المذهب الكلى؛ مدرسة قوية من مدارس علم النفس المعاصر . والمذهب الكلى الحيوى ، إحدى التطورات الحديثة لتلك المدرسة . ويقوم هذا الاتجاه الأخير على قوانين عامة أطلق عليها هويلر اسم « القوانين الكلية الحيوية » . وتستند تلك القوانين في جوهرها على فكرة الطاقة وفكرة الكل الحيوى في نموه ككل أى في احتفاظه بكليته رغم تغير جزئياته . فالفرد ينمو في مراحل حياته سنة بعد سنة لكنه يحتفظ بكليته كفرد .

ولهذه النظرية أهمية في علم النفس الاجتماعى لأنها تعيننا على تفسير السلوك

(1) Wheeler, R. H., Organismic vs. Mechanistic Logic, Psychological Review, 1933, P.P. 335—353, especially P.343 where he said “.. It contained the great puzzle of history-how can a thing change and yet not change. It required the same type of mind to solve this problem as to conceive, with no intellectual shock, the fact that a straight line is also a curved one. Thus, until relativity could be understood, there was no chance of discovering the relative-absolute, the dynamic Gestalt”

الاجتماعى ومظاهر العلاقات الاجتماعية الديناميكية المختلفة . وتتلخص دعائم هذه النظرية فى القوانين التالية (١) .

١ — قانون صفات المجال (٢) .

« الكل أكبر من مجموع أجزائه » (٣)

فإذا بعثرت الحروف والكلمات والورق الذى يتكون منه هذا الكتاب الذى تقرأه الآن ، فأنت لم تفقد شيئاً من جزئيات الكتاب لكنك تفقد الكتاب نفسه ككل . ولن يستقيم الكتاب إلا عند ما تجتمع هذه الجزئيات فى تنظيم ديناميكى يصل ما بينها جميعاً بروابط وعلاقات خاصة .

وإذا استمعت إلى قطعة موسيقية ، فأنت تستمتع بالتنظيم الذى يشملها . فإذا قُدِّر لك أن تسمعها بطريقة عكسية تبدأ بآخرها لتنتهى بأولها فإنك تستغربها ولا تكاد تعرفها ، بل قد تشمئز منها رغم أن جزئياتها لم تتغير .

وهكذا نرى أن الكل يتميز عن جزئياته ويكتسب لنفسه وجوداً يحتوى على هذه الجزئيات ويحتوى أيضاً على صفات جديدة أخرى .

وهذه الصفات الكلية المعقدة ، هى ما نسميها صفات المجال . فهى إذن صفات الكل الذى يشمل تنظيم وتنسيق الطاقات المختلفة . وصفات المجال تخضع للقياس ، فصفة التريبع التى تنشأ من كلية المربع تنتج من الامتداد المكافئ للمربع فى الإحداثيين الطولى والعرضى .

والسلوك الاجتماعى صفة من صفات المجال . فإذا قُدِّر لعدد من الأفراد أن ينشأوا بمعزل عن بعضهم بعضاً وبمعزل عن أى لون من ألوان المنيرات الجماعية ،

(1) Vide Wheeler, R.H., and Perkins, F. T., Principles of Mental Development, 1940, Chapter 2.

(2) The Law of Field Properties.

(3) A Whole is more than the sum of its parts.

فإنهم يتحولون إلى مخلوقات غريبة لا تعرف معنى للخير أو للشر ، ولا معنى للتقاليد والدين والقانون والثقافة بكل ما تحمل من مقومات وأصول .

فالجماعة إذن ، أكبر من مجرد المجموع العددي للأفراد . ذلك بأن لها من الصفات العامة ما يميزها عن صفات كل فرد فيها . وسلوكها الاجتماعي يزداد ويختلف عن سلوك أفرادها فردا فردا ، فالناس في الجمهرة يسلكون سلوكا اجتماعيا يختلف عن سلوكهم وهم بمعزل عنها . فالجماعة لا تتكون من أفرادها فحسب بل وتتكون أيضا من التنظيم نفسه . والتقاليد التي تصدر من الجماعة ثم تهيم عليها صفة من صفات المجال . والمجال هنا كما يراه هويلر تنظيم وترتيب للطاقة في صورتها الاجتماعية .

٢ — قانون الصفات المشتقة^(١)

« تشق الأجزاء صفاتها من الكليات »^(٢)

ولنضرب لذلك مثلا المربع . فكليته تظهر في صفة التربيع التي تلازمه . وهذه الصفة الكلية تضفي على الأجزاء صفات خاصة ، مثل تساوى الأضلاع وتعامدها ، وتعامد الأقطار وهكذا . وتلك جميعها صفات جزئية تشق مميزاتها من الكل العام الذي يهيمن عليها . فلو استبدلنا بالمربع شكلا آخر كالمثلث أو كتوازي المستطيلات مثلا فإننا بذلك نكون قد غيرنا صفات الأجزاء المكونة لتلك الأشكال .

ووزن أو ثقل الأشياء المختلفة صفة تشقها تلك الأجزاء من الكل العام الذي يحتويها ، فنقل القلم الذي يبدى الآن يعتمد في جوهرة على قوة جذب الأرض له . فالثقل صفة تشق وجودها من القلم والأرض معاً والمجال العام الذي يحدد مقدارها . فالثقل إذن بهذا المعنى صفة مشتقة .

والفرد يشق صفاته من الجماعات التي تهيم على أطوار نموه . والجماعة بهذا المعنى كل يضفي على الفرد صفاته ؛ ومثلها في ذلك كمثل المربع وأضلاعه .

(1) The Law of Derived Properties.

(2) Parts derive their properties from wholes.

والطفل في باكرة حياته، يمتص الطاقة الضرورية له من الطعام والهواء، لكنه يمتص أيضاً المؤثرات الاجتماعية التي تحيط به ويخترنها في جهازه العصبي. فالطفل يشتق شخصيته من المجال الاجتماعي الكلي للشخصية.

والذكاء نفسه يشتق مميزات من الإطار العام المحيط به. فذكاء الفرد أمر نسبي لأنه يعتمد في جوهره على ذكاء عينة ما من الأفراد نتخذها مقياساً وإطاراً في تقديرنا لنسب الذكاء. فهو إذن صفة جزئية تعتمد في وجودها على الكل العام الذي يحتويها. وجنوح السلوك الاجتماعي عند المتجمهرين يشتق صفاته من التجمهر ذاته. فالتجمهر مجال ديناميكي يضيف على الأفراد صفات من كليته.

٣ — قانون تحديد الفعل (١)

« يحدد الكل نشاط أجزائه » (٢)

فجال جذب الأرض يحدد حركة كل ما يحتويه هذا المجال من موجودات، ويحدد أيضاً اتجاه هذه الحركات. فالأجسام التي تقع على أبعاد متباينة داخل هذا المجال تكتسب طاقات كامنة، وعند ما ينفك أسرها هذه الطاقات تتحول إلى طاقات حركية تنطلق بالأجسام في اتجاه خاص. فالحجر الذي يقع على لوح زجاجي من مسافة قريبة قد لا يهشم اللوح، لكن إذا وقع نفس الحجر على نفس اللوح من مسافة بعيدة، فإنه يحطمه. ذلك لأن طاقة الحجر تختلف ضعفاً وقوة باختلاف قربه أو بعده من مجال جذب الأرض ككل.

فالأشياء تتحرك في نطاق يحدده لها الكل التي هي جزء منه. هذا وقد تستمر هذه الحركة حتى يستعيد المجال اتزانه. ولعل أوضح مثل لذلك هو مثل قطعتين متلاصقتين من الحديد يختلفان في درجتي حرارتهما. فسرعان ما تنساب الطاقة

(1) The Law of Determined Action.

(2) The whole determines the activities of its parts.

الحرارية من الحار إلى البارد وتستمر هذه الحركة حتى تتساوى درجتا الحرارة في كلتا القطعتين ، أى حتى يتلاشى توتر المجال الحرارى ويعود لآثرانه . ومدى اتزان المجال الكلى يحدد توقف نشاط وحركة الأجزاء .

وقياساً على هذا يقرر هويلر ، أن المجتمع يحدد نشاط أفرادهِ . فالجاعة بتقاليدها وقوانينها ومعاييرها ، تهيمن على نشاط أعضائها . فالطفل المصرى ينشأ ويحيا فى مجال مصرى يحدد له أساليب حياته ، بل ويحدد له أنماط علاقاته مع الأفراد الآخرين . وحرية الفرد رهن بخواص المجال الاجتماعى القائم . وجنوح بعض الأفراد بعيداً عن القيم والمعايير القائمة يؤدى إلى توتر المجال . وهذا بدوره يعمل على إعادتهم لسلطانه ليستعيد هو آثرانه . فمدى النشاط الاجتماعى للفرد رهن بما يرسمه له المجال . فسلوك الفرد رغم ما يبدو عليه أحياناً من ذاتية وفردية مطلقة مرجعه دائماً فى حاضره الراهن ، أو ماضيه البعيد ، أو مستقبله المجهول — إلى أثر للجاعة مباشر أو غير مباشر . والطبيعة البشرية تذبل وتضمحل فى العزلة ، ويكاد يستحيل علينا إدراكها وهى بمعزل تام عن أثر الجاعة .

٤ — قانون التميز بالفردية ^(١) .

« تكتسب الجزئيات وجودها بعملية التميز بالفردية » ^(٢)

فالتفرقة القائمة بين جزء وآخر هى التى تكسبه فرديته . فالورقة التى أخط عليها الآن هذه الكلمات كانت قبيل كتابتى مساحة بيضاء لاتجد فيها إلا كلاً غير متميز المعالم . والألفاظ التى أكتبها الآن واحداً إثر آخر ترسم على الورقة رموزاً لغوية تتميز عن بياض الورقة بسوادها وبصورتها وبشكلها . والمنحنيات والخطوط التى تميز كل لفظ تكسبه وجوداً يميزه عن منحنيات وخطوط الألفاظ الأخرى ويميزه أيضاً عن الورقة ذاتها . وتصبح الورقة بذلك أرضية Ground لتلك الأشكال والرسوم الرمزية .

(1) The Law of Individuation.

(2) Parts of wholes come into existence through an emergence process called individuation.

وهكذا تتحول أجزاء الورقة إلى وحدات يتميز كل منها عن الآخر بنسبته إليه وبنسبته أيضا إلى الورقة كلها.

وشخصية الفرد تتميز بفرديتها على أرضية قوامها الطبيعة البشرية . والنمو بمراحله المختلفة هو في جوهره عملية تميز بفردية .

وكل جزء من أجزاء الكل يرتبط بالأجزاء الأخرى في نظام متسق . وموضعه من هذا النظام أو الإطار، هو الذى يضاف عليه فرديته لأنه موضع نسبي يصله بما قبله وبما بعده وبكل ما يحيط به ، فإذا طابقت صفاته صفات كل ما يحيط به مطابقة تامة فقد فرديته وتلاشى وجوده .

والأضداد تتميز بفرديتها ، من ازدواج استقاطبها . فالخير يتميز بفرديته بنسبته إلى الشر . والشر يتميز بفرديته بنسبته إلى الخير . ووجودهما الازدواجى شرط جوهرى لوجود كليهما . فهما إذن معاً وحدة تؤلف كلاً يقوم على نسبية جزئية .

وشخصية الفرد تقوم على نسبتها إلى شخصية فرد آخر أو أفراد آخرين . فتميزها بفرديتها رهن بهذه النسبية . فوجود الزعيم لا يستقيم إلا مع وجود الأتباع ووجود السلوك الشاذ لا يتميز إلا بوجود السلوك السوى .

فالوجود المطلق للجزئيات استحالة لا يقرها منطق هويلر . والوجود النسبي يؤدي إلى التميز . ونسبة الجزء للكل هى التى تميزه وتكسبه فرديته .

• — قانون أصل المجال^(١)

« تنشأ الكليات وتتطور ككليات »^(٢)

وبذلك ينشأ مجال الطاقة ككل . ونمو هذا الكل لا يتأتى بإضافة الجزئيات له ، بل يتأتى يتمده وانتشاره وتمايزه عن غيره من المجالات ، فالجاعة لا تنشأ بإضافة

(1) The Law of Field Genesis.

(2) Wholes evolve as wholes.

الأفراد بعضهم إلى بعض ، إضافة عددية بل إنها لتبزغ فجأة حينما يؤثر فرد في فرد آخر ويتأثر به بالشكل الذي تتكون معه وحدة اجتماعية لها صفات كلية عامة .

فالبرتقالة تتطور في نموها من برتقالة صغيرة إلى برتقالة كبيرة بتمددتها وانتشارها أى أنها تنمو ككل . والفرد ينشأ ككائن بيولوجي وينمو ككل منذ تكوينه الأول ويتطور إلى كائن سيكولوجي حين يتفاعل مع بيئته تفاعلا يكسبه خبرة نفسية .

وبهذا فالأجزاء لا تتراكم بعضها فوق بعض لتكون الكل الذي يحتويها ، بل هي تبرز معاً وفقاً لتنظيم خاص ، لتؤلف فيما بينها كلاً يتمدد وينتشر في نموه .

والشخصية بهذا المعنى ليست مجرد حزمة من صفات مختلفة كالسلوك العدائي والتواضع والطموح والتعاون وروح المرح والذكاء ؛ تنبع كل صفة من ينبوع خاص وتنمو في اتجاه خاص ، بل هي تكامل هذه الصفات وما يماثلها تكاملاً يعتمد في تكوينه وجوهره على علاقة هذه المميزات بعضها ببعض في بزوغها وانبثاقها الذي يؤلف منها الكل أو الجشتالت الذي يحتويها .

٦ — قانون الحد الأدنى للفعل ^(١) .

ينطوى الفعل ^(٢) على الحركة ، وجوهر الحركة تحويل للطاقة . والطاقة توجد في شكل تنظيم وتنسيق خاص للضغوط المتعددة . وارتفاع الضغط على نقطة ما يزيد طاقتها . ومن مثل تلك النقطة يتولد الفعل ويتجه نحو غاية خاصة . وحينما تخف حدة الضغط في منطقة ما ، تزداد حدته في المنطقة المقابلة . وهكذا يستمر انطلاق الطاقة

(1) The Law of Least Action.

(٢) الفعل = الطاقة × الزمن .

فاذا ثبتت قيمة الفعل حتى ساوت حدها الأدنى ، فإن أى ازدياد في الطاقة يؤدي إلى نقصان الزمن . والعكس صحيح ، أى أن أى ازدياد في الزمن يؤدي إلى نقصان في الطاقة . فاذا كان الطريق الذي يسلكه الفعل هو أقصر الطرق ؛ أدى هذا إلى نقصان وحدات الزمن وهذا بدوره يؤدي إلى ازدياد وحدات الطاقة . وبذلك تزداد الطاقة في ناحية وتقل تبعاً لذلك في ناحية أخرى ، وهكذا تبدأ الحركة من المناطق العليا إلى المناطق الدنيا حتى يحدث الاتزان .

من منطقة لأخرى حتى تتساوى الضغوط ويعود الاتزان (١).

ومن أمثلة مناطق الضغط المنخفض المعدة الخاوية ، والصداق ، ومرض أحد الأصدقاء ؛ ومثل هذه المناطق يتجه السلوك لأن هدفه يكن فيها . فالسلوك ينطلق إذن من مناطق الضغط المرتفع لمناطق الضغط المنخفض . وأدنى المناطق انخفاضاً في الضغط هي دائماً الهدف الأول للسلوك . ويبدأ السلوك حينما يتحدد مكان الهدف . واتخاذ أقصر الطرق للوصول إلى تحقيق الهدف يعتمد على مدى بصيرة الفرد وإدراكه للموقف . والموقف ذاته كل ، لأن مناطق الضغط المرتفع ومناطق الضغط المنخفض يرتبط - بعضها ببعض - ارتباطاً ينتظم في مجال عام يهيمن عليها .

ويفسر هذا القانون بدء السلوك ونهايته . فهو يبدأ نتيجة الاختلال الذي يحدث للكائن لوجود منطقة ذات ضغط منخفض ؛ وينتهي حينما يرتفع الضغط إلى حد الاتزان المستقر نسبياً .

وبهذا فالفرد الذي ينجح في سلوكه ويشذ على معايير وقيم الجماعة التي ينتسب لها ، يؤدي إلى إشاعة تيار من التوتر العام بين أفراد الجماعة . ويعنى هذا التوتر تباين واختلال في توزيع الطاقة . وبهذا تنحو الجماعة نحو إخضاعها لها إن كانت طاقتها أعلى من طاقتها ؛ وينحو هو نحو إخضاع الجماعة له إن كانت طاقتها أعلى من طاقتها ، حتى يستعيد المجال اتزانه .

وهكذا يفسر هذا القانون اتجاه التأثير ومدى التأثير . فتأثير الفرد بالجماعة وتأثير

(1) "The beginning of movement is a position in a system of energy where there is a high potential, but this high potential exists only with reference to a low. The movement from the high to the low takes place over the shortest route in time and is a process of equalizing the potentials" .

Vide, Wheeler, R. H., and Perkins, F.T., Principles of Mental Development, 1940, P.28.

الجماعة بالفرد يعنى انطلاق الطاقة من الجهد المرتفع إلى الجهد المنخفض ^(١) .

٧ — قانون أقصى الشغل ^(٢)

بما أن الكل يحتوى الأجزاء ، وبما أن الأجزاء ترتبط بعلاقات تجمع بين الجزء والجزء ، والجزء والكل ؛ فكل ما يؤثر على جزء من الكل يؤثر على الكل بجميع نواحيه .

وأى اختلال يعترى تنظيم وتنسيق الكل يؤدي إلى انطلاق أقصى ما يحتويه هذا الكل من طاقة ليعيد الاتزان لنفسه .

فإذا أثرت قوة ما على أى تنظيم كلى للطاقة فإن التنظيم يقاوم التغيير بأقصى ما لديه من شغل . فالفرد الذى يقاتل للمحافظة على حياته أو المحافظة على تكامل شخصيته ومكانته ، يبذل أقصى طاقته لمحافظة على كليته . وقد يستمر فى قتاله حتى يستنفد تلك الطاقة فتخور قواه .

فالكل — كتنظيم منسق للطاقة — يقاوم التغيير . والشغل الذى يبذله للاحتفاظ باتزانه النسبي يعتمد فى جوهره على مدى المقاومة الممكنة لكف ذلك التغيير . وذلك يفسر لنا خضوع الأفراد للتقاليد والعرف القائم ومحاولتهم الدائمة للاحتفاظ بالإطار الذى يعيشون داخل حدوده . ويفسر أيضاً تعصب الأفراد لعاداتهم الاجتماعية ، وقصورهم الذاتى الذى يحول بينهم وبين التطور السريع .

وكما كان سلطان هذه التقاليد قوياً مهيمناً على حياة الأفراد ، كما كانت ثورتهم حادة عنيفة على المصلحين وقادة الفكر . وقديماً توجس الناس خيفة من استخدام التخدير الطبى أثناء العمليات الجراحية . ومن أغرب ما يروى عن أحد مشاهير الأطباء أنه أعلن أن استخدام الكلورفورم فى عمليات الولادة خطر وشر لأنه يحرم الأم من

(١) أنظر الفصل الخامس « أنواع العلاقات الاجتماعية » ؛ ولاحظ أن قانون الحد الأدنى للفعل يفسر الاتجاهات المختلفة للأقسام التى أوضعتها بها تلك العلاقات .

(2) The Law of Maximum Work.

آلامها المقدسة التي وهبها لها الله . والحرمان من الألم معارضة صريحة لإرادة الله
في خلقه ؟!

٨ — قانون الهيئة أو الصورة ^(١) .

تنظيم الطاقة يعمل دائماً كوحدة ، كما سبق أن بينا ذلك في قانون الحد الأدنى
للفعل وقانون أقصى الشغل . وتلك الوحدة تضي على جزئياتها صفات خاصة .
والكل بأجزائه وتنظيمه وعلاقاته الداخلية يُكوّن ما يسمى بالصورة أو الهيئة .
وتلك الصورة أو الهيئة تتفاعل مع الموقف المحيط بها . والموقف ذاته ما هو إلا حشد
منظم من المثيرات . وترتبط تلك المثيرات بعضها ببعض لتكون وحدة خاصة ، يدركها
الفرد إدراكاً كلياً ^(٢) . فإذا أدركت كل ما عن يمينك فأنت في حقيقة الأمر تنسب
هذا الاتجاه إلى كل ما عن شمالك وإلا فقدت معنى الاتجاه الأيمن . ويمينك وشمالك
يؤلّفان معا وحدة مؤثرة تُعبر به عن الموقف ومثلها في ذلك مثل ثنائية الحياة والموت .
فالحياة لا تكتسب معناها إلا بنسبتها إلى الموت . والموت لا يكتسب معناه إلا بنسبته
إلى الحياة . وهكذا تتحول الثنائية إلى وحدة متكاملة أو إلى موقف كلي . ويمكن
تمثيل هذه الوحدة بنقط بدوّه حياة ونهايته موت .

هذا وسلوك الكائن الحي ، يقوم في جوهره على استجابة موحدة للموقف الكلي
كما يدركه هذا الكائن . فإذا بدا على السلوك اتجاه نحو الجزئيات فهو في حقيقة أمره
اتجاه نحو علاقات الأجزاء وارتباط بعضها ببعض .

ويتفق هذا القانون وتعريف بيرجس E.W. Burgess للجماعة ^(٣) على أنها

(1) The Law of Configuration.

(2) A system of energy always functions as a unit (a configuration), and always adjusts itself to a multitude of disturbing influences (total situation).

(3) "A unity of interacting personalities."

Vide. Burgess, E.W., Personality and the Social Group, 1929, Chapter 10.

وحدة ووسطا تتصل وتتفاعل فيه الشخصيات . وهذه الشخصيات تتفاعل ككليات
لا كجزئيات .

تعقيبٌ ودراسة

٦ الفرد والجماعة يمثلان جزئية وكلية نسبية ، فالفرد جزء بالنسبة للجماعة وكل
بالنسبة لمكوناته الخاصة وأركان شخصيته ، والجماعة جزء بالنسبة للمجتمع الإنساني
الذي يحتويها وكل بالنسبة للأفراد الذين ينطوون تحت لوائها . فتفاعل الفرد مع
الجماعة يقوم على علاقات متشابكة متداخلة معقدة تنشأ بين الجزء والجزء ، والجزء
والكل ، والكل والكل . وتتكامل هذه النواحي جميعاً في كلٍّ أعم وأشمل .

والدراسة التي تقوم على الكليات وتغض النظر عن الجزئيات ، هي دراسة
مغرضة لأنها تهمل بعض نواحي الحقيقة . ومهما يكن من أهمية الكليات فإنها
لا تغنيانا عن دراسة الجزئيات . وهكذا نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام ازدواجية
الجماعة والفرد .

ولنعد بالقارىء إلى مستهل هذا الفصل حيث تتبعنا باستطراد تجربة فرثيمر
التي تمخضت عن النظرية الكلية، ولنعد ثانية إلى تحليل نتائجنا من زاوية جديدة .
فالحركة لم تحدث إلا عند ما أصبح مقدار الفاصل الزمني $\frac{1}{2}$ من الثانية أى عند ما
أصبحت ظروف التجربة صالحة لظهور الناحية الكلية . لكن نفس التجربة
أسفرت عن نواحيها الجزئية عند ما كان الفاصل الزمني $\frac{1}{4}$ ثانية . وهكذا نرى أن
الناحية الكلية تظهر تحت تأثير عوامل خاصة تختلف عن العوامل التي تمهد لظهور
الناحية الجزئية .

هذا وفي وسع القارىء أن يقرأ هذا الفصل حرفاً حرفاً ولفظاً لفظاً ليمحش
عن الأخطاء المطبعية، وسيجد — كما وجدت وأنا أصحح طبعاته التهيدية — أن المعنى
الكلي سيتلاشى ويختفى . وفي وسعه أيضاً أن يقرأ وهو يهدف إلى فهم المعنى الكلي
الذي تدور حوله فقرات هذا الفصل وسيجد أن الحروف والألفاظ تختفي أو تكاد .

فهنالك إذن نظرتان جد مختلفتان لكنهما معا يعبران عن الحقيقة تعبيراً علمياً صحيحاً.

وما أشبه تلك الظاهرة بالازدواجية التي تقوم عليها أبحاث الضوء في علم الطبيعة فالضوء مادة وأمواج ، فإذا بحثت مادته لتقيسها اختفى منك قياس الأمواج ، وإذا بحثت أمواجه لتقيسها اختفى منك قياس المادة . لكن هذه الازدواجية تتحد لتؤلف وحدة لا تقوم إلا بشرطها .

هذا ويجب أن نفرق بين الظاهرة العلمية كما تحدث وبينها كما نخضعها لمنطقنا وأسلوبنا العلمى التجريبي . فالشجرة كظاهرة علمية تُدرك وتُدرس في حدود كليتها ، ولأجزاء الشجرة تحت المجهر (الميكروسكوب) دراسة أخرى ومعنى يختلف عن معناها الأول . وكلاهما جوهر الحقيقة التي نراها ونهدف إلى سبر غورها .

ولم تنج النظرية السكلية والكلية الحيوية من النقد الذى يدور أغلبه وأهمه حول مغالاتها في استخدام مدركات ومصطلحات العلوم الطبيعية كالقوة والمجال والطاقة والتوتر والاتزان ، في أبحاثها رغم تباين واختلاف ميدان وموضوع البحث في علم النفس عنه في علم الطبيعة . فالقوة مثلاً شيء يقاس ويخضع لمعادلات خاصة في العلوم الطبيعية لأن ميدانها بسيط وخالٍ من التعقيد ومن الصعوبة البالغة التي نجدها في ميادين العلوم الإنسانية .

لكن منطق هويلر في بحثه كان أدق وأعمق من هذا النقد فلقد بدأ دراسته باكتشاف العامل المشترك بين جميع أنواع العلوم المختلفة وقرر بصراحة أن الطاقة هي المنبع الوحيد الذى تشتق منه تلك العلوم مادتها وأبحاثها . ولهذا أقام قوانينه على تلك الدعامة الجوهرية .

ولقد قام أخيراً (١٩٥٢) أحد علماء الطبيعة المشهورين بدراسة مقارنة بين ميدان العلوم الطبيعية وميدان العلوم الإنسانية وخرج منها بأن أنسب طريقة لمباحث العلوم الاجتماعية والنفسية الاجتماعية تتلخص في « الميكانيكا الإحصائية »

Statistical Mechanics للتشابه القائم بين ميدان تلك العلوم وميدان الأبحاث الذرية التي استخدمت تلك الطريقة بنجاح في أبحاثها^(١).

ولعل الوقت لم يحن بعد لعلم النفس عامة ولعلم النفس الاجتماعي خاصة حتى يهب لقوانين هويلر الكلية الحيوية ما تستحقه من الدراسات التجريبية المستفيضة التي تؤيدها أو تعدلها أو تنفيها. وهذه القوانين لم تتجاوز بعد محيطها النظري اللهم إلا في النزر اليسير من الملاحظات والتجارب التي تدور أغلبها حول النمو وتطورات ومراحل.

وهكذا نصل إلى نهاية مطافنا مع هويلر حيث تقرر قوانينه أن :

- ١ — الجماعة أكبر من مجموع أفرادها ،
- ٢ — والفرد يشتق شخصيته من الجماعة ،
- ٣ — والجماعة تحدد اتجاه أفعاله وأعماله ،
- ٤ — وتتميز فرديته بنسبتها إلى الآخرين ،
- ٥ — والجماعة تبدأ كوحدة وتنمو ككل . والفرد يبدأ كوحدة وينمو ككل ،
- ٦ — وأعمالنا وأفعالنا تصدر عن اختلال في تنظيم وتنسيق الطاقة ، فهدف تلك الأعمال إلى إعادة اتزان هذا التنظيم بأن تنطلق من مناطق الجهد المرتفع إلى مناطق الجهد المنخفض حيث يكمن هدف السلوك ،
- ٧ — والفرد يبذل أقصى ما لديه من طاقة لمقاومة أي تغيير في تكامله وكيته ،
- ٨ — واستجاباتنا للمثيرات هي في جوهرها استجابات كلية للموقف الكلي .

(1) Furth, R., Physics of Social Equilibrium, Brit. Assoc. Adv. Sc., 1952, P.P. 425—434.

المراجع

1. Helson, H., The Psychology of Gestalt, American Journal of Psychology, 1925, 36, p.p. 342 — 370.
2., The Fundamental Propositions of Gestalt Psychology, Psychological Review, 1933, 40, p.p. 13 — 32.
3. Koffka, K., Introspection and the Method of Psychology, British Journal of Psychology, 1924, 15, p.p. 149 — 161.
4., K., Principles of Gestalt Psychology, 1935.
5. Krout, M. H., Introduction to Social Psychology, 1942, Chapter 4, especially p.p. 230 — 232.
6. Line, W., Gestalt Psychology in Relation to other Psychological Systems, Psychological Review, 1931, p.p. 375 — 391.
7. Pillsbury, W. B., The Units of Experience — Meaning of Gestalt, Psychological Review, 1933, 40, p.p. 481 — 497.
8. Reiser, O.L., The Logic of Gestalt Psychology, Psychological Review, 1931, p.p. 359 — 368.
9. Wheeler, R. H. Introspection and Behavior, Psychological Review, 1923, 30, p.p. 103 — 115.
10., Persistent Problems in Systematic Psychology, i. A Philosophical Heritage, Psychological Review, 1925, 32, p.p. 179 — 191.
11., ii. The Psychological Datum, Psych. Rev., 1925, 32, p.p. 251 — 265.
12., iii. The Stimulus Error and Complete Introspection, Psych. Rev., 1925, 32, p.p. 443 — 456.
13., iv. Structural versus Functional Analysis, J. General Psych., 1928, 1, p.p. 91 — 107.
14., The Science of Psychology, 1929.
15., Organismic versus Mechanistic Logic, P. Rev., 1935, p.p. 335 — 353.

الفصل التاسع

نظرية المجال وديناميكية الجماعات

تمهيد

نظرية المجال إحدى تطورات النظرية السكلية .

ولقد نشأت فكرة المجال، في وضعها الحديث، من أبحاث ليثين K. Lewin. وتطورت أخيراً إلى دراسات في غاية الأهمية تدور كلها حول ديناميكية الجماعات Group Dynamics وحول بحث الفعل Action Research وتطورت من ناحيتها النظرية إلى أسلوب جديد في التحليل يعتمد في جوهره على تصوير الظاهرة كما تحدث في حاضرها الراهن، ورسمها رسماً تخطيطياً لا يعتمد على الأطوال أو القياس وإنما يعتمد على المميزات والصفات السكلية للموقف . ولقد أطلق ليثين على طريقته تلك اسم «التوبولوجي» Topology

ولقد فسرها براون J. F. Brown السلوك الاجتماعي بعلاقاته المختلفة، وأنشأ بذلك علم نفس اجتماعي يعتمد في جوهره على هذه النظرية . واستطرد في تحليله لينشئ على أساسها أصول علم الاجتماع وعلم السياسة .

وتهم هذه النظرية بالبناء التكويني للمجال . وتحليل هذا التكوين يؤدي إلى فهم ومعرفة سلوك الأفراد والجماعات .

والمجال — كما يراه ليثين وبراون — غير ثابت أو مستقر بل هو ديناميكي يتكون ويعيد تنظيم مكوناته في وصوله إلى الأهداف التي هي جزء منه . والعلاقات المكانية التي تنتشر داخل المجال، ليست مجرد علاقات مكانية جغرافية بل هي في جوهرها علاقات نفسية .

والتحليل العلمى الذى يستند فى مقوماته على نظرية المجال يقوم على الوصف التجريبي للظاهرة كما تحدث لا كما يُظن أنها ستحدث . ولا تتعارض هذه النظرية مع تقسيم الجماعات إلى أولية وثانوية ، وداخلية وخارجية ؛ بيد أنها تضيف إلى تلك التقسيمات ناحية ديناميكية فتفرق بين أنواع الجماعات على أساس قوة المجال أو ضعفه ، ودقة وضوح تكوينه أو غموضه .

المجال النفسى

يمكننا أن نمثل مجال الفرد — فى لحظة ما — بقطاع فى شبكة حياته النفسية . فهو إذن يشمل الشخص بتكوينه الفسيولوجى وتكوينه العصبى النفسى وبيئته المحيطة به . أى أنه قطاع فى البيئة الداخلية والبيئة الخارجية . وبما أنه مرتبط باللحظة الحاضرة فهو مرتبط بماضى الشخص لارتباط اللحظة الحاضرة باللحظات التى سبقتها ومضت مناسبة فى تيار الزمن . وهو مرتبط أيضاً باللحظة المقبلة لارتباطه الوثيق باللحظة الحاضرة . فهو إذن متصل بما كان وبما هو كائن وبما سيكون . وهذا الارتباط المتشابك الوثيق يتصل بالمجال اتصالاً زمنياً يقوم على تفاعل الفرد مع مظاهر الزمن الثلاثة ؛ ماضيه وحاضره ومستقبله . وماضى الفرد يتشكل دائماً بحاضره . فالفرد حينما يسترجع ما مر به فى حياته الماضية ، يصبغ ما يسترجع بلون حاضره . وحينما يتسامى إلى مستقبله رجماً بالغيب ينحدر بهذا المستقبل إلى حاضره . فهو يصنع الزمن فى رحاب هذا الحاضر . فالمجال الذى ينتشر ويمتد فى حاضر الفرد هو نفسه المجال الذى نعتى هنا بتحليله .

وينشأ المجال من رواقد تيارات ثلاثة :

- ١ — بيئة الفرد الخارجية .
- ٢ — التكوين الفسيولوجى للفرد .
- ٣ — الآثار العصبية لخبرة الفرد الماضية .

والجمال النفسى وحدة ديناميكية ، وكل يتكون من تفاعل وعلاقات تلك الروافد . وبما أنه وحدة وكل فهو إذن يمايز ويختلف عن أى تيار من تياراته تلك . وكمليته تضى عليه صفات جديدة لا تكاد تُرى أو توجد فى مكوناته . وقد يمكن إعادة تنظيم تلك المكونات على أساسين :

١ - بيئة خارجية ، تشمل البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية .

٢ - بيئة داخلية ، تشمل التكوين الفسيولوجى العصبى النفسى .

وتتصف هاتان البيئتان بصفات نفسية ذاتية . وهما بذلك يمايزان ويختلفان عن البيئة الموضوعية الحقيقية . فالنفسية تعتمد على إدراك الفرد لها وشعوره بها ووصفه إياها . والحقيقية هى تلك التى يصفها له الناس وصفاً موضوعياً . فيبتلى الموضوعية وأنا أكتب هذه الفكرة الآن تلخص فى كل ما يحيط بى . ويبتلى النفسية الذاتية تضى على الصفحة التى أمامى حياة وروحاً . وترى فيها فكرة تنمو وتتسع ويفيض بها خاطرى أحياناً فيسرع بها قلمى ، وقد تضطرب وتختفى بين الأشباح فيغيب عن ناظرى القلم والصفحة المنشورة أمامى ؛ وأحس كأننى أعدو وراء المجهول الذى لا أراه والذى تستهوينى أطرافه فألاحقه لأتبين أمره . والبيئتان بصورتها تلك جد مختلفتان . فأما الحقيقية الموضوعية فلا تعنينا فى دراستنا للجمال ، وأما النفسية فهى ما نبغى .

وبهذا فكل ظاهرة نفسية تقوم على دعائم مختلفة تتكون من البيئة الطبيعية المحيطة بالفرد ، والبيئة الاجتماعية ، والتكوين العام لشخصية الفرد من نواحيه الفسيولوجية والعصبية النفسية .

والجمال النفسى الديناميكى لا يقوم بطريقة مباشرة على تلك البيئات كما هى ، ولكنه يقوم فى جوهره على كيفية إدراك الفرد لها .

ولهذا يقرر ليثين وأتباعه أن الجمال النفسى الديناميكى يقوم على حقائق شبيهة

بالطبيعية Quasi-Physical Facts . فالحقائق الطبيعية التي تحيط بي وأنا جائع قد تكون هي نفس الحقائق الطبيعية التي تحيط بي وأنا شبعان . لكن إدراكي لها وشعوري بها يختلف باختلاف حالتى النفسية . فوجود الطعام أمام الجائع يختلف في جوهره النفسى ومعناه عن وجوده أمام الشبعان .

ويمكننا أن نستطرد في تحليلنا هذا لنوضح الفرق بين الحقائق الاجتماعية والحقائق الشبيهة بالاجتماعية Quasi-Social Facts ، وبين الحقائق العقلية والحقائق الشبيهة بالعقلية Quasi-Conceptual Facts .

وهكذا يقرر ليثين أن المجال النفسى الديناميكى هو في جوهره وحدة متكاملة يقوم على أركان ودعائم شبيهة بالحقائق الطبيعية وشبيهة بالحقائق الاجتماعية وشبيهة بالحقائق العقلية .

دراسة مقارنة للمجالات المختلفة

المجال — في علم النفس الكلى — مُدرك مُشتق من أبحاث علماء الطبيعة . ولقد كان لأبحاث ماكسويل Maxwell وفارادى Faraday الأثر البالغ في تأكيد أهمية المجال كنموذج علمى يصلح لتفسير الظواهر المغناطيسية الكهر بائية المنتشرة في الكون . فالمغناطيس يؤثر في الوسط المحيط به ويحدث به تنظيلاً خاصاً لخطوط القوى ، وتلك بدورها تؤثر في برادة الحديد التي تقع بالقرب منه . والتيار الكهر بائى ينشر حوله مجالاً كهر بائياً يتبعه في سيره وفي انطلاقه .

وبذلك تهتم فكرة المجال بالحيط الذى تقع فيه الأحداث أو الوسط الذى تتفاعل فيه الظواهر .

هذا ولقد شاع استخدامها بين علماء النفس ؛ فاستخدمها كيرل وأتباعه لدراسة الإدراك . وأسفرت نتائج أبحاثهم عن أن الكائن الحى ككل ، يدرك الموقف الإدراكى

السكى المحيط به ^(١).

وظهرت أيضاً في أبحاث هويلر وقوانينه الكلية الحيوية . ولقد حاول أن يقيم قوانينه على دعائم المجال الديناميكي . هذا ولقد تناولنا هذه الأبحاث والقوانين بالدراسة والتحليل في الفصل الثامن من هذا الكتاب .

وحاول جنجرلي J. A. Gengerelli أن يبحث المجال العصبي وعلاقته بعملية التعلم في دراسته المشهورة « مجالات المنح وعملية التعلم » ^(٢).

هذا وتختلف أبحاث كيرت ليفين عن هؤلاء جميعاً في أنها تؤكد النواحي الذاتية الشبيهة بالبيئة الحقيقية ، وفي أنها أيضاً تهتم بالناحية الاجتماعية . فهو لا يهتم كثيراً بمجال المنح أو بالمجال الحاسي ، لكنه يهتم بالمجال الذي يحتوي الفرد والأفراد الآخرين ، وهو مع ذلك لا ينكر المجال الفردي .

وهكذا تؤدي بنا هذه الدراسة المقارنة إلى أن نقرر أن المجال نموذج رياضي يؤكد الناحية المكانية . وهو بوضعه هذا وسط تنتشر فيه ظواهر السلوك عامة . فالإدراك والانفعال والتعلم ، ظواهر نفسية تحدث كلها في المجال النفسي كما تحدث الظواهر الكهربية في المجال الكهربي ، والمغناطيسي ، وكما تحدث ظواهر سقوط الأجسام المختلفة نحو الأرض ، في مجال جذب الأرض . فالظواهر العلمية ، تُنسب إلى مجالات

i) Koehler, W., Gestalt Psychology, 1929.

ii) Brown, J.F., "On the Effect of Field Structure on Differential Sensitivity", Psychol. Forsh., 1932, 16, p.p. 355 — 372.

iii) Koehler, W., Gestalt Psychology : An Introduction to New Concepts in Modern Psychology, 1947, especially P. 103 where he said., "Our view will be that, instead of reacting to local and mutually independent events, the organism responds to the pattern of stimuli to which it is exposed : and that this answer is a unitary process, a functional whole, which gives, in experience, a sensory scene rather than a mosaic of local sensations."

2. Gengerelli, J. A., Brain Fields and the Learning Process, Psychol. Mon., 1934, 203, PP. 1 — 115.

مختلفة . ولنضرب لذلك مثلاً ، مَلءَ القلم حبراً ؛ فهذا الفعل أو ذلك السلوك يخضع لدراسات وتفسيرات عدة ؛ ولكل دراسة من هذه الدراسات وجهة خاصة في تفسيرها لهذا الفعل . ولعل أهم تلك التفسيرات هي التفسير الطبيعي ، والكيميائي ، والبيولوجي ، والفسولوجي ، والنفسي ، والاجتماعي . فالتفسير النفسي مثلاً يرى في هذا الفعل نشاطاً كلياً يتكامل نحو هدف خاص . وكل تفسير من هذه التفسيرات يعتمد في جوهره على تجريد إحدى صفات هذا الفعل . وهذه الصفة تُدرس بالنسبة للمجال الذي يلقي ضوءاً على نواحيها المختلفة فهي من ناحيتها الطبيعية ظاهرة تقع في مجال جذب الأرض ، ومن الناحية النفسية سلوك يشق وجوده من المجال النفسي .

وللمجال النفسي نماذج مختلفة يصلح كل منها لتفسير الظاهرة العلمية التي يعالجها من زوايته الخاصة . فالمجالات الحاسوبية تقوم بتفسير الإدراك تفسيراً علمياً صحيحاً .

ومجال فعل الفرد يقوم في جوهره على السلوك الذي يهدف نحو غاية خاصة . ولهذا يصلح هذا المجال لدراسة الدوافع بأنواعها المختلفة . وبذلك يمكن توضيح سلوك الكائن الحي في وصوله إلى هدفه ، بخط طوله يساوي القوة التي يبذلها الكائن في سلوكه . وبسهم في نهاية الخط يرمز إلى اتجاه السلوك . والنموذج العلمي الذي أنشأناه هنا يتلخص في خط موجه من الكائن الحي إلى الهدف . لكن الكائن الحي والهدف والصلة التي تربطهما ، تقع كلها في مجال نفسي . فالهدف نقطة داخل هذا المجال ؛ والقوة التي تكن وراء السلوك خط موجه .

ولنوضح هذا النموذج العلمي بمثال الفأر الذي يحاول أن يصل إلى قطعة من الجبن فالفأر والجبن يحتويهما مجال ما . ويمتد سلوك الفأر للوصول إلى قطعة الجبن كخط موجه ، يرمز طوله إلى القوة الكامنة وراء السلوك ويرمز السهم الذي ينهائته إلى اتجاه السلوك .

ومثال الفأر والجبن يسفر عن مجال محدود دقيق في تكوينه ^(١) . ذلك بأن تحديد موقع الفأر ، وموقع قطعة الجبن أمر واضح .

1. Infinitely Structured.

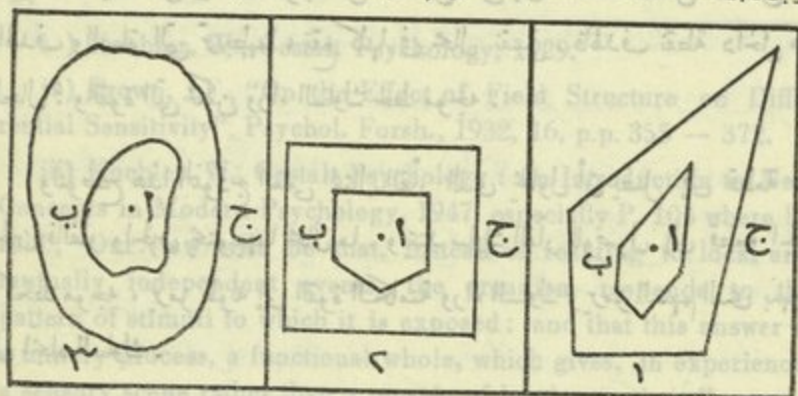
هذا وقد تكون درجة تكوين المجال أقل وضوحاً من المثل السابق ^(١) ، كمثل الطالب الذي يسعى إلى حل تمرين هندسي . فمنطقة الهدف واضحة لكن موقع النقطة التي تدل عليه وتحدد مكانه غامضة .

وقد يكون المجال خالياً من التكوين الواضح ^(٢) ، وذلك عند ما يستحيل تحديد كنه وماهية وموقع الهدف ومدى ارتباطه بالكائن الحي .

وبذلك فدرجة تكوين المجال تختلف وتباين وتراوح بين الدقة والعدم ؛ وتنقسم إلى تكوين دقيق أو تكوين عام أو تكوين معدوم .

الدراسة التوبولوجية

التحليل القائم على الخطوط الموجهة ، يعتمد على القياس والأبعاد . ذلك لأن طول الخط الموجه يمثل القوة الكامنة وراء السلوك . والطول هنا أحد الأبعاد التي تخضع للقياس . لكن العلاقات النفسية الاجتماعية لا تخضع دائماً للقياس بمثل هذه السهولة . والقوانين التي تفسر مظاهر هذا السلوك تجد لها نموذجاً علمياً صالحاً للدراسة في نطاق علم المواقع غير القياسية أو التوبولوجي Topology هذا ويمكن توضيح الخواص التوبولوجية للمنحنيات المختلفة بالشكل (١٦) . فالأشكال (١ ، ٢ ، ٣) تختلف عن



(شكل ١٦) توضيح بعض الخواص التوبولوجية

1. Structured.
2. Unstructured.

بعضها بالنسبة لأطوال خطوطها وبالنسبة لأبعاد النقطة (أ) عن الإطارين (ب)، (ج). لكن هذه الأشكال لا تختلف عن بعضها بالنسبة للتحليل التوبولوجي. ذلك لأن النقطة (أ) تقع دائماً داخل الإطار (ب) رغم اختلاف الأشكال. والإطار (ب) يقع دائماً داخل الإطار (ج) رغم اختلاف الأشكال. وتلك — جميعها — علاقات توبولوجية لأنها لا تعتمد في جوهرها على قياس الأبعاد.

وبهذه الطريقة التوبولوجية تمكن ليثين من دراسة العلاقات الاجتماعية القائمة بين الأفراد، وتمكن أيضاً من دراسة حركتها المتغيرة وديناميكيتها.

وبذلك يمكننا أن نرمز إلى المجال الذي يحتوي الأفراد برسم ما، كالشكل الدائري أو الشكل البيضاوي، ونرمز إلى الفرد نفسه بمنطقة خاصة داخل هذا المجال، ونرمز لمسار الفرد بخط يصله بهدفه، ونرمز للعقبات التي تعترض الفرد وتحدد من حريته بمناطق مختلفة ومنحنيات عدة. وهكذا تتضح معالم المجال وتتضح بذلك معالم الموقف الكلي.

وسنذكر — فيما يلي — بعض الأمثلة التي توضح طريقة ليثين التوبولوجية في دراسة ديناميكية بعض العلاقات الاجتماعية.

ولقد حاول ليثين أن يوضح طريقته التوبولوجية بحالة الطفل الصغير الذي تحول أمه بينه وبين لعبه حتى يتسنى لها إطعامه. ولنفرض أن الطفل يمتنع عن تناول طعامه لأنه يود الاستمرار في لعبه. وبهذا فالدائرة التي ترمز إلى الطفل في شكل (١٧) تقع في نهاية منطقة الغذاء وقريباً من منطقة اللعب. ولقد تحتضن الأم طفلها حتى تحول بينه وبين اندفاعه إلى اللعب. وبذلك يتخذ سلوك الأم شكل العائق الموضح في الرسم. وهذا العائق يقوم بين منطقتي الغذاء واللعب. ويمثل البيضاوي السميك قوة هذا العائق. وقوة العائق تقيد حرية حركة الطفل حتى لا يبتعد عن الملعقة التي تقع داخل منطقة الغذاء.



شكل (١٧)
توبولوجية الطفل وأمه

وبهذا فحرية الحركة - داخل المجال - تعتمد إلى حد كبير على عدد وقوة العوائق التي تحد من تلك الحرية وتضعفها. فحرية السجين في حركته مُقيّدة بجدران السجن. وحرية الحركة في المجال الاجتماعي مُقيّدة بالنظم القائمة، والمعايير، والقيم المرعية، والإطار الثقافي الذي يهيمن على المجتمع.

ومن الأمثلة التي عالجها ليثين بالتفصيل^(١)، مثال طالب الثانوى الذى يطمح فى أن يكون طبيباً. ويمكننا توضيح هذا المجال كما فى شكل (١٨) حيث ترمز المنطقة الدنيا إلى الطالب قبيل حصوله على شهادة إتمام التعليم الثانوى (التوجيهية). وترمز المناطق التى تليها إلى العقبات التى تعترض طريق الطالب فى وصوله إلى هدفه. فعليه أولاً أن يجتاز المنطقة الأولى، وذلك بنجاحه فى امتحان التوجيهية. وهو حينما يجتاز هذه المنطقة يتطور فى حركته من منطقة لمنطقة أخرى، ويتطور فى شخصيته من مستوى لمستوى آخر ويتغير تكوين المجال بالنسبة له، لتغير إدراكه له. وعليه بعد ذلك أن يجتاز المناطق الأخرى التى تتلخص فى نجاحه فى امتحانات الكلية، ثم فى اجتيازه منطقة المراتن العملى حتى تؤدى به إلى الوصول إلى منطقة الهدف التى تقع فى المنطقة العليا من المجال كما هو موضح بالشكل.

1) Lewin, K., Principles of Topological Psychology, 1936, Chapter 6, examples 5 and 6 ; p.p. 47 - 49.



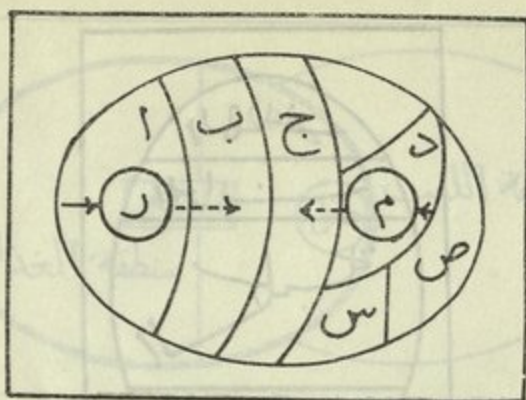
شكل (١٨)
توبولوجية الطالب وهدفه

هذا وكلما اجتاز الطالب عقبة من العقبات التي تفصله عن هدفه ، كلما تغير إدراكه الموقف الكلي ، وتغير — بذلك — حكمه على العقبات التي ما زالت تحول بينه وبين هدفه ، وتغير — أيضاً — سلوكه . فهو إذن في حركة متطورة ، في مجال ديناميكي .

ولقد نشر ليثين — قبيل وفاته سنة ١٩٤٧ — بحثاً يوضح الناحية التنبؤية لنظريته التوبولوجية . وذهب إلى أن في مقدوره أن يتنبأ ويستنتج مستقبل الحياة الزوجية للرجل والمرأة^(١) ، وذلك بدراسة مجال الرجل ، ومجال المرأة ، ومجالهما الاجتماعي المشترك .

ويتكون مجال الرجل — كما في شكل (١٩) من بينته الشبيهة بالطبيعية ، وبينته الشبيهة بالاجتماعية ، والرجل نفسه وما يرجوه من المرأة التي ستشاركه حياته الزوجية . والمجال بهذا المعنى يصف لنا قطاعاً في حياة الرجل . فهو بذلك يحتوي على فكرة

(1) Lewin, K., Frontiers in Group Dynamics, Human Relations, 1947, 1, P.P. 5-41.

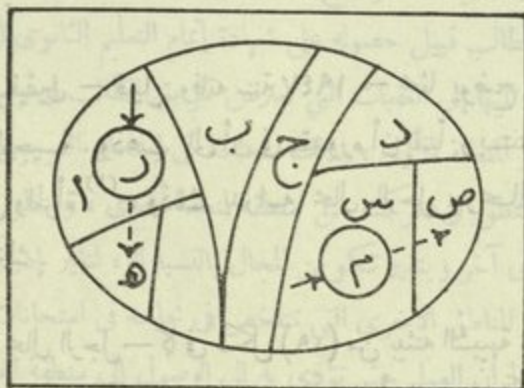


شكل (١٩)

توضيح توبولوجي لمجال الرجل

الرجل عن نفسه ، وعلى فكرة الرجل عن المرأة ، لكنه لا يصف لنا شيئاً عن مجال المرأة وفكرتها - هي - عن الرجل^(١) . وهكذا تستطرد تلك الدراسة لتصف مجال المرأة كما وصفت مجال الرجل .

فإذا رمزنا للرجل بالرمز (ر) وللمرأة بالرمز (م) وللمناطق التي تفصلهما بالرموز (ا ، ب ، ج ، د ، هـ ، س ، ص ، هـ) ؛ فإن الرجل يرى نفسه في المنطقة (ا) ويرى زوجته في المنطقة (د) ؛ كما في شكل (١٩) .



شكل (٢٠)

توضيح توبولوجي لمجال المرأة

(١) راجع ص ٧٨ من كتابنا هذا ، حيث أوضحنا العلاقات المختلفة التي تفصل ما بين كل شخصين في (شكل ٧) .

وصفنا الأول وندرس — أيضا — مجال المرأة . وقد يؤدي بنا هذا البحث إلى أن نقرر لكل منهما منطقته التي تبعد — نوعا ما — عند منطقة الآخر ؛ وهذا يؤدي بنا إلى إقامة بعض العوائق النفسية التي تفصلهما وتحول بينهما وبين التألف الصحيح .

حيز الحياة

كل هذه الأبحاث التوبولوجية تقوم في جوهرها على دراسة حيز الحياة Life Space . أى أنها تقوم على تصوير دقيق لامتدادات الشخصية في مكانها النفسى وزمنها الحاضر . ذلك لأن حيز الحياة ، قطاع في حياة الفرد الراهنة — كما سبق أن بيّنا ذلك في مستهل هذا الفصل .

هذا وقد يتألف حيز الحياة من مستويات مختلفة تتباين في درجة قربها أو بعدها عن الحقيقة . فهو بذلك يتألف من طبقات بعضها فوق بعض تمتد إحدى نواحيها حتى توشك أن تقترب من الحقائق الموضوعية ، وتمتد نواحيها الأخرى حتى توشك أن تقترب من المعانى الخيالية البعيدة .

وتتغير درجة تعقيد حيز الحياة بتغير مراحل النمو . فالطبقات التي يتألف منها حيز حياة الطفل تبدو أقل عدداً وأكثر بساطة من الطبقات التي يتألف منها حيز حياة البالغ^(١) .

ديناميكية الجماعات

استقرار الجماعة أو تغييرها ، وسكونها أو حركتها ، وجودها أو تطورها — كلها

(١) راجع كتاب ليڤين «أصول علم النفس التوبولوجى» Principles of Topological Psychology. حيث يوضح تلك الفكرة برسم إيضاحى ص ٢٥٤ . ويقرر تحليله في العبارة التالية: —

“The life space of the adult is more highly differentiated in the dimension of reality—irreality. The range of reality and irreality layers in the life space of the child corresponds to an intermediate range of layers in the adult's life space”

ظواهر تعتمد في جوهرها على العوامل المختلفة التي تؤثر في الجماعة. وتسير بها نحو غاياتها الحيوية، أو تجنبها بعيداً عن طريقها السوي .

ومن الجماعات أنواع تتطور بسرعة، وأنواع أخرى تصمد أمام تلك المؤثرات وتمتص تلك الصدمات، وتبقى في مكانها لا تكاد تريم . ومن الجماعات أنواع أخرى ما تكاد تمضي قدماً في طريقها حتى تعود على أعقابها إلى سالف عهدتها القديم . فما هي إذن تلك القوى التي تبقى على استقرار الجماعات ؟ وما هي القوى الأخرى التي تدفعها دفعاً قوياً نحو ألوان أخرى من النشاط والأهداف ؟ وما هي تلك الجماعات التي تميل دائماً إلى التغيير ؟ وكيف ، ومتى تتغير ؟ وصوب أي هدف تسير ؟

ولقد اتجه ميدان علم النفس الاجتماعي في السنين الأخيرة لبحث هذه الديناميكية، ودراسة أسبابها، والتنبؤ بها، وضبط مقوماتها وأهدافها . وستقترن هذه الأبحاث دائماً — باسم ليثين K. Lewin الذي وهبها كل نشاطه في الأيام الأخيرة من حياته وساهم بقدر كبير في إنشاء معهد أبحاث ديناميكية الجماعات بأمريكا^(١) .

وتهمين على الجماعات المختلفة ديناميكية تنحوبها نحو التغيير، أثناء تكوين تلك الجماعات أو أثناء إعادة ذلك التكوين . وتنشأ هذه الديناميكية من التوتر الداخلي . وينشأ التوتر من الصراع القائم بين الأفراد أو بين العشيرات^(٢) . وينشأ الصراع من أمور عدة أهمها تعارض اتجاهات وأهداف أفراد الجماعة الواحدة، ورغبة البعض في الفوز بالزعامة، وثورة البعض الآخر على الزعيم القديم أو الزعيم الجديد، ومغالة الزعيم في بسط سلطانه أو رغبته في زيادة بسط هذا السلطان، وصراع العشيرات لاختلاف اتجاهاتها النفسية وتعارض أهدافها القريبة والبعيدة^(٣) .

(1) Lewin, K., The Research Center of Group Dynamics at Massachusetts Institute of Technology, Sociometry, 1945, 8, p.p. 126—136.

(٢) تطلق كلمة عشيرة Subgroup على الجماعة الصغيرة .

(3) Lewim, K., Constructs in Psychology and Psychological Ecology, 1944, Univ. Ia. Stud., 20.

وهكذا يؤدي التوتر إلى فقدان اتزان قوى المجال الداخلية . وتلك — بدورها — تؤدي إلى تغيير تكوين الجماعة . وينحو هذا التغير نحو إعادة الاتزان ؛ وذلك بإعادة توزيع القوى توزيعاً يكفل للجماعة الاستقرار .

ويتخذ التغير أساليب وطرق مختلفة في محاولته المتجددة لإعادة الاستقرار الكلى . وتتلخص أهم هذه الأساليب فيما يلي :

١ — تغيير العشيرات تغييراً يسفر عن اختفاء العشيرات المعارضة ، وظهور الأنواع الجديدة التي تتفق وخواص المجال العام للجماعة .

٢ — إبعاد بعض الأفراد ، إبعاداً يساعد مجال الجماعة على الاستقرار .

٣ — تغيير الزعماء حتى يستقر الأمر لزعيم يتفاعل تفاعلاً صحيحاً مع مقومات المجال العام .

٤ — تغيير الأهداف وإعادة تنظيمها وتكوينها بما يتفق ونظم الجماعة .

وقد ينحو التغير نحو إعادة الاستقرار الجزئي المؤقت ، فيتخذ لنفسه أساليب أو طرق أخرى يتلخص أهمها فيما يلي :

١ — تحويل الصراع الداخلى إلى صراع خاص ؛ فيتحول بذلك مجرى التوتر ويتبلور في سلوك عدائى يبدو في مقت وكره واضطهاد الجماعة لبعض أفرادها أو بعض عشيراتها .

٢ — تحويل مجرى التوتر نحو السلوك العدائى الخارجى . فتمتد الجماعة بعض الأفراد الذين لا ينتمون إليها ؛ أو تبغض بعض العشيرات الخارجية ؛ أو تكره الجماعات الأخرى التي لا تتصل بها من قريب أو بعيد .

هذا وقد يؤدي الصراع إلى انحلال الجماعة ذاتها ، واختفاء معالمها ومجالها ،

وذلك عند ما تشتد حدة التوتر، وعند ما تحقق الجماعة في الخلود إلى السكون والاستقرار الكلي والجزئي .

فاستقرار الجماعة يخضع لديناميكية نوعين مختلفين من أنواع القوى : تعمل الأولى على تماسك أفراد الجماعة وعلى تنظيم العلاقات الاجتماعية — داخل المجال — تنظيمًا يتفق وأهداف وحاجات واتجاهات الجماعة ؛ وتعمل الثانية على تشتيت شملها . وانحلال تماسكها ، وتوتر وصراع علاقاتها . فبقاء الجماعة رهن بازدياد قوى التماسك وتشتتها رهن بضعف هذه القوى ، ورهن أيضاً بازدياد قوى الانحلال . فقد تزول وحدة الأسرة ويتلاشى وجودها لازدياد قوى الانحلال والتوتر والصراع فتتفصم عروتها بانفصال الرجل عن المرأة بالطلاق . وقد تزول الجبهة وتتلاشى لضعف القوى التي تعمل على تماسك الجماعات .

هذا وتختلف درجة ثبات واستقرار الجماعة باختلاف تكوينها ، ولهذا تمتاز بعض الجماعات بصلابه حدودها وقوة دعائمها . فالجماعة الوثقى أشد ثباتاً من الجماعة الوسطى . والجماعة الأولية أبقى أثراً واستقراراً من الجماعة الثانوية .

وتخضع ديناميكية الجماعات للعوامل الخارجية التي تؤثر في قوى المجال الداخلية^(١) . فالصراع الداخلي الذي ينشأ بين أفراد الجماعة يزول ويتلاشى إذا انضم للفئة المستضعفة أفراد جدد يوازونها ضد الفئة القوية حتى تتعادل القوى .

وتؤثر درجة تنظيم الجماعة في سلوكها وديناميكيته . ولقد دلت تجارب فرنش French التي أجراها على جماعتين تواجهان خطراً قريباً يتمثل في حريق بالحجرة المجاورة^(٢) ، وكانت الجماعة الأولى تمتاز على الثانية بأنها منظمة تنظيمًا متسقاً دقيقاً — على أن استجابات الأولى تختلف عن استجابات الثانية في تمتعها بالحرية الاجتماعية ،

(1) Slavson, S.R., An Introduction to Group Therapy, 1943.

(2) French, J.R.P., Organized and Unorganized Groups under Fear and Frustration. In Studies in Topological and Vector Psychology, 1944.

وفي شعورها بالتبعية والتعاون . وفي مشاركة أفرادها مشاركة جديدة في النشاط الجماعي العام . لكنها — مع كل ذلك — كانت تنجح بسرعة إلى السلوك العدائي . وبذلك قد ينقلب اندفاع الجماعة المنظمة نحو التعاون ، إلى اندفاع نحو الخصومة والتنازع . ولقد دلت نتائج هذه التجربة على أن الجماعة المنظمة أسرع في استجاباتها للزعامة . فهي بذلك أكثر تأثراً بالفرد من الجماعة غير المنظمة .

الآفاق الجديدة لنظرية المجال الديناميكي

المجال الديناميكي نموذج عالمي يجمع شمل الظواهر النفسية في إطار كلي ينمو ويتسع في أبعاده المختلفة ، ويمتد وينكمش في تفاعله المستمر وحركته الدائبة . يقوم في كليته على دعائم عدة تسفر عن تطور مبدع . تضطرت في أعماقه روافد ثلاثة تتألف من البيئة الشبيهة بالطبيعية ، والبيئة الشبيهة بالاجتماعية والتكوين النفسي العصبي للفرد في لحظته الراهنة وامتداداته المكانية المحيطة به .

وهو يميل — بوضعه هذا — نحو نوع من التجريد والمقابلة التصويرية .

ولقد اتجه العلم في السنين الأخيرة نحو دراسة المجال دراسة ترتبط من قريب بالجهاز العصبي وقوانين الديناميكا الحرارية Thermodynamics^(١) . كما فعل كرتش D. Krech في سلسلة أبحاثه الأخيرة التي ما زالت تحاول في جهد ومشقة

(١) راجع — على سبيل المثال — كتاب شرودينجر E. Schrödinger «ما هي الحياة؟» What is Life? ، حيث حاول في أواخر سنة ١٩٤٤ أن يقيم دعائم علوم الحياة على أسس وقوانين الديناميكا الحرارية . راجع أيضا الأبحاث التالية : —

I. Brillouin, L., Life, Thermodynamics, and Cybernetics, Amer. Scientist, 1949, 37, p.p. 554—568.
II. Bertalanffy, L. von., The Theory of Open-System in Physics and Biology, Science, 1950, 111, p.p. 23—29.
III. Vallée, R., Cybernetics and the Future of man, Impact of Science on Society, 1952, 3, pp. 171—180.

أن ترسم الخطوط العريضة القوية التي تصل بين التكوين العصبي وديناميكية المجال^(١).

ويتلخص هذا الاتجاه الجديد في الفروض التالية :

١ - يجب أن ندرس التنظيم الديناميكي للمجال على أنه الوحدة الوظيفية لمجال المخ؛ وعلى أنه نشاط كهربائي حيوي . ويستند هذا الفرض إلى الأبحاث الحديثة في علم الأعصاب ، وعلى نتائج تجارب كيلر Köhler وهيلد Held التي تدل دلالة واضحة على وجود تيارات كهربائية بالمخ^(٢).

٢ - قد ينبعث التنظيم الديناميكي للمجال تلقائياً ؛ ويتطور نحو مستويات معقدة غير متجانسة التكوين . وهو - في تطوره - يمتص الطاقة من بيئته أو يشعها حوله حتى يصل بذلك إلى مستوى تعادل القوى المؤثرة .

٣ - تسفر التنظيمات الديناميكية للمجال - وهي في نهاية اتساقها - عن درجة عالية من الثبات والاستقرار . وقد تحتفظ بهذا الاستقرار وهي تمضي في عملها ونشاطها . ويعتمد مدى الاستقرار على توجيه بعض قوى المجال لمقاومة العوامل التي تهدد هذا الثبات .

-
1. i . Krech, D, Notes Toward a Psychological Theory, J. Person, 1949, 18, p.p. 66 - 67.
 - ii , Dynamic Systems, Psychological Fields and Hypothetical Constructs, Psych. Rev., 1950, 57, pp. 783 - 790.
 - iii., Dynamic Systemes as open Neurological Systems, Psych. Rev., 1950, 57, pp. 345 - 361.
 - iv., A Note on "Dynamic Systems" and Theory Construction, Psych. Rev., 1952, 59, p. 268.
 - v . Kessen, W., and Kimble, G. A., "Dynamic Systems" and Theory Construction, Psych. Rev., 1952, 59, p p. 263-267.
 2. Köhler. W., and Held, R., The Correlate of Pattern Vision, Science. 1949, 110, p.p. 414 - 419.

٤ - تتصل التنظيمات - بعضها ببعض - اتصالاً مباشراً . ولكل تنظيم من هذه التنظيمات علاقة وثيقة بمنطقة خاصة من مناطق المخ . فهي بذلك تعتمد على المخ كله لاتصالها الذي يربط بينها جميعاً . وتعتمد أيضاً على نواحي خاصة من علاقاتها الوثيقة بتلك المناطق . ويستند هذا الفرض على التجارب والأبحاث التي تدور كلها حول جراحة المخ وأثرها في وظيفته . وتدل هذه التجارب على أن أى إتلاف لمساحات صغيرة من مناطق المخ لا يؤثر كثيراً على وظيفته لأنه يعمل ككل له وحدته العامة .

هذه الفروض تصل بين النواحي التشريحية الفسيولوجية للإنسان وبين نواحيه النفسية وتحاول أن تستعين بالطاقة في تفسير هذه الظواهر وتلك خطوة جريئة لا يعيها - الآن - إلا قلة التجارب التي تؤيدها أو تعدلها . ولنا أن نتقبلها بشيء من اليقظة والحذر حتى ينشط الباحثون في دراستها ، دراسة تجريبية واسعة . وتكاد تُسفر أصولها ودعائمها وإمكانياتها عن احتمال تطورها إلى مستوى القوانين والنظريات .

ومن أهم الأبحاث النظرية التي قد تؤيد الفرض الثاني من فروض كرتش ، البحث الذي نشره أخيراً وبستر H. Webster^(١) وحاول فيه أن يدرس الطاقة وهي في مجالها الديناميكي الاجتماعي . وهو يذهب إلى أن الطاقة الكامنة تبدو في المكانة الاجتماعية والتقدير والمركز أو المنزلة . وتبدو الطاقة الحركية في التفاعل الذي يسفر عن الصراع . ويستطردو بستر في بحثه مستعيناً بالقوانين الرياضية للديناميكا العامة ، وخاصة قانون هاملتون Hamilton^(٢) فيقرر أن السلوك الاجتماعي يهدف إلى تصغير فرق الطاقة ، فإذا زادت الطاقة الكامنة عن الحركية ، فالسلوك يميل إلى تصغير الأولى

1, Webster, H., Dynamic Hypotheses in Psychology, Psychol. Rev., 1952, 59, p.p. 168 — 171.

(٢) يمكننا أن نلخص قانون هاملتون في العبارة التالية « في أى تنظيم للجسيمات التي لا تخضع إلا لقوى جذب بعضها البعض — يتحرك أى جسيم لمدة ما في مسار خاص حتى يصبح فرق الطاقة الكامنة والطاقة الحركية مساوياً للنهاية الصغرى لذلك التنظيم » .

وتكبير الثانية حتى يتلاشى الفارق القائم بينهما . وحينما تتساوى الطاقتان فإن السلوك يميل إلى الاحتفاظ بهذا التعادل والاتزان مدة طويلة .

تلك هي الآفاق النظرية لديناميكية الجماعات وديناميكية الفرد . أما آفاقها التجريبية فقد اتخذت لنفسها وجهة أخرى تهدف إلى ربط ميادين علم النفس ، وعلم النفس الاجتماعي ، وعلم الاجتماع ، وعلم الأجناس البشرية ، وربطاً تجريبياً يؤلف من ميادينها ميداناً مشتركاً ممهداً للبحث والدراسة ؛ وإلى دراسة ديناميكية الجماعات الصغيرة وأثرها على الأفراد ؛ وإلى محاولة عزل الصفات المختلفة المميزة لتلك الجماعات ، والعوامل المتباينة التي تؤثر فيها ، وتنظيمها تنظيمياً يتفق ومنطق المجال الديناميكي ؛ وإلى قياس ديناميكية تلك الجماعات ، والاستعانة بنتائج تلك التجارب في تربية القادة والرؤساء ؛ وفي معرفة أنجع أساليب العلاج النفسي الجماعي ؛ وفي استكشاف العوامل المؤثرة في الانتاج الجماعي ، وأثر إدراك الأفراد لهدف الجماعة في زيادة هذا الانتاج وأثر الجماعة في إدراك الفرد وتفكيره وحكمه على المعايير المختلفة ؛ وفي معرفة أقرب وأنجع الوسائل لتكوين الجماعات القوية .

المراجع

1. Garrett, H.E., Lewin's Topological Psychology : An Evaluation, Psychol. Rev., 1939, 46, P.P. 517—524.
2. Heidbreder, E., Lewin's Principles of Topological Psychology, Psychol. Bull., 1937, 34, P.P. 584—604.
3. Leeper, R.W., Lewin's Topological and Vector Psychology, 1943.
4. Lewin, K., The Conflict between Aristotelian and Galileian Modes of Thought in Contemporary Psychology, J. Gen. Psychol., 1931, 5, P.P. 141—177.
5., Vectors, Cognitive Processes, and Mr. Tolman's Criticism, J. Gen. Psychol., 1933, 8, P.P. 318—345.
6., The Conceptual Representation and the Measurement of Psychological Forces, Contr. Psychol. Theor 1938, 1, P.P. 1—247.
7., Field Theory and Experiment in Social Psychology: Concepts and Methods, Amer. J. Social., 1939, 44, P.P. 868-897
8., Psychology and the Process of Group Living, J. Soc. Psychol., 1943, 17, P.P. 113—131.
9., Defining the "Field at a Given Time", Psychol. Rev., 1943, 50, P.P. 292—310.
10. Tolman, E.C., Kurt Lewin 1890—1947, Psychol. Rev., 1948, 55, P.P. 1—4.

الفصل العاشر

التخطيط الاجتماعي

وقياس ديناميكية الجماعات

مقدمة

استعرضنا في نهاية الفصل السابق الآفاق الجديدة لديناميكية الجماعات في ميدانها النظري وميدانها التجريبي . وسنحاول في هذا الفصل أن ندرس الأسس العلمية والعملية الحديثة لقياس تلك الديناميكا ، دراسة مستفيضة تتناول :

١ — التخطيط الاجتماعي .

٢ — مصفوفات العلاقات الاجتماعية .

٣ — الطرق الإحصائية المختلفة .

وسنوضح تلك الدراسات بمناقشة نتائج بعض الأبحاث التي قام بها المؤلف .

ولقياس ديناميكية الجماعات أهمية بالغة في الميادين المختلفة التي يتفاعل فيها الفرد مع الجماعة مؤثراً فيها ومتأثراً بها . فالمدرس وتلاميذه يمثلان ديناميكية لها صفاتها المميزة . وجماعات العمال تتميز بطابع خاص يختلف عن الطابع المميز لجماعات الطلبة . ويهتم الباحث في دراسته لتلك الديناميكيات بمعرفة العُشيرات التي يمكن أن تنقسم إليها الجماعات ؛ وخطوط الانحلال التي تعمل على تفرقة الأفراد ؛ وخطوط

التماسك التي تعمل على جمع شملهم ؛ ودروب السيطرة ومنايع القوة ؛ ومسار الإشاعات ومستويات انتشارها ؛ وعوامل ومدى التكيف الاجتماعى الصحيح .

١ - التخطيط الاجتماعى

أدت تجارب مورينو J. L. Moreno إلى دراسة تكوين الجماعات وطرق تنظيمها^(١) . وتقوم الفكرة الجوهرية لتلك الأبحاث على رصد ودراسة ديناميكية العلاقات الاجتماعية . ولهذا تُعرف هذه الطريقة باسم « القياس الاجتماعى »^(٢) . لأنها تحاول تنظيم هذه العلاقات تنظيماً يخضع لقياس الأبعاد النفسية فى امتداداتها الفردية - الجماعية . وترصد نتائج هذه الأبحاث على شكل رسوم توضيحية تتكون من خطوط تصل ما بين الأفراد . ولهذا يطلق على هذا الرصد اسم « التخطيط الاجتماعى »^(٣) .

ومن أهم أهداف هذه الطريقة قياس قوى الجذب والنفور التى تنشط وتسفر عن نفسها فى اجتماع الناس بعضهم ببعض . ويكاد يقتصر ميدان بحثها على دراسة الجماعات الصغيرة .

ولعل أهم ما يميز طريقة مورينو وأتباعه ، أنها طريقة فى البحث أكثر مما هى نظرية فى العلم . ولقد أدت إلى اكتشاف حقائق علمية جديدة تصلح لتفسير بعض مظاهر الحياة النفسية فى آفاقها الاجتماعية ؛ وأدت أيضاً إلى دراسة حياتنا اليومية ، وإلى إمكان تنظيم هذه الحياة على أسس علمية قوية تقوم على التآلف والتآزر ، وسعادة الفرد وتماسك الجماعة . فهى بذلك تحقق لعلم النفس الاجتماعى بعض أهدافه التى سعى وما زال يسعى لبلوغها .

1. Moreno, J. L., Who Shall Survive? A New Approach to the Problem of Inter-human Relations, 1934.
2. Sociometry.
3. Sociogram.

التخطيط الاجتماعي لجامعة مصرية

سند كر فيما يلي مثالا من أمثلة التجارب التي أجراها المؤلف على طلبة جامعة إبراهيم . وتتألف العينة التجريبية من ١٥ طالباً من خريجي كليات العلوم والزراعة والآداب ودار العلوم ؛ جمعهم دراسات معهد التربية في مجموعة واحدة للاشتراك معاً في تجارب معمل علم النفس ومناقشاته . ولقد طُلب إلى كل منهم أن يختار — من بين أفراد تلك المجموعة — أحب فرد إليه . ولقد رمزنا إلى كل طالب برقم خاص . والجدول التالي يوضح رقم كل طالب ، ورقم الطالب المختار .

أرقام الطلبة	الاختيار	أرقام الطلبة	الاختيار	أرقام الطلبة	الاختيار
١	٨	٦	٩	١١	١٣
٢	٥	٧	١٠	١٢	١٠
٣	٨	٨	١٠	١٣	٨
٤	٨	٩	٦	١٤	٨
٥	١٢	١٠	٣	١٥	١٠

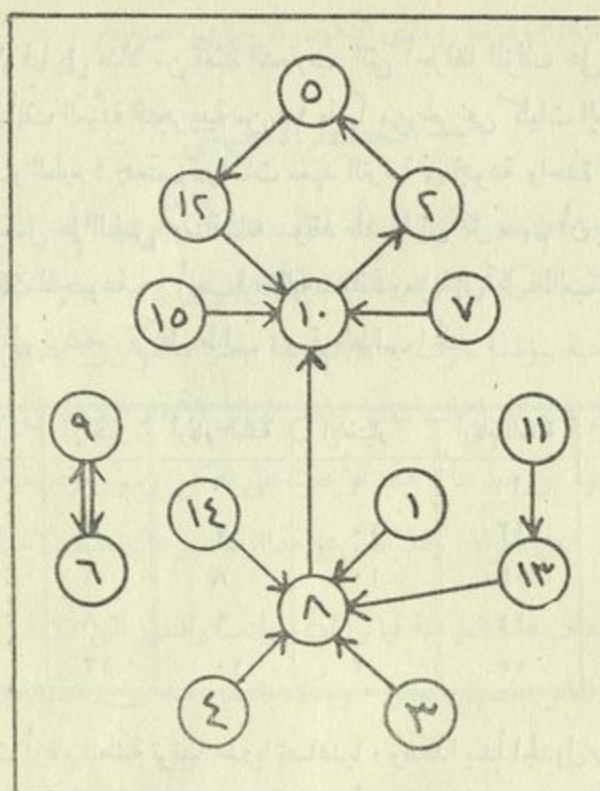
ورببت أرقام الطلبة ترتيباً عددياً تصاعدياً . وهكذا يبدأ الجدول برقم (٩) الذي اختار رقم (٨) ؛ وينتهي برقم (١٥) الذي اختار رقم (١٠) .

فإذا رمزنا لكل طالب بدائرة تحمل رقمه ، ورمزنا للاختيار بخط يصل ما بين كل طالبين ورمزنا لاتجاه الاختيار بسهم في نهاية كل خط ، ثم رصدنا هذه الرموز المختلفة رسداً يوضح تكوينها فإننا نصل بذلك كله إلى التخطيط الاجتماعي للجامعة الطلبة كما يبدو ذلك في شكل (٢٢) .

التكوين العام للتخطيط الاجتماعي

يتكون هذا التخطيط من ذرات اجتماعية Social Atoms . وتتكون كل ذرة من فرد يتوسطها كالنواة ، وأفراد آخرين يحيطون به . ومن أمثلة هذه الذرات الاجتماعية الطالب رقم (٨) والأرقام التي تدور في فلكه مؤثرة فيه أو متأثرة به ،

وهذا يعني الأرقام التالية: (١٠، ١٤، ٤، ٣، ١٣، ١)



شكل (٢٢)

التخطيط الاجتماعي لجامعة مؤلفة من ١٥ طالباً من طلبة الجامعة

وتتصل كل ذرة بالذرات الأخرى اتصالاً يؤلف منها تنظيمًا متناسقاً يُسمى
بالشبكة الاجتماعية Social Network

ويطلق على التكوين الكلي الذي يشتمل على الذرة بعلاقاتها المباشرة وعلاقاتها
البعيدة اسم الحجم التعارفي Acquaintance Volume . ومن أمثلته في هذه التجربة
التنظيم الذي يشتمل على الأرقام (١٠، ١٤، ٤، ٣، ١٣، ١)

أنواع العلاقات التخطيطية الاجتماعية

تنقسم العلاقات التخطيطية الاجتماعية إلى الأنواع التالية :

١ - علاقات مزدوجة متبادلة

وتبدو في التبادل المزدوج القائم بين فردين ، كمثل (٩ ، ٦) . ولا شك أن انتشار هذا النوع من العلاقات يؤدي إلى انعدام التماسك الداخلي للجماعة . وتكثر هذه العلاقات في المراحل الأولى من النمو الاجتماعي للأطفال .

٢ - علاقات مركزية

وتبدو في اختيار الجماعة لفرد واحد منها ؛ كمثل اتجاه علاقات (١ ، ١٣ ، ٣ ، ٤ ، ١٤) نحو (٨) . واتجاه علاقات (٨ ، ١٢ ، ٧ ، ١٥) نحو (١٠) . وتُفسر هذه العلاقات عن زعامة (٨) وزعامة (١٠) . وتُفسر أيضا عن احتمال فوز (٨) بزعامة هذه الجماعة ، وعن احتمال فشل (١٠) . ذلك لأن العلاقات التي تتجه نحو (٨) تزيد على العلاقات التي تتجه نحو (١٠) . لكن (٨) يتأثر بـ (١٠) . ويبدو ذلك في اختيار (٨) لـ (١٠) . ولهذا فإن زعامة (٨) تستمد بعض قوتها من (١٠) . ولهذا العلاقات أهميتها البالغة في معرفة التجمعات الداخلية للجماعة . واستكشاف أنواع العشيرات التي قد تنقسم لها الجماعة . ذلك لأن (١ ، ١٣ ، ٣ ، ٤ ، ١٤) تمثل عشيرة يترزعما (٨) ؛ وقس على ذلك العشيرات الأخرى .

٣ - علاقات متتابعة

وتبدو في تواتر اختيار الأفراد ؛ كمثل (١١ ، ١٣ ، ٨ ، ١٠ ، ٠٠٠) . ويساعد هذا التتابع على انتشار الإشاعات بسرعة داخل الجماعة . ولذلك يصلح هذا النوع من العلاقات لدراسة الإشاعات دراسة علمية تسفر عن العوامل التي تساعد على الانتشار والعوامل التي تعوقه . ذلك لأن (١١) بنقل أخباره إلى (١٣) وهذا ينقلها بدوره إلى (٨) وهكذا يستمر سرعان الإشاعة .

٤ - علاقات دائرية

وهي كالمتتابعة ، تبدأ من فرد إلى فرد آخر . لكنها تختلف عن المتتابعة في أنها تعود ثانية لنفس الفرد الذي منه بدأت ، كمثل (١٠ ، ١٢ ، ٥ ، ٣ ، ١٠) .

ولذلك فهي قد تساعد على قياس نسبة المبالغات التي يمتصها الخبر من الأفراد وهو يستطرد في انتشاره . ذلك لأن مصدر الإشاعة يصبح بعد انتشارها هدفًا لها ، فتصل إلى أسماعه ، بعد اكتمال دورتها .

٥ - علاقات منفردة

وتبدو في فشل الفرد في اجتذاب الآخرين نحوه في أية صورة كانت كمثل (١)، (٣)، (٤)، (٧)، (١١)، ... وهؤلاء أفراد يعيشون على هامش الجماعة ، يختارون الآخرين ولا يختارهم أو يرغب فيهم أحد . وهم لذلك يسفرون عن قصور ونقص في التكيف الاجتماعي . وقد يؤدي هذا الفشل إلى لون خاص من ألوان الجنوح .

٢ - مصنفات العلاقات الاجتماعية

١ - طريقة المؤلف

يقترح المؤلف طريقة جديدة في القياس الاجتماعي ، تعتمد في جوهرها على رصد اختيار الأفراد بعضهم لبعض في مصفوفة خاصة توضح هذا الاختيار . وتتكون المصفوفة من سطور رأسية طولية وسطور أخرى أفقية مستعرضة . ويوضح السطر الرأسى الأول الأرقام التي تدل على الأفراد ؛ ويوضح السطر الأفقى الأول أرقام الاختيار . وتدل المربعات التي تتكون من تقاطع السطور الرأسية والأفقية على توزيع الاختيار كما في شكل ٢٣ . وتدل أرقام السطر الأفقى الأخير على مجموع الأفراد الذين اختاروا فرداً ما .

وتمتاز هذه المصفوفة عن التخطيط الاجتماعي في أنها :

١ - أسرع من التخطيط في رصد العلاقات الاجتماعية .

٢ - تلخص العلاقات في صورة رياضية تصلح للتحليل الدقيق

٣ - تصلح لرصد استجابات الجماعات الكبيرة

١٥	١٤	١٣	١٢	١١	١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
							١								١
										١					٢
							١								٣
							١								٤
			١												٥
						١									٦
					١										٧
					١										٨
						١									٩
													١		١٠
		١													١١
				١											١٢
							١								١٣
							١								١٤
						١									١٥
٠	٠	١	١	٠	٤	١	٥	٠	١	١	٠	٠	١	٠	مجم

(شكل ٢٣)

مصنوفة العلاقات الاجتماعية

وتمتاز — أيضا — عن طريقة كاتز L. Katz وطريقة فستنجر L. Festinger في بساطتها ووضوحها، وشمولها^(١).

ويتكون البناء الداخلي لمصنوفة العلاقات الاجتماعية من مربعات شاغرة ومربعات أخرى تحمل رقم ١. أما الشاغرة فلا تدل على أية علاقة مباشرة قائمة. فالمربع الناشئ من تقاطع رقم (٢ - الرأسى) ورقم (٤ - الأفقى) لا يدل على علاقة مباشرة بتحديد اختيار (٢) - (٤). وأما المربعات الداخلية التي تحمل رقم (١) فتدل على اختيار فرد لفرد آخر. فالمربع الناشئ من تقاطع رقم (٢ - الرأسى) ورقم (٥ - الأفقى) يدل على اختيار (٢) - (٥).

(١) سيأتى بيان طريقة كاتز وطريقة فستنجر.

وتدل مربعات قطر المصفوفة الذى يبدأ من ركنها الأيمن العلوى وينتهى عند ركنها الأيسر السفلى ، على اختيار الفرد لنفسه . كمثل المربع الناشئ من تقاطع رقم (٢ - الرأسى) ورقم (٢ - الأفقى) . وتبقى هذه المربعات شاغرة دائماً طالما أننا لا نسمح للفرد باختيار نفسه .

ويمكننا دراسة بعض النواحي الهامة لديناميكية الجماعات بدراسة مصفوفات العلاقات الاجتماعية . وتؤدي هذه الدراسة إلى نواحي عدة يتلخص أهمها في :

- ١ - تحليل مجموع العلاقات كما يبدو في السطر الأفقى الأخير من المصفوفة .
- ٢ - دراسة تناسق توزيع الاختيار حول قطر المصفوفة .
- ٣ - دراسة العلاقات الموجبة والعلاقات السالبة .
- ٤ - دراسة درجة العلاقة وقوتها .

١ - تحليل مجموع العلاقات

تدل الدراسة الدقيقة للأرقام (١، ٣، ٤، ٧، ١١، ١٤، ١٥) على إنها تمثل علاقات منفردة كما يتضح ذلك من التخطيط الاجتماعى في شكل ٢٢ . أى أنها لم تحظ باختيار أحد . ولذلك أصبح مجموع العلاقات التى تتجه نحوها مساوياً للصفر كما في شكل ٢٣ .

فإذا أسفر مجموع الاختيار عن صفر ؛ دلّ ذلك على علاقة منفردة .

وبدل المجموع على أن أكبر اختيار يساوى ٥ ويقترب هذا العدد برقم (٨) ؛ أى أن عدد الأفراد الذين اختاروا رقم (٨) يساوى ٥ . وأن مجموع الأفراد الذين اختاروا رقم (١٠) يساوى ٤ . فزعامة (٨) تفوق زعامة (١٠) . وبما أن (٨) اختار (١٠) كما يدل على ذلك الواحد الصحيح الموجود في المربع الناشئ من تقاطع (٨ - الأفقى) و (١٠ - الرأسى) ؛ إذن فزعامة (٨) تعتمد على (١٠) .

وهكذا تُسفر المصفوفة بتكوينها هذا عن الزعامات المختلفة .

وهي تسفر أيضاً عن تكوين العشيرات الداخلية . فرقم (٨) يمثل عشيرة تتكون منه ومن (١ ، ٣ ، ٤ ، ١٣ ، ١٤) كما تدل على ذلك المربعات الناشئة من تقاطع (٨ - الرأسى) مع الأرقام الأفقية السابقة .

ويؤدى بنا هذا التحليل إلى الجدول التالى :

معناها	نوعها	بمجموع العلاقات
قد تؤدى إلى الجنوح .	منفردة	٠
نقط ارتكاز التماسك الجماعى	اختيار فرد لفرد آخر	١
عشيرة تتكون من فردين وزعيم	اختيار فردين لفرد ما	٢
..	..	..
عشيرة تتكون من (ن) من الأفراد وزعيم	اختيار (ن) من الأفراد لفرد واحد	ن

٢ - تناسق توزيع الاختيار

إذا رمزنا إلى أى فردين فى جماعة ما بالرمزين (١) ؛ (ب) . وإذا كان (ب) هو اختيار (١) وكان (١) هو اختيار (ب) ؛ فإننا نحصل بذلك على علاقة متبادلة . وإذا فرضنا أن جميع علاقات الجماعة التى ندرسها تدور كلها حول هذا النوع من العلاقات ؛ فإننا نحصل بذلك على مصفوفة متناسقة بالنسبة للقطر . وبذلك يدل التناسق على تبادل العلاقات . وترتبط درجة تناسق الجماعات بقلة أو كثرة العلاقات المتبادلة . ويمكننا توضيح اكتمال التناسق بالمصفوفة المبينة فى شكل ٢٤ . ويبدو تناسقها فى انتظام توزيع الاختيار حول القطر . ويسمى هذا النوع بالتناسق المزدوج لأنه يقوم على تبادل علاقات كل فردين .

وتؤدي كثرة العلاقات المتبادلة إلى انحلال الجماعة ، ذلك لأنها تدل
دلالة واضحة على انعدام التماسك الجماعي العام .

٦	٥	٤	٣	٢	١	
				١		١
					١	٢
		١				٣
			١			٤
١						٥
	١					٦

(شكل ٢٤)
مصفوفة مكتملة في تناسقها

وهكذا تستطرد بنا هذه الدراسة وتنحو إلى تحليل مصفوفة العلاقات الاجتماعية
في شكل ٢٣ للبحث عن التناقص الدال على التبادل . ويسفر هذا البحث عن وجود
علاقة متبادلة بين (٦ : ٩) . وشكل ٢٢ يؤكد صحة هذه النتيجة .

٣ - العلاقات الموجبة والعلاقات السالبة

تصلح مصفوفات العلاقات الاجتماعية لدراسة النفور كما صلحت لدراسة الألفة .
وذلك بأن نرسم لاختيار الأعداء بـ (١ -) كرمزنا لاختيار الرفقاء بـ (١ +) .
وهكذا يتغير الواحد الصحيح الموجب المنتشر في المربعات الداخلية للمصفوفة إلى
الواحد الصحيح السالب .

هذا وقد نجتمع بين الناحيتين في مصفوفة واحدة لنمهد بذلك للدراسة العامة لنواحي
الألفة والنفور .

٤ - النسبة المئوية لتأثير الفرد في الجماعة (١) .

تدل أرقام السطر الأفقي الأخير في المصفوفة الموضحة في شكل ٢٣ على مجموع العلاقات الاجتماعية التي تنتجها نحو كل فرد من أفراد الجماعة .

ويدل المجموع الكلي لتلك العلاقات على عدد أفراد الجماعة ؛ كما يتضح ذلك من حاصل جمع هذه العلاقات :

$$\text{مجموع العلاقات} = 1 + 0 + 0 + 1 + 1 + 0 + 0 + 1 + 0 = 6 \\ 6 + 0 + 0 + 1 + 1 + 0 + 4 = 15 \text{ علاقة .}$$

ويمكننا استخدام هذه الحقيقة في معرفة مدى تأثير الفرد في الجماعة ؛ إذ كلما ازدادت القيمة العددية لمجموع العلاقات المتجهة نحو فرد ما ، ازداد عدد الأفراد الذين يتأثرون به ، وازداد تأثير الفرد في الجماعة . ويصل هذا المجموع إلى نهايته العظمى عند ما يختار جميع أفراد الجماعة فرداً واحداً فقط .

وعند ما لا تسمح تعليمات التجربة للفرد باختيار نفسه ، فإن النهاية العظمى للعلاقات تصبح مساوية للعدد الدال على مجموع الأفراد ما عدا الفرد الذي تتجه نحوه العلاقات .

فإذا رمزنا لعدد الأفراد بالرمز

تصبح النهاية العظمى لتجمع العلاقات نحو فرد ما $1 - N$

وإذا رمزنا لعدد العلاقات المتجهة نحو الفرد بالرمز

(١) تعتمد فكرة النسبة المئوية لتأثير الفرد في الجماعة على المعاملات المعروفة في القياس الاجتماعي باسم معاملات المكانة الاجتماعية . ولقد اقترح كاتز سنة ١٩٥٣ معاملات جديدة يعتمد على المكانة الاجتماعية للفرد الذي يختار كما يعتمد على المكانة الاجتماعية للفرد المختار . راجع البحث التالي :

Katz, L., A New Status Index Derived from Sociometric Analysis, Psychometrika, 1953, 18, p.p. 39 - 43.

تصبح درجة تجمع العلاقات المتجهة نحو الفرد $\frac{1}{1-n}$

.. النسبة المئوية لتأثير الفرد في الجماعة $100 \times \frac{1}{1-n}$

وبذلك تصبح النهاية العظمى لنسبة التأثير $100 = 100 \times \frac{1-n}{1-n}$

وتصبح النهاية الصغرى لنسبة التأثير $0 = 100 \times \frac{n}{1-n}$

وهكذا نحصل على الجدول التالي باستخدام هذه النسبة لتحليل نتائج التجربة التي أجريت على جماعة الطلبة المبينة في شكل ٢٣ .

أرقام الطلبة	مجموع العلاقات	نسبة التأثير	$100 \times \frac{1}{1-n}$
١	٠	٠	٠
٢	١	٧,١٤	٧,١٤
٣	٠	٠	٠
٤	٠	٠	٠
٥	١	٧,١٤	٧,١٤
٦	١	٧,١٤	٧,١٤
٧	٠	٠	٠
٨	٥	٣٥,٧١	٣٥,٧١
٩	١	٧,١٤	٧,١٤
١٠	٤	٢٨,٥٧	٢٨,٥٧
١١	٠	٠	٠
١٢	١	٧,١٤	٧,١٤
١٣	١	٧,١٤	٧,١٤
١٤	٠	٠	٠
١٥	٠	٠	٠

ب - طريقة فورسيث وكاتز

يقترح فورسيث E. Forsyth وكاتز L. Katz إعادة ترتيب أرقام الأفراد بحيث يُسفر الترتيب الجديد عن العُشيرات التي يمكن أن تنقسم إليها الجماعة .

ويعتمد هذا الترتيب الجديد على محاولة تجميع المربعات الدالة على الاختيار حول قطر المصفوفة . وهذا يعني ، من الناحية الرياضية إعادة ترميم وترتيب الأفراد لتصغير مربعات الانحرافات العمودية لتلك المربعات عن قطر المصفوفة ^(١) .

ويعيب هذه الطريقة ؛ المشقة والعناء والخطوات الرياضية المعقدة التي تستلزمها للوصول إلى نتائج لاتبلغ قيمتها الأهمية التي تضطر الباحث إلى احتمال تلك الصعوبات .

ولهذا نكتفي هنا بالإشارة إليها ، وعلى الراغبين في دراستها دراسة عميقة أن يرجعوا إلى البحث الذي نشره فورسيث وكاتز سنة ١٩٤٦ ^(٢) .

ج - طريقة فستنجر

يعتمد فستنجر L. Festinger ^(٣) في طريقته على ترميم مصفوفه العلاقات الاجتماعية ، وتكعيبها ، ورفعها إلى الأس الرابع والأس الخامس ، وهكذا ^(٤) .

ويدل مربع المصفوفة على العلاقات المتتابة الثنائية غير المباشرة . كاختيار

1. To minimize the square of the perpendicular deviations of the numbers from the diagonal of the matrix.
2. Forsyth, E., and Katz, L., A Matix Approach to the Analysis of Sociometric Data : Preliminary Report, Sociometry, 1946, 9, p.p. 340-347.
3. Festinger, L., The Analysis of Socioograms Using Matrix Algebra, Human Relations, 1949, 2., p.p. 153-158.

(٤) ضرب المصفوفات عملية رياضية تعتمد على معرفة القوانين الجبرية للمصفوفات . وعلى الراغبين

في معرفتها أن يرجعوا إلى :

- i. Aitken, A. C., Determinants and Matrices, 1948, Chapter 1.
- ii. Thurstone, L. L., Multiple-Factor Analysis, 1947 p.p. 20-21.

(١) لـ (ب) ثم اختيار (ب) لـ (ج) . فعلاقة (١) بـ (ج) علاقة متتابعة ثنائية .
غير مباشرة

ويدل مكعب المصفوفة على العلاقات المتتابعة الثلاثية غير المباشرة . كاختيار
(١) لـ (ب) ثم اختيار (ب) لـ (ج) ثم اختيار (ج) لـ (د) . فعلاقة (١) بـ (د)
علاقة متتابعة ثلاثية .

ويستطرد بنا التحليل لنصل إلى أن رفع المصفوفة للأس الرابع يسفر عن
العلاقات المتتابعة الخماسية غير المباشرة . وهكذا تستمر الدراسة حتى تصل إلى تحليل
أبعد علاقة متتابعة قائمة .

وهكذا نرى أن أهمية هذه الطريقة تتلخص في اكتشاف العلاقات المتتابعة .

١٥	١٤	١٣	١٢	١١	١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
					١										١
			١												٢
					١										٣
					١										٤
					١										٥
									١						٦
													١		٧
													١		٨
						١									٩
										١					١٠
								١							١١
													١		١٢
					١										١٣
					١										١٤
													١		١٥
٠	٠	٠	١	٠	٦	١	١	٠	١	١	٠	٠	٤	٠	ج

شكل (٢٥)

مربع مصفوفة العلاقات الاجتماعية

وتلك — بدورها — تؤدي إلى دراسة مسار الإشاعات كما أوضحنا ذلك من قبل .

و باستخدام طريقة فستنجر في دراسة نتائج التجربة التي أجريت على جماعة الطلبة نحصل على مربع مصفوفة العلاقات الاجتماعية كما في شكل ٢٥ .

وبدل دراسة هذه المصفوفة على أن رقم (١ — الرأسى) لا يسفر عن أية علاقة متتابعة غير مباشرة ثنائية تتجه نحوه . وأن رقم (٢ — الرأسى) يسفر عن أربع علاقات ثنائية غير مباشرة تتجه إليه . فهو إذن يتصل اتصالاً ثنائياً بالأرقام (٧ ؛ ٨ ؛ ١٢ ؛ ١٥) . ويمكن التأكد من صحة هذه النتيجة بالرجوع إلى التخطيط الاجتماعي لجماعة الطلبة كما يبدو في شكل ٢٢ . وهكذا يستطرد بنا التحليل حتى نكتشف كل العلاقات المتتابعة كما تبدو في مربع المصفوفة .

هذا ويجب أن يحترس الباحث من قطر مربع المصفوفة ، فهو لم يعد شاغراً كما كان في شكل ٢٣ . فوجود الواحد الصحيح في تقاطع (٦ — الرأسى) مع (٦ — الأفقى) لا يعنى علاقة ثنائية متتابعة وإنما يدل على أن رقم (٦) يرتبط ارتباطاً ازدواجياً تبادلياً مع رقم آخر . ووجود الواحد في تقاطع (٩ — الرأسى) مع (٩ — الأفقى) يدل على نفس الظاهرة . ولقد نشأت هذه الصلة من العلاقة المتبادلة القائمة بين (٦ ؛ ٩) ، ذلك لأن (٦) يختار (٩) وهذا يعود بدوره ليختار (٦) ، ولهذا تبدو هذه العلاقة وكأنها ثنائية متتابعة .

٣ — التحليل الإحصائي

١ — الاختيار المقصود والاختيار العشوائي

قد يظن البعض أن التخطيط الاجتماعي ومصفوفات العلاقات ، يقومان على علاقات تخضع في جوهرها للصدفة العشوائية . وأن الأفراد في اختيارهم لبعض أثناء تجارب القياس الاجتماعي ، إنما يفعلون ذلك تلبية لرغبة الباحث في الحصول على نتائج خاصة ، وأن الأمر لا يعينهم من قريب أو بعيد . فإذا صح هذا النقد ، وتحقق هذا

الظن ، فلا مندوحة من الاعتراف بأن التحليل العلمى السابق ، تحليل واه خادع ، لا يقوم فى جوهره على أركان ودعائم صحيحة .

لهذا ، حق على الباحثين فى هذا العلم أن يقيموا الدليل على صحة اكتشافاتهم ، وأن يزيلوا الشبهات التى تحوم حول ميدانهم . ولقد قام مورينو J. L. Moreno وجنجنز H.H. Jennings بتجربة طريفة تهدف إلى تبيان الفرق بين الاختيار المقصود والاختيار العشوائى ^(١) . فطلب الباحثان من ٢٦ فتاة ، يؤلفن فيما بينهن جماعة ما - أن تختار كل واحدة منهن ثلاث فتيات يلزمها كرفيقات لها على المائدة . ثم أعيدت نفس التجربة على ست جماعات مماثلة للجماعة الأولى . ثم رصد الباحثان متوسط اختيار أفراد الجماعات السبع ، بالترتيب التالى : ٠٠٠ ، ٢ ، ١٠ ، ٠٠٠ بحيث يدل الصفر على فشل الفتاة فى إثارة رفيقاتها لاختيارها ، ويدل الواحد الصحيح على الفتيات اللاتى اخترن مرة واحدة ، وهكذا . . .

ثم أعيدت التجربة على نفس الفتيات وطلب إلى كل منهن أن تختار زميلاتها بطريقة عشوائية ؛ وذلك بأن تختار ثلاث بطاقات من مجموعة من البطاقات الممثلة المطوية ؛ تدل كل بطاقة على فتاة من فتيات الجماعة . ولقد وضعت هذه البطاقات فى حقيبة خاصة بطريقة عشوائية ، وحذفت بطاقة الفتاة أثناء اختيارها لرفيقاتها ، ثم رُصدت نتائج هذه التجربة بنفس طريقة المتوسطات التى رصدت بها التجربة السابقة .

والجدول التالى يوضح بعض نتائج هذه التجربة ^(٢) .

1. Moreno, J. L., and Jennings, H. H., Statistics of Social Configurations, Sociometry, 1938: 1, p.p. 342-374.

(٢) هذا ويمكن استنتاج الاختيار الذى يعتمد على الصدفة العشوائية استنتاجاً نظرياً ، فى جماعة تتألف من ٢٦ فرداً لكل فرد حق اختيار ثلاثة أفراد مختلفين على ألا يكون هو نفسه واحداً منهم :-

$$\begin{aligned} \frac{3}{26} &= \text{(أ) درجة احتمال الاختيار} \\ \frac{3}{26} = \frac{3}{26} - 1 &= \text{(ب) درجة فشل احتمال الاختيار} \\ \text{(ج) وهكذا يمكن حساب الدرجات المختلفة للاختيار بالاستعانة بمعاملات} & \\ & 20 \left(\frac{3}{26} + \frac{3}{26} \right) \end{aligned}$$

نوع العلاقة	المتوسطات	
	اختيار مقصود	اختيار عشوائي
منفردة	٥	١,٤
متبادلة	١٣,٤	٤,٣
متتابة	٢,٣	٠,٩
دائرية	١	٠
مركزة	٦,٦	٤,٧

وهكذا تدل نتائج هذه التجربة دلالة واضحة على صحة الدعايم التي تقوم عليها العلاقات الاجتماعية .

٢ - النسبة المئوية للتفاعل النفسى الاجتماعى ^(١)

كلما ازداد عدد العلاقات النفسية الاجتماعية المنتشرة داخل الجماعة ، ازداد اتصال الأفراد ببعضهم البعض ، وازدادت ديناميكية التفاعل . ولهذا يدل مجموع العلاقات على مدى التفاعل النفسى الاجتماعى .

فإذا طلب إلى كل فرد من أفراد الجماعة أن يختار من يشاء من زملائه دون أن يتقيد بعدد ما فى اختياره هذا ، أمكننا أن نعرف ، بطريقة إحصائية عددية ، النسبة المئوية للتفاعل . وذلك بقسمة مجموع العلاقات القائمة على النهاية العظمى لتلك العلاقات ثم ضرب الناتج فى مائة لتحويل النسبة إلى نسبة مئوية .

وتختلف النهاية العظمى للعلاقات باختلاف عدد أفراد الجماعة ، فالنهاية العظمى لمجموع علاقات الجماعة المؤلفة من فردين ؛ تساوى علاقتين . والنهاية العظمى لمجموع علاقات الجماعة المؤلفة من ٣ أفراد ؛ تساوى ٦ علاقات . والنهاية العظمى لمجموع علاقات الجماعة المؤلفة من ٤ أفراد ؛ تساوى ١٢ علاقة . وهكذا يستطرد بنا التحليل

1. Lundberg, G. A., Social Research : A Study in Methods of Gathering Data, 1949, p. 334.

إلى أن نصل إلى أن النهاية العظمى لمجموع علاقات الجماعة المؤلفة من (ن) من الأفراد ؛ تساوى [(ن - ١)] علاقة .

$$\frac{\text{مجموع العلاقات } 100 \times \text{ن}}{(ن - ١)} = \text{النسبة المئوية للتفاعل النفسي الاجتماعي}$$

فإذا دلت النتائج على أن مجموع علاقات جماعة رباعية ما (٤ أفراد) هو ٩ علاقات فإن :

$$75 = \frac{100 \times 9}{(4 - 1)} = \text{النسبة المئوية للتفاعل النفسي الاجتماعي}$$

ولهذه النسبة أهميتها وفائدتها في مقارنة الجماعات على أساس التفاعل ، ومعرفة الفروق القائمة بين ديناميكية جماعة وجماعة أخرى .

٣ - النسبة المئوية لثبوت الجماعة

يقاس استمرار الجماعة بثبوت عدد أفرادها ؛ فكلما كثر تغيير عناصرها واستبدل بالأفراد القدامى أفراد جدد ، ضعف استمرار الجماعة .

ولهذا يقترح هارتشورن E. y. Hartshorne معادلة للثبوت تقوم على معرفة عدد أفراد الجماعة قبيل التغيير وبعده ، وعدد الأفراد الذين قاوموا هذا التغيير ^(١) .

فإذا رمزنا لعدد الأفراد قبيل التغيير بالرمز ق

ورمزنا لعدد الأفراد بعد التغيير بالرمز ب

ورمزنا لعدد الأفراد الذين قاوموا التغيير بالرمز ث

$$\frac{100 \times \text{ث}}{\text{ق} + \text{ب}} = \text{النسبة المئوية لثبوت الجماعة}$$

1. Hartshorne, E. Y., Metabolism and the Annexation of Austria
A Note on Method, Amer Jour. Social., 45, p.p. 899-917.

فإذا كان أفراد جماعة ما (ق) = ٦ أفراد

ثم فقدت الجماعة = ٢ من أفرادها

فأصبح الباقي (ث) = ٤ أفراد

ثم انضم للجماعة = ٦ أفراد

فأصبح عدد أفراد الجماعة (ب) = ١٠ أفراد

$$\therefore \text{النسبة المئوية لثبوت الجماعة} = \frac{10 + 6}{4 \times 2} \times 100 = 50$$

وعند ما تتغير الجماعة تغيراً تاماً فلا يبقى فرد واحد من أفرادها القدماء ، تصبح النسبة المئوية للثبوت مساوية للصفر لأن (ث) تساوى صفراً .

٤ - معامل التماسك الداخلي^(١)

تنقسم الجماعات بالنسبة لتماسكها الداخلي إلى نوعين : جماعة داخلية وجماعة خارجية^(٢) ، فكلما ازدادت العلاقات الموجبة التي تدور في المحيط الداخلي للجماعة ، ازداد تماسك هذه الجماعة . وكلما تشتتت هذه العلاقات واتجهت نحو الجماعة الخارجية ، ضعف التماسك الداخلي . وكلما كثرت العلاقات الموجبة التي تصدر من أفراد الجماعة الخارجية وتوجه صوب أفراد الجماعة الداخلية ، ازدادت سعة هذا التماسك .

فهناك إذن ثلاثة أنواع من العلاقات الموجبة التي تؤثر تأثيراً مباشراً في تماسك الجماعة : داخلية - داخلية ؛ داخلية - خارجية ؛ وخارجية - داخلية .

Internal Cohesion (١)

ويسمى هذا التماسك الداخلي أحياناً باسم الزعة المركزية Centrifugal Tendency

راجع : -

i. Moreno, J. L., and Jennings, H. H., OP. CIT., p.p. 367-374.

(٢) راجع الفصل السادس ص ٩٠ - ٩١ .

- د فإذا رمزنا للعلاقات (الداخلية — الداخلية) بالرمز
 ه وللعلاقات (الداخلية — الخارجية) بالرمز
 ل وللعلاقات (الخارجية — الداخلية) بالرمز
 ن واعدد أفراد الجماعة الداخلية بالرمز
 م ولأفراد الجماعة الخارجية الذين يستأثرون بالعلاقات (الداخلية — الخارجية) بالرمز م

$$\frac{\frac{د+ل}{ن}}{\frac{ه}{م}} = \text{معامل التماسك الداخلى} \therefore$$

$$= \frac{م(د+ل)}{ن ه}$$

فإذا كان عدد أفراد الجماعة الخارجية (م) = ١

وعدد العلاقات الداخلية — الداخلية (د) = ١٧

وعدد العلاقات الخارجية — الداخلية (ل) = ١٢

وعدد أفراد الجماعة الداخلية (ن) = ٦

وعدد العلاقات الداخلية — الخارجية (ه) = ٦

$$\therefore \text{معامل التماسك الداخلى} = \frac{(١٢+١٧)١}{٦ \times ٦} = ٠,٨$$

وهكذا يدل معامل هذا المثال على تماسك ضعيف لأن قيمته العددية تقل عن الواحد الصحيح . ويدل أيضاً على أن الفرد الخارجى الذى تتجه نحوه العلاقات (الداخلية — الخارجية) قد يصبح بوضعه هذا منطقة قوية داخل المجال . ويستطرد بنا التحليل حتى نصل إلى الحدود العامة للجماعة ، وإلى مناطق الجذب القوية — داخلية كانت أم خارجية — فى ضوء هذه الدراسة .

٦ - معاملات شدة العلاقات

يقترح زيليني L. D. Zeleny ثلاث طرق مختلفة لقياس شدة العلاقات الاجتماعية . وهو يقسم هذه العلاقات إلى ^(١) :

١ - شبكة العلاقات الداخلية ، وتتلخص في محصلة استجابات الأفراد بعضهم لبعض .

٢ - علاقات جميع أفراد الجماعة ، بفرد واحد منهم .

٣ - علاقات جميع أفراد الجماعة بفرد واحد منهم ، وعلاقة نفس هذا الفرد بجميع أفراد الجماعة .

هذا وقد تكون العلاقة ألفة أو بغضاً أو قد تلزم الحياد فلا تفصح عن الألفة أو البغض . ولذلك ترصد هذه العلاقات رصداً عددياً يدل على نوعها وشدتها . فالاختيار الدال على الألفة يساوى $(+0,5)$ ؛ والاختيار الدال على البغض يساوى $(-0,5)$ ؛ والحياد يساوى صفراً . أى إن شدة العلاقات تتراوح بين $(-0,5)$ ؛ $(+0,5)$ ، وبذلك يصبح مداها مساوياً للواحد الصحيح .

فإذا أجريت التجربة التالية على جماعة مؤلفة من خمسة أفراد وطلب إلى كل أن يكتب أمام أسماء الأفراد الآخرين نوع علاقته به (ألفة أو بغضاً أو حياداً) ، ثم رصدت هذه الاستجابات المختلفة أمكننا أن نحصل على مصفوفة كالتالية :

-
- i. Zeleny, L. D., Measurement of Sociation, Amer. Social. Rev., 1941, 6, p.p. 173-188.
 - ii. Loomis, C. P., and Davidson, D. M., Measurement of the Dissolution of In-Groups in the Integration of a Rural Resettlement Project, Sociometry, 1939, 2., 84-98.

الأفراد	١	٢	٣	٤	٥	المجموع
١		٠,٥+	٠,٥-	٠,٥+	٠,٥+	١
٢	٠,٥+		٠,٥+	٠	٠,٥-	٠,٥
٣	٠	٠,٥+		٠,٥+	٠,٥+	١,٥
٤	٠,٥-	٠,٥+	٠,٥+	٠	٠	٠,٥
٥	٠,٥+	٠,٥+	٠,٥+	٠,٥+	٠	٢
المجموع	٠,٥	٢	١	١,٥	٠,٥	٦

(شكل ٢٦)

مصفوفة توضح نوع وشدة العلاقات الاجتماعية

وتدل الأسطر الرأسية في هذه المصفوفة على نوع وشدة استجابات الفرد للأفراد الآخرين . فالفرد رقم (١) يألف (٢) ويحيد عن (٣) ويبغض (٤) ويألف (٥) .

وتدل الأسطر الأفقية على نوع وشدة استجابات الأفراد بالنسبة للفرد الذي يقع رقه في أول السطر . وبهذا تلخص استجابات أفراد الجماعة نحو الفرد رقم (١) في أن (٢) يألفه ، (٣) يبغضه ؛ (٤) يألفه ، (٥) يألفه .

وسنحاول أن نستعرض الطرق المختلفة لقياس نوع وشدة العلاقات الاجتماعية وسنوضح كل طريقة بنتائج المثال السابق .

١ - درجة شدة علاقات الجماعة

تدل شبكة العلاقات الاجتماعية على التفاعل والتكوين الداخلي للجماعة . وقد رمزنا - في تحليلنا السابق - لكل علاقة تقوم بين فردين بخط يصل بينهما ، ورمزنا لاتجاه العلاقة بسهم في نهاية الخط . ثم استطرد بنا التحليل فرمزنا لنوع العلاقة برموز تميزها فأصبحت بذلك علاقات الألفة موجبة ، والبغض سالبة والحياد مساوية للصفر . ورمزنا لشدة العلاقات وقوتها بأرقام توضحها . وبذلك تصبح القيمة العددية للمجموع الكلي للعلاقات مقياساً لدرجة الشدة .

$$\therefore \text{متوسط الشدة} = \frac{\text{القيمة العددية للمجموع الكلى لشدة العلاقات}}{n(n-1)}$$

حيث تدل (ن) على عدد أفراد الجماعة ،

وتدل [(ن - ١)] على عدد العلاقات

وذلك لأن الفرد يستجيب ويتفاعل مع جميع أفراد الجماعة ما عدا نفسه ؛
وبذلك تصبح استجابات الفرد مساوية لـ (ن - ١) . وبما أن عدد أفراد
الجماعة يساوى (ن) . إذن يصبح عدد الاستجابات مساوياً لـ [(ن - ١)] .
و بدراسة مصفوفة شدة العلاقات الاجتماعية المبينة بشكل (٢٦) فى مثلنا السابق
نرى أن :

القيمة العددية للمجموع الكلى لشدة العلاقات = ٦

وعدد الاستجابات = ٥ (١ - ٥) = ٢٠

$\therefore$ متوسط الشدة = $\frac{٦}{٢٠} = ٠,٣$

ب - درجة شدة استجابة الجماعة للفرد ^(١)

بما أن الأسطر الأفقية فى شكل (٢٦) تدل على نوع وشدة استجابة أفراد الجماعة
نحو الفرد الذى يقع رقمه فى أول السطر ، إذن فالمجموع الكلى لأى سطر من هذه
السطور يدل على شدة ونوع استجابات الأفراد نحو الفرد . فالسطر الأفقى الأول
يدل على استجابات أفراد الجماعة للفرد رقم (١) . وهكذا تتابع القيم العددية لهذه

-
- i. Zeleny, L. D., Measurement of Social Status, Amer. Jour. Social., 1940, 45, p.p. 576-582.
 - ii. Miller, D. C., Morale of College Trained Adults, Amer. Sociol. Rev., 1940, 5, p.p. 880-889.
 - iii. Rundquist, E.A., and Sletto, R. F., Personality in the Depression, 1936.

العلاقات بالترتيب التالى : $(+0,5 ; -0,5 ; +0,5 ; -0,5)$ وبذلك يصبح المجموع العددي لها مساويا لـ ١,٥ . وبما أن عددها يساوى ٤ أى $(1-5)$ أى $(1 - n)$

∴ متوسط شدة علاقات الجماعة بالفرد =

القيمة العددية للمجموع الكلى لاستجابات الجماعة للفرد

$$1 - n$$

$$\therefore \text{متوسط شدة علاقات الجماعة نحو الفرد رقم (١) فى مثلنا السابق} = \frac{1,5}{(1-5)} = 0,375$$

ج - درجة شدة استجابة الفرد للجماعة

يستطرد بنا التحليل فنقرر أثر الفرد فى الجماعة واستجابته لها ، وذلك يبحث القيم العددية لكل سطر من الأسطر الرأسية المصفوفة المبينة بشكل ٢٦ . فالفرد رقم (١) يألف (٢) ويحايد (٣) ويبغض (٤) ويألف (٥) . والمجموع العددي لهذه الاستجابات يساوى ٦ .

∴ شدة استجابة الفرد للجماعة =

القيمة العددية للمجموع الكلى لاستجابات الفرد للأفراد الآخرين

$$1 - n$$

$$\therefore \text{شدة استجابات الفرد رقم (١) للأفراد الآخرين} = \frac{1}{(1-5)} = 0,25$$

د - درجة شدة الاستجابات المتبادلة بين الفرد والجماعة

تدل شدة الاستجابات المتبادلة بين الجماعة والفرد على مدى التكيف الاجتماعى للفرد ، إذ كلما ألفت الجماعة فردا منها وكلما ألفها هو ، ازداد بذلك تكيفه الاجتماعى .

وبما أن أرقام الأسطر الرأسية في المصفوفة المبينة بشكل ٢٦ تدل على استجابات الفرد للأفراد الآخرين ، والأسطر الأفقية تدل على استجابات الأفراد لأى فرد من الجماعة ؛ إذن فشدة الاستجابات المتبادلة بين الجماعة وأى فرد منها تملخص في المجموع الكلى للقيمة العددية للسطر الأفقى والسطر الرأسى للفرد . وبذلك يصبح المتوسط مساوياً لنتائج قسمة هذا المجموع على عدد الاستجابات . أى إنه يساوى ناتج قسمة المجموع على $٢(ن - ١)$.

وبما أن هذا المتوسط يدل على درجة التكيف الاجتماعى للفرد

∴ التكيف الاجتماعى للفرد =

القيمة العددية لمجموع الاستجابات الرأسية والأفقية للفرد

$$\frac{٢(ن - ١)}{}$$

$$\therefore \text{التكيف الاجتماعى للفرد رقم (١)} = \frac{١,٥ + ١}{(١ - ٥)٢} = ٠,٣١٣$$

نتائج بعض الأبحاث التجريبية

يذهب مورينو إلى أن اختبارات القياس الاجتماعى وما تؤدى إليه من تخطيط ، هى الوسيلة القوية التى تسفر عن مدى تنظيم الجماعات وتكوينها التركيبى . وهو لا يكتفى أحياناً بدراسة شبكة العلاقات الاجتماعية مرة واحدة بل يعيد تجاربه على فترات زمنية مختلفة وعلى نفس الجماعة ليكتشف بذلك تطور جماعات الأطفال من التكوين البسيط غير المتكامل حتى تصل إلى التكوين المعقد المتشابك .

هذا ولقد أثبتت أبحاث القياس الاجتماعى نظرية الكون الجنسى Latency كما نادى بها فرويد S. Freud . وتدلل هذه الأبحاث على أن اختيار الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ٨ — ١٣ سنة يتجه نحو اختيار الجنس المائل ويعزف عن اختيار الجنس المضاد ؛ وأن اختيار الذين تزيد أعمارهم عن ١٣ سنة لا يتقيد بالفروق الجنسية القائمة .

وقام لندبرج G. A. Lundberg بدراسة واسعة شملت ٩٤٠ فرداً من سكان إحدى القرى الأمريكية^(١)، وسلك في دراسته تلك مسلكاً جديداً فبحث درجة ارتباط الأنواع المختلفة للعلاقات الاجتماعية التخطيطية، بأعمار الأفراد، وبعيوتهم الجسمية، وبمستوياتهم الاقتصادية، وبطبيعة أعمالهم، وبمكائهم الاجتماعية، وبغير ذلك من الفروق القائمة، واستطاع بذلك تفسير أنواع التجمعات المختلفة بالنسبة لتلك الأسس. وأدت به دراسته إلى تعريف الجماعة على أنها طاقة مرتبة منتظمة، تفيض في أنهر متشابكة متداخلة، تشمل الفرد ومجاله، وتنفذ إلى أعماق الشخصيات بدرجات مختلفة تتباين في سعتها وشدها واتجاهها ومداهها الزمنية.

واهتم بعض العلماء بدراسة التكوين التركيبي للجماعات، فرصدوا العلاقات الاجتماعية المختلفة في تفاعلها المباشر. وتتلخص هذه الطريقة في تسجيل تلك العلاقات تسجيلاً لا يعتمد في جوهره على استفتاء الأفراد، بل يعتمد على دراسة شخص آخر لا ينتمي إلى الجماعة، يقوم بمراقبة تجمعاتها وأحداث أفرادها وأنواع عشايرها وزعاماتها واستخدم هويت W. F. Whyte تلك الطريقة في دراسته للعصابات وتمكن بذلك من رصد هذا النوع من التجمع في تخطيط اجتماعي^(٢) وقام لوميس C. P. Loomis ودافيدسن D. D. Davidson باستخدام نفس الطريقة في دراسة ديناميكية سكان بعض القرى بأمريكا^(٣). وتتلخص دراستهما في استكشاف تكرار ونوع الزيارات العائلية المختلفة، والتعاون في الأعمال الزراعية، ومسار الثروة المحلية كقرض مالى بين أفراد الأسر المختلفة.

واعتمدت أكثر الدراسات التجريبية للزعامة على طريقة القياس الاجتماعي. وأسفرت هذه الدراسات عن الأنواع المختلفة للزعامة. فاختيار الأفراد للزعيم الذى

1. Lundberg, G.A., Social Attraction — Patterns in a Rural Village. Sociometry, 1937, 1, P.P. 77—81.
2. Whyte, W.F., Street Corner Society, 1943.
3. Loomis, C.P., and D. D. Davidson, Sociometrics and the Study of New Rural Communities, Sociometry, 1939, 2, P.P. 56 — 76.

يكافح في سبيل تحقيق مطالبهم الاقتصادية يختلف عن اختيارهم للزعيم الذي ينظم مناقشاتهم ، ويختلف أيضا عن ذلك الذي يتزعمهم في هواياتهم . وهكذا يختلف الاختيار باختلاف الوظيفة التي يقوم بها الزعيم .

هذا وتؤكد جميع هذه الدراسات أهمية الجماعة في نمو شخصية الفرد . فالجماعة في إثارتها لاستجابات الفرد تسير به قُدما نحو معرفته لنفسه ونحو معرفة الآخرين له . ولقد صدق يونج C. G. Jung في فكرته التي تدعو إلى أن الشخصية لا تكمل أبداً ، بل تستمر في إقامة دعائمها كلما تفاعلت مع الآخرين ، وتظل ترقى في مدارج التكامل ما بقي في الفرد رفق من حياة .

المراجع

1. Bavelas, A., A Mathematical Model for Group Structures, Applied Anthropology, 1948, 7, p.p. 16-30
2. Cook, P. A. An Experimental Sociographic Study of a Stratified 10th Grade Class, Amer. Sociol. Rev. 1945, 10, p.p. 250-591.
3. Criswell, T.H. A Sociometric Study of Race Cleavages in the Classroom, Archives of Psychol. 1939, No. 235.
4. Horace Mann — Lincoln Institute of School Experimentation How to Construct A Sociogram. 1949.
5. Jennings. H. H., Leadership and Isolation, 1950.
6. Kerstetter, P. M, and Sargent, T., Reassignment Therapy in the Classroom, Sociometry, 1940, 3, p.p. 293 — 306.
7. Lazarsfeld, P., The People's Choice, 1944.
8. Lundberg, G.A. and Lawsing, M., The Sociography of Some Community Relations, Amer. Sociol. Rev. 1937, 2, p.p. 318 — 335.
9. Miller, D. C., Evaluative Research in Group Discussion, Sociol. and Social Research, 1941, 25, p.p. 213—225.
10. Moreno, J.P. Sociometry in Relation to other Social Sciences. Sociometry. 1937. 1. p.p. 206—220.
11. Newstetter, W. I. Feldstein. M.T. and Newcomb. T. M. Group Adjustment : A Study in Experimental Sociology. 1938.
12. Northway. M.P. A Method for Depicting Relationships Obtained by Sociometric Testing, Sociometry. 1940. 3. p.p. 144—150.
13. Zeleny, P.D. Status: Its Measurement and Control in Education. Sociometry. 1941. 4. p.p. 193—204.
14. ———. Selection of Compatible Flying Partners. Amer. J. Sociol. 1947. 52. p.p. 424—431.

البَابُ الرَّابِعُ

الدوافع والعلاقات الاجتماعية

الفصل الحادي عشر : الدوافع : دراسة تحليلية مقارنة

الفصل الثاني عشر : الدوافع العامّة المكتسبة

الآنجـــــــــــــــــاهات والتعصب

الفصل الثالث عشر : الدوافع العامة المكتسبة المعيارية

الإطار النفسي والمعايير الاجتماعية

الفصل الحادى عشر

الدوافع

دراسة تحليلية مقارنة

مقدمة

الحياة الإنسانية متشابكة معقدة ، تتصل علاقاتها من قريب و بعيد ، وتدفع الناس إلى السعى فى مسالك وضروب مختلفة متباينة . فيدفعنا التعجب إلى الاستطلاع ، والغضب إلى القتال ، والخوف إلى الهرب ، والجوع إلى البحث عن الطعام ، والاشمئزاز إلى النفور ، والخنوع إلى الاستكانة ، والزهو إلى السيطرة . وهكذا تمضى بنا الحياة ، فإذا هى تفاعل ديناميكى مستمر يصل حاضر الفرد بماضيه ، وبماضى الإنسانية كلها ، وبحيوانيته البعيدة . ويمتد بالفرد حاضره ويتسع فتشتق دوافعه قوتها من المجال النفسى المحيط به وتنشط داخله ، ثم يحاول أن يستشف أغوار الغيب البعيد فيشقى فى حاضره ليسعد فى مستقبله . فهو بشخصيته التى تنمو نحو التكامل يمتد فى أبعاد الزمن الثلاثة ، ويتفاعل معها ومع بيئته متأثراً بتكوينه البيولوجى الفسيولوجى العصبى النفسى .

والشخصية الإنسانية فى أبعادها وامتداداتها المختلفة ترجع فى جوهرها إلى تفاعل الوراثة والبيئة . والوراثة وحدها لا تكفى لتحليل دوافع العلاقات الاجتماعية ، والبيئة وحدها لا تكفى . ذلك لأن المرونة الفائقة التى يتكيف بها النوع الإنسانى للبيئات المختلفة والمواقف المتعددة ، تزيد المشكلة غموضاً وتعقيداً .

وقد يصل بنا تحليلنا العلمى إلى معرفة استقامة السلوك وجنوحه ، ومنابعه الأولى وروافده التالية ، وأهدافه القريبة والبعيدة .

وهكذا يواجه الباحث فى دراسته لهذا الميدان أعمق أغوار النفس البشرية .

ذلك بأن مشكلة الدوافع هي في جوهرها مشكلة البحث عن أسباب السلوك البشري خاصة وسلوك الكائن الحي عامة . فهي إذن لون من ألوان دراسة علاقة العلة بالعلول والسبب بالمسبب . والعلل والأسباب التي تلازم سلوك الكائن الحي ليست بالبساطة التي نلاحظها في العلوم الطبيعية ، فارتفاع درجة الحرارة سبب مباشر لتمدد قضيب من الحديد . فالحرارة والتمدد ظاهرتان واضحتان تقاس كل منهما بمقياس خاص . ويؤدي بنا تحليل المقياس إلى اكتشاف الارتباط القائم بين الظاهرتين . لكن السلوك الإنساني الظاهر ينبع من سلوك باطن خفي . وبين الظاهر والباطن ارتباطات قائمة متشابكة متداخلة ؛ فقد يتشابه الظاهر رغم اختلاف الباطن ، وقد يتشابه الباطن رغم اختلاف الظاهر .

ثم هو بعد ذلك كله ، ينشط في مستويات مختلفة ، فحدة العين تتسع وتضيق تبعاً لاختلاف شدة الضوء الذي تواجهه . والإنسان يهرب إذا خاف ، ويندفع في سعي متواصل قد يبلغ أحوالاً عدة ليحقق هدفاً بعيداً قوياً كالغزوة بمكانة اجتماعية سامية أو كالكشف حقيقة علمية جديدة . وتلك كلها مستويات تختلف في مدارج رقيها .

والسبب قد يتحول إلى مسبب إذا نُسب إلى سبب آخر يسبقه في تيار الزمن ، وتطور الحوادث . ولنضرب لذلك مثل الرجل الذي ما يكاد يشعل عود الثقاب حتى يقفز كلبه نحوه فيقع العود المشتعل على رداءه . فالسبب المباشر لحرق الرداء هو وقوع العود المشتعل ، وسبب وقوع العود هو قفزة الكلب . ولم يقفز الكلب إلا عندما داسه الخادم في اندفاعه نحو الباب ليرى من الطارق . وهكذا تستمر الأسباب والمسببات تتلاحق وتتابع في نسيج تختلط سداته بلحمته حتى تسفر عن أساسها العميق .

وليكن ما يكون من أمر انسياق حوادث مثلنا السابق ، فالعلة الجوهرية في الفزع هي الخوف . ويرجع الخوف في جوهره الأساسي إلى المحافظة على الذات . والفرد يحافظ على نوعه بمحافظته على ذاته ، فالنوع يفنى حينما تفنى أفراده . وتتخذ

الحفاظة على الذات لنفسها ألوانا وضروبا مختلفة من السلوك شأنها في ذلك شأن
الحفاظة على النوع . فالمشكلة متداخلة الأطراف متشابكة النواحي والأبعاد . ذلك
بأن الحياة متنوعة مختلفة ، وهي وحدها عالم متناه في اتساعه وعمقه ومداه .

ولقد شغلت مشكلة الدوافع أذهان الفلاسفة والعلماء منذ فجر التاريخ حتى
العصر الحديث ، فدرسها سقراط وأفلاطون وأرسطو وتوماس هوبز وجان جاك روسو
وغيرهم ممن ذكرنا في عرضنا التاريخي لعلم النفس الاجتماعي وممن لم نذكر^(١) . فمن
قائل بأن الإنسان يبحث دائماً عن اللذة ، ومن قائل بأنه بطبيعته شرير ومن قائل
بأنه خير بطبيعته . والدوافع عند برجسن طاقة حيوية ، وعند مكندوجل قوة غائية ،
تهدف إلى غرض خاص ، وعند فرويد طاقة جنسية لاشعورية ، وعند شو بنهور إرادة ،
وعند نيتشه وآدلر قوة وسيطرة .

فموضوع الدوافع إذن قُلْبٌ حَوْلَ .

وللباحث في علم النفس الاجتماعي أن يمر به مرأً سريعاً وأن يوجه انتباهه
إلى الدراسة العلمية الموضوعية للعلاقات الاجتماعية وأثر البيئة فيها ، وله أن يقبل
إحدى النظريات القائمة التي تفسر أسباب السلوك ليهيئ لنفسه إطاراً علمياً لأبحاثه
التجريبية ؛ دون أن يتدخل في جوهر الاختلافات القائمة بين النظريات وله أن يسلك
طريقاً وسطاً ، فينشئ لنفسه فروضا عامة تجمع شمل الحقائق المختلفة التي تسفر عنها
جميع هذه النظريات ثم يؤلف منها كلاً متماسكاً منطقياً .

فالدوافع بهذا المعنى دراسة شاملة لجميع الملاحظات التي تثير وتنظم وتوجه سلوك
الكائن الحي . والإثارة تعمل على انطلاق الطاقة في مسالك خاصة منتظمة تتجه
نحو غرض حيوي .

وترتبط الدوافع ارتباطاً وثيقاً بجميع الاكتشافات علم النفس . فكل سلوك

(١) راجع الفصل الأول .

— مهما كان أمره — يتصل بطاقة ما ، ويهدف إلى غرض محدود ، ويسلك مساراً مُعَيَّناً ، وتثيره عوامل خاصة .

ويرى المؤلف أن اختلاف وجهات النظر التي تتناول تفسير دوافع السلوك ، يرجع في جوهره إلى اختلاف طرق البحث التي عولج بها هذا الموضوع ، وإلى اختلاف أهداف كل طريقة . لذلك كان حقاً علينا أن نبحث الدوافع بحثاً تحليلياً من زواياها المختلفة .

١ — الدراسة الفسيولوجية والنظرية السلوكية

تهدف هذه الدراسة إلى بحث الدوافع بحثاً موضوعياً لاتشوبه ذاتية ما . فهي بذلك تقصر ميدانها على رصد السلوك الظاهر الذي يخضع للقياس الكمي . وتهتم برصد أدق جزئياته ، رصداً يساير تنابعا الزمنى القصير .

ولا شك أن للدوافع صفاتها ونواحيها المختلفة ، فهي من الناحية الفسيولوجية التشريحية ، تتلخص في التغيرات التي تنتاب الخلايا الحية . وتبدو في انقباض العضلات ، وفي تدفق الطاقة العصبية ، وفي إفراز الغدد ، وفي التغيرات الكيميائية العصبية الطبيعية التي تصاحب الدافع .

فهي بذلك مثير واستجابة ^(١) ، كما يبدوان في الفعل المنعكس والفعل المنعكس الشرطي . فلعاب الكلب الذي يسيل عند رؤية الطعام فعل منعكس . أما الفعل الشرطي فيبدو في اقتران الطعام بشيء آخر كضوء مصباح أحمر ، ويؤدي هذا الاقتران إلى اكتساب الضوء صفة خاصة فيصبح مثيراً للعباب الكلب عند ما يختفي الطعام ويبقى الضوء وحده .

تلك صفة تصلح لتفسير ناحية ضيقة جداً من مشكلة الدوافع ، وتُخْطِئ في تفسير الدعائم الأخرى للمشكلة . ذلك بأنها تهمل دراسة الناحية الشعورية النفسية .

1. Stimulus—Response, or S—R.

وتتضمن على الإنسان والكائنات الحية الأخرى صورة آلية ثابتة صماء . وهي تعجز عن تفسير تغير واختلاف استجابات الكائن الحى ذاته بالنسبة لمثير واحد . ومثلها فى ذلك كمثل الأفعال العشوائية التى لا يؤازرها هدف محدود أو قصد معروف .
فهى بهذا المعنى دراسة محدودة قاصرة .

٢ - الدراسة التبعية والنزعات الفطرية

تهدف هذه الدراسة إلى البحث عن أنواع السلوك العامة المشتركة عند جميع أفراد الجنس الإنسانى وعند غيره من الحيوانات الراقية ، والتى لا تُكتسب بالتعلم . فهى إذن تستطرد فى دراسة السلوك طوراً بعد طور ، وأسلوباً بعد أسلوب فى سلم متعاقب الدرجات يبدأ بالحيوان وينتهى عند الإنسان .

والنزعات الفطرية دوافع موروثة تلقائية تصدر من الكائن الحى ذاته لتحقيق له غرضاً خاصاً وهدفاً معيناً .

وتنقسم النزعات الفطرية إلى خاصة وعامة ؛ فأما الخاصة فتتنقسم بالنسبة إلى شكلها الظاهرى إلى عدد كبير من الغرائز ، وتنقسم بالنسبة إلى أهدافها المباشرة القريبة إلى عدد صغير محدود من الغرائز ، وتنقسم بالنسبة إلى أهدافها البعيدة ومنابعها الأولى إلى غريزتين أو غريزة واحدة . وأما العامة فتتنقسم إلى نزعات فردية ونزعات اجتماعية .

والغريزة كما يُعرفها مكدوجل W. McDougall^(١) استعداد فطرى عصبى نفسى يؤدى بصاحبه إلى الانتباه إلى مؤثرات خاصة يدرکها إدراكاً حسياً ، ويشعر بانفعال خاص عند إدراكها ، ويسلك نحوها سلوكاً خاصاً أو يشعر بنزعة خاصة لأن يسلك هذا السلوك . وهى بهذا المعنى أشبه ما تكون بجهاز دقيق يعمل بفطرته وبسجيته ومن تلقاء نفسه دون الاعتماد على الخبرة المكتسبة ، ليحقق للكائن الحى هدفاً حيويًا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياته .

1) McDougall, W., An Introduction to Social Psychology, 1908.

هذا وتختلف التعاريف المختلفة للغريزة باختلاف النواحي التي تؤكد فيها فيؤكد
 لورنز K. Z. Lorenz الاستجابة التلقائية^(١) . ويؤكد ويلد H. P. Weld
 الاستجابة الخاصة^(٢) . ويؤكد هبب D. O. Hebb^(٣) ولاشلي K. S. Lashley^(٤)
 ناحيتها النظرية ويذهب^(٥) إلى أنها تصلح للتنبؤ بالسلوك . ويؤكد بيرندز
 G. P. Baerends ناحيتها الحركية. ويذهب تينبرجن N. Tinbergen^(٦) وهينجستون
 R. W. G. Hingston^(٧) إلى أن الغريزة مازالت مدركا تقصر الألفاظ عن تعريفه.
 ومن الأمثلة الواضحة للسلوك الغريزي ما نفعله أثنى دبور الماسون Mason Wasp
 حيث تضع بيضها في حفرة صغيرة تحفرها له في الطين . ثم تمضي تبحث عن الديدان
 حتى إذا وجدت لها سعت إحداها لسعة مميتة ؛ ثم هي بعد ذلك تحملها حيث تضعها
 إلى جوار البيض ؛ ثم تغلق الحفرة وتمضي في سبيلها . وحينما يفقس البيض يجد غذاءه
 في الدودة الملقاة إلى جواره^(٨) . فسلوك هذه الحشرة سلوك غريزي لا يعتمد في جوهره
 على خبرة أو تعلم . وهو يهدف — كما أسلفنا — إلى أغراض حيوية واضحة .

١ — دراسة الشكل الظاهري

تؤكد الدراسة الشكلية الظاهرية للغريزة ، الناحية السلوكية النوعية . ولهذا

- 1) Lorenz, K. Z., The Companion in the Bird's World, 1937.
- 2) Weld, H. P., Instinct, Encyc. Amer., 1949.
- 3) Hebb, D. O., Organization of Behavior, 1949.
- 4) Lashley, K. S., Structural Variation in the Nervous System in Relation to Behavior, Psych. Rev., 1947, p.p. 325—334.
- 5) Baerends, G. P., Specialization in Organs and Movements with a Releasing Function, 1950.
- 6) Tinbergen, N., The Hierarchical Organization of Nervous Mechanisms Underlying Instinctive Behavior, 1942.
- 7) Hingston, R. W. G., Instinct and Intelligence, 1929.
- 8) Valentine, C. W., Psychology and its Bearing on Education, 1950, p.p. 54—55.

تعددت وكثرت غرائز هذه الدراسة ، وذلك لتعدد واختلاف المظاهر النزوعية
للغريزة الواحدة .

هذا ولقد أعلن وليم جيمس W. James سنة ١٨٩٠ قائمة للغرائز تحوى حوالى
٣٣ غريزة^(١) ؛ نذكر منها على سبيل المثال : الخوف ، والصراخ ، والصيد ، والتسلق ،
والخجل ، والغيرة ، والابتسام ، والحب ، والنظافة ، والطاعة ، والنظام .

وفي سنة ١٩١٣ أعلن ثورنديك E.L. Thorndike قائمة للغرائز تشتمل على ٤٢
غريزة^(٢) ؛ نذكر منها الضحك ، والبكاء ، والتشاوب ، والأكل ، والمقاتلة . ولقد
حاول ثورنديك بعد ذلك أن يفسر غرائزه تفسيراً يعتمد فى جوهره على المورثات
Genes وأثرها فى الغرائز ، لكنه لم يلق نجاحاً يذكر .

وفي سنة ١٩١٩ أعلن وارن H. C. Warren قائمة للغرائز تتألف من ٣٢ غريزة ،
أهمها الاختفاء والاستياء^(٣) .

٢ - الدراسة الغائية للأهداف القريبة

الغريزة عند مكدوجل غائية تسير غايات الفرد والجنس والحياة كافة . وهى
بذلك تتفق ومدرسته الغرضية Hormic School . ويذهب مكدوجل إلى أن الهدف
أو الغرض هو السبب الجوهرى الكامن وراء كل سلوك . وحينما يتحقق الهدف و يبلغ
الكائن الحى غايته ، يشعر بارتياح ؛ وحينما يخفق يشعر بضيق .

وهكذا يستطرد مكدوجل فى دراسته وتحليله ، حتى يصل إلى قائمة غرائزه المشهورة .

هذا ويمكن تقسيم غرائز مكدوجل إلى فردية واجتماعية .

فأما الفردية فتتلخص فى : غريزة البحث عن الطعام وانفعالها الجوع ؛ وغريزة

1) James, W., The Principles of Psychology, 1890.

2) Thorndike, E.L., Educational Psychology, 1913.

3) Newcomb, T.M., Social Psychology, 1950, p. 87.

التملك وانفعالها لذة التملك ، وهي تتصل من قريب بالبحث عن الطعام وتبدو هذه الصلة واضحة جلية عند السنجاب والنمل والنحل ؛ وغريزة الاستغاثة وانفعالها الشعور بالعجز والكره الذى يحتاج إلى معونة ؛ وغريزة الهرب وانفعالها الخوف ؛ وغريزة النفور وانفعالها الاشمئزاز ؛ وغريزة الضحك وانفعالها الشعور بالمرح والتسلية ؛ وغريزة الاستطلاع وانفعالها التعجب ؛ وغريزة الحل والتركيب وانفعالها لذة الابتكار وهي تتصل من قريب بغريزة الاستطلاع .

وأما الغرائز الاجتماعية فتتلخص فى : الغريزة الجنسية وانفعالها الشهوة وهي لا تظهر مكتملة عند الإنسان إلا فى دور المراهقة ؛ وغريزة الوالدية وانفعالها الخوف ، وترتبط بالغريزة الجنسية برباط وثيق ولهذا فهي تظهر متأخرة عند الإنسان ؛ وغريزة السيطرة وانفعالها الزهو وتشاهد بوضوح فى الأطفال وفى الطيور ^(١) ، وغريزة الخنوع وانفعالها الشعور بالنقص وهي تتصل اتصالا مباشرا عكسيا بغريزة السيطرة ؛ وغريزة المقاتلة وانفعالها الغضب ؛ وغريزة التجمع وانفعالها الشعور بالوحدة والعزلة .

وهكذا نرى أن الغرائز تعمل على المحافظة على الفرد ، والجماعة ، والنوع . ونرى أيضا أن أهم الغرائز التى تعمل على المحافظة على الفرد هي غريزة البحث عن الطعام ولهذا الغريزة — عند جميع الحيوانات — جهاز عضوى فسيولوجى تشريحي خاص بها . وأهم الغرائز التى تعمل على المحافظة على النوع هي الغريزة الجنسية ، ولهذا الغريزة أيضا جهازها العضوى الفسيولوجى التشريحي .

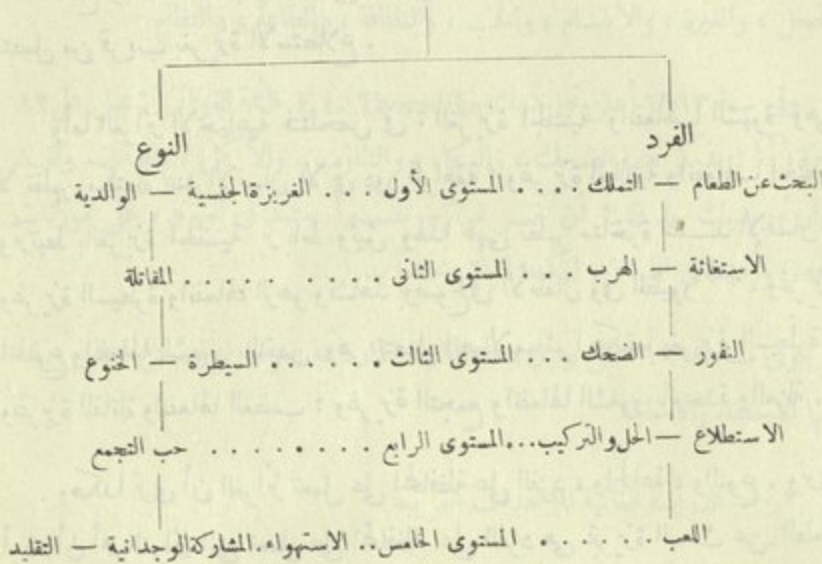
ومهما يكن من أمر الخلاف القائم حول فطرية الغرائز ، فإنه ما من شك فى أن البحث عن الطعام والغريزة الجنسية ؛ غريزتان فطريتان ، ودعامتان أساسيتان من دعائم الحياة ، فى أية صورة من صورها المتعددة المختلفة .

هذا وتتصل اغرائز الأخرى بهاتين الغريزتين اتصالا منطقيًا واضحًا . ونخال أننا لانخرج بالتحليل العلمى عن مداه إذا ذهبنا إلى أن جميع هذه الغرائز تنظم فى كل

(٢) راجع الفصل الثالث — السيطرة عند الحيوانات ص ٤٩ — ٥٠ .

متكامل هرمي التصنيف والتقسيم ، يؤلف منها جميعاً سلماً متعاقب الدرجات ، تتصل ذروته العليا بالمحافظة على الحياة . ويمكن توضيح هذه الفكرة برسم يبين التنظيم الهرمي للنزعات الفطرية ، كما يراها المؤلف ويبدو ذلك في شكل ٢٧ .

المحافظة على الحياة



شكل (٢٧)

التنظيم الهرمي للنزعات الفطرية

والغرائز لا تبقى عند الإنسان بصورتها الفطرية الأولى ، بل تتطور مع نموه وتتكيف لبيئته وتتصل من قريب بالفروق الفردية القائمة . فتتعديل نواحيها الإدراكية وذلك بأن يثيرها مثير غير مثيرها الطبيعي .

وتتعديل أيضاً نواحيها البروعية وذلك بأن تستجيب استجابات تختلف عن استجاباتها الفطرية الأولى . هذا وقد تتركز وتتجمع انفعالات عدة حول شيء خاص لتكوّن عاطفة ما . وتأثر الغرائز ببعضها البعض وذلك عند ما تُثار أكثر من غريزة واحدة في وقت واحد .

وتنقسم النزعات الفطرية العامة إلى فردية واجتماعية .

فأما الفردية فيقتصرها مكدوجل على اللعب ، وهو كل عمل غايته في ذاته ،

وهو بهذا يختلف عن أى عمل آخر يهدف إلى أية غاية لاتتبع مباشرة من ذاتيته .
ويتطور اللعب فى حياة الفرد مع تطور مراحل نموه فيبدأ لعباً إيهامياً انغزالياً انفرادياً
ويذهب إلى اللعب التعاونى الاجتماعى .

وأما النزعات الاجتماعية فتتلخص فى : القابلية للاستهواء وتبدو فى استعداد
الأفراد لتقبل أفكار وآراء الآخرين دون مناقشتها مناقشة منطقية صحيحة ؛ والمشاركة
الوجدانية وتبدو فى شعور الأفراد بانفعالات الآخرين ومشاركتهم فيها كأن تشعر
بحزن صديق لك ثم تشاركه هذا الحزن ؛ والتقليد يبدو فى انتقال السلوك من كائن
لكائن آخر ^(١) .

هذا وبين هذه النزعات الاجتماعية وبين مظاهر الغريزة الثلاثة (إدراك —
انفعال — نزوع) صلة وثيقة ؛ فالأولى إدراكية ، والثانية انفعالية ، والثالثة نزوعية .

٣ — الدراسة الغائية للأهداف البعيدة

تعتمد الدراسة الغائية للأهداف البعيدة العميقة على النظريات الثلاث التى
تبحث اللاشعور ؛ وهو — أى اللاشعور — عند فرويد زعيم مدرسة التحليل
النفسى Psychoanalysis وعند آدلر زعيم مدرسة علم النفس الفردى Individual
Psychology لاشعور فردى ، وعند يونج زعيم مدرسة علم النفس التحليلى
Analytical Psychology لاشعور جماعى عام ^(٢) .

ويرجع فرويد دوافع السلوك إلى غريزتين : غريزة تعمل على بقاء الحياة
والنوع وهى الغريزة الجنسية ، وغريزة تميل إلى العدوان والكراهية والغيرة

(١) راجع الفصل الثالث ٤٧ — ٤٩

(٢) تنصل سيكولوجية يونج بلم الأنماط البشرية Typology . هذا ونعل أشهر الأنماط
المعروفة المتقاربة المتشابهة هى التالية :

- i. The extraverted type of Jung,
- ii. The integrated type of Jaensch,
- iii. The hypoevolute type of Pende,
- iv. The pyknic type of Kretschmer, and
- v. The extratensive type of Roschach.

وهى غريزة الموت . والأولى موجبة والثانية سالبة . فهما إذن بهذا المعنى وحدة ذات طرفين .

ويرجع آدلر دوافع السلوك إلى الشعور بالنقص . ومحاولة الفرد الدائمة لتعويض هذا النقص . وهذا ينحو به نحو القوة والسيطرة . فدوافع السلوك كلها عند آدلر تنضج من نبع القوة والسيطرة .

أما دوافع السلوك عند يونج فتنبع من الطاقة الحيوية ، التى تظهر فى صور مختلفة كالنمو والتناسل والحب . وتمكن هذه الطاقة فى اللاشعور الجماعى الذى يحتوى خبرات وتجارب الأجيال السحيقة التى تصل الفرد بالإنسان البدائى . وهكذا يصل يونج بتحليله هذا إلى تقسيم الناس إلى نماذج وأنماط رئيسية Archetypes كالمبسط وهو الذى يتجه بطاقته الحيوية نحو العالم الخارجى ، والمنطوى وهو الذى يتجه نحو ذاته وعالمه الداخلى .

وأنماط يونج لا شعورية ، لكنها مع ذلك تتصل اتصالاً وثيقاً بالشعور ، مؤثرة ، دافعة ، موجهة . وهى أسبق منه فى الوجود . ويعتقد يونج أنها ولدت مع العقل المتطور من الحيوانية إلى الإنسانية . ثم يستطرد فى تحليله ليقدر أن هذه الأنماط تتكون من تراكم خبرات النوع بمظاهر الحياة المتكررة ، ومما يعلق بها من أساطير وخرافات تدور أغلبها حول الحياة والموت والقوة والضعف .

وبذلك ترمز الأنماط إلى انتصار السلالة الأولى أو فشلها وإلى آمالها وخاوفها . وتنحدر هذه القوى الدافعة إلى الفرد كصور عقلية أو كإنفعالات وجدانية توجه سلوكه (١) .

I) Fordham, F., An Introduction to Jung's Psychology, 1953, p.p. 24-25,

٣ - دراسة النمو والاستقلال الوظيفي^(١)

لاشك أن الغرائز تتغير وتعدل تبعاً للتحويل والتطور الذي يطرأ على حياة الفرد وهو يدرج في طريق نموه من طفل صغير إلى شاب يافع إلى إنسان بالغ . فتبدأ مظاهر الحياة عند الطفل بحركات عشوائية ثم تتطور إلى سلوك منتظم متسق التكوين والدعائم . وتبدأ علاقات الوليد كعلاقات طفيلية تشتق وجودها من عائل أساسي كالأم والأب ثم تستقل جزئياً وتستقل نهائياً في وظائفها المختلفة . وحياة النبات في طورها الأول استمرار للبذرة التي منها نبت ، لكنه لا يلبث أن يستقل عنها في وظائف حياته .

ولقد سبق أن أشرنا إلى تعديل الغرائز في مظهريها الإدراكي والنزوعي رغم ثبات مظهرها الانفعالي ، ولا جناح على الباحث في أن يستطرد مع دعاة الغرائز ليدرس هذا التعديل في صورته ومظاهره المختلفة .

فدراسة الدوافع بهذه الطريقة ومن هذه الزاوية تؤكد الدوافع المكتسبة وتصلها من قريب بالدوافع الفطرية ، ثم تحاول بعد ذلك أن تفهم هذه الصلة . وقديما تغالى ولم جيمس W. James في تحليله وذهب إلى أن الغرائز لا تبدو في صورتها الفطرية الأولى إلا مرة واحدة في حياة الفرد ثم تتحول بمدى إلى عادات^(٢) . وفي سنة ١٩٣٧ أعلن ألبرت G. W. Allport^(٣) نظريته في استحالة الدوافع من فطرية إلى مكتسبة

1) Functional Autonomy of Motives

2) The Doctrine of Transitoriness of Instinct

(٣) راجع كتاب ألبرت عن الشخصية :

Allport, G.W., Personality : A Psychological Interpretation, 1937, Chapter 7.

ولقد رد ألبرت على نقد دعاة المذهب الثاني في المقال التالي :

Allport, G.W., Motivation in Personality : Reply to Mr. Bertocci, Psych. Rev., 1940, 47, p.p. 533—554

ولقد اعتمد بيرتوكي في نقده لنظرية ألبرت على المذهب الثاني :

Bertocci, P.A., A Critique of G.W. Allport's Theory of Motivation, Psych. Rev., 1940, 47, p.p. 501—532

واطلق عليها اسم « الاستقلال الوظيفي للدوافع ». وتقرر هذه النظرية: أن الدوافع المكتسبة تشتق وجودها من الدوافع الفطرية ، ثم تستقل بعد ذلك عن مصدرها الأول استقلالاً وظيفياً ؛ وتؤدي بدورها إلى دوافع أخرى جديدة . وهكذا تستمر حياة الفرد في تطور ديناميكي فعال ، فتتأثر بالدوافع الراهنة ، وتؤثر في انبثاق وظهور دوافع أخرى جديدة ، ما تكاد تقوى حتى تستقل بوظائفها عن منبعها الأول . وهكذا تتغير دوافع الفرد وتتطور بتغير وتطور مراحل نموه وميوله واتجاهاته وخبراته وتعلمه .

فإذا رمزنا إلى السلوك بخط يبدأ حركته من منطقة خاصة بتأثير قوة دافعة ويستمر في هذه الحركة إلى أن يصل إلى غايته المرجوة ؛ فإننا نرمز للاستقلال الوظيفي بالحركة الدائبة المستمرة التي تسير بهذا الخط قدماً ، متنقلة به من منطقة الأخرى حتى تكسبه في كل خطوة معنى جديداً ومسلكاً نهجاً ، ومقصداً قريباً أو بعيداً . وبذلك فالاستقلال الوظيفي يؤكد ذاتية الشخص ويميزها بفرديتها .

ولنضرب لذلك مثل البحار الذي كان يرتزق من صناعته ، ويدفعه البحث عن الطعام إلى مثل هذا العمل . ثم يظل يرقى صُعداً في معارج الحياة حتى يصبح مديراً لأحد المتاجر الكبرى وتنقطع بذلك صلته بعمله الأول . لكنه لا يفتأ أن يحس بدافع يدفعه نحو البحر . وهكذا يبدأ الفرد عمله لغاية خاصة مقصودة تتصل من قريب بدافع فطري قوى ثم تتغير به دروب الحياة ومسالكها حتى تنأى به بعيداً عن عمله الأول . بيد أن هذا العمل ذاته قد يستقل وظيفياً عن دافعه المباشر ويصبح هواية تدفع صاحبها إلى الاستمتاع بها .

== واعتمد اندرسن ق تعقيبه ودراسته على فكرة تحول الدوافع من داخلية إلى خارجية:
Anderson, E.E., The Externalization of Drive, 1. Theoretical Considerations, Psych. Rev., 1941, 47, p.p. 204—224.

وقام مكينلند بدراسة ونقد الاستقلال الوظيفي كتحويل للدافع من أولى النانوى
McClelland, D.C., Functional Autonomy of Motives as an Extinction Phenomenon, Psych. Rev., 1942, 49, p.p. 272—383.

٤ - دراسة الطفولة ، والحاجات النفسية

الحاجات ، هي كل العوامل والملابس المختلفة التي تنشأ من بيئة الكائن الحي ثم ترتبط به ارتباطاً يساعده على احتفاظه بحياته وصحته الجسمية والنفسية ، والسير به مُدماً في طريق التكامل السوي .

وتدل أبحاث كانون W. B. Cannon التي أعلنها سنة ١٩٣٢ في كتابه « حكمة البدن »^(١) ، على أن استمرار حياة الكائن تقوم في جوهرها على اعتماده على بيئته في إشباع حاجاته الفسيولوجية كالطعام والهواء ، وحاجاته النفسية كالأمن والمحبة ويؤدي حرمان الكائن من إحدى هذه الحاجات إلى ارتفاع مستوى نشاطه حتى يتمكن من تحقيق الحاجة التي يرغب فيها . وإذا استمر الحرمان ، استمر تبعاً له النشاط حتى حين ، ثم يضعف الكائن وتفترسته ونشاطه ، ويمضي في طريق الفناء .

ولقد نشأت نظرية الحاجات من نتائج الدراسات التي أجريت على الأطفال في العيادات السيكلولوجية ، ومن أبحاث علماء الأجناس البشرية في الثقافة وأثرها في سلوك الفرد .

هذا وتختلف حاجات الإنسان وتتعدد وتنفذ في تباينها وكثرتها حاجات أي نوع من أنواع المملكة الحيوانية . وهي رغم كثرتها وتباينها ، ترجع في جوهرها - كما أسلفنا - إلى نوعين أساسيين :

١ - حاجات فسيولوجية - وأهمها الحاجة للطعام والحاجة الجنسية ، والحاجة للنوم .

ب - حاجات نفسية - وأهمها الحاجة إلى الاستجابة العاطفية . والحاجة إلى الأمن ، والحاجة إلى تجديد الخبرة أو المخاطرة .

ولقد أدت دراسة هذين النوعين إلى تسمية الحاجات الفسيولوجية حاجات

1) Cannon, W.B., The Wisdom of the Body, 1932.

أولية؛ وإلى تسمية الحاجات النفسية، حاجات ثانوية. ذلك لأن الحاجات النفسية أسبق من الثانية في سُلّم التطور البشرى، وهى بذلك تهيمن بقوة على حياة الوليد الرضيع في مستهل دورة الحياة عند الفرد.

وسنتناول دراسة الحاجات النفسية بشئ من التفصيل في التقسيم التالى:

١ - الحاجة إلى الاستجابة العاطفية

لعل أهم الحاجات النفسية هى الحاجة إلى الاستجابة العاطفية؛ لأنها اللبنة الأساسية فى صرح المجتمع والحضارة القائمة. وقد يتأتى للفرد أن يجد نفسه أحياناً وسط جماعة ما، ولا يشعر فى قرارة نفسه بأية استجابة عاطفية بينه وبين أفرادها، وتهيمن عليه بذلك عزلة قاسية.

وتلك حاجة عالمية يشترك فيها جميع أفراد النوع البشرى. ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أنها غريزية فطرية. والقول بأنها فطرية أو مكتسبة يتطرق بنا إلى مشكلة قد يستعصى حلها. فالفرد حينما يولد، يعتمد اعتماداً كلياً على الآخرين. وتتصل حياته من قريب وبعيد بأبويه وذويه، إتصالاً بيولوجياً يتطور مع نموه إلى روابط وعلاقات نفسية عدة. وهو طوال تلك المراحل يقيم لنفسه استجابات عاطفية مختلفة تتشابه وتختلف فى بدء حياته حتى يصعب على الباحث فصلها فصلاً يديناً. ولا شك أن حاجة الرضيع إلى العطف تقرب من حاجته إلى الغذاء. ولهذا قال أحد علماء التحليل النفسى «الأطفال الذين لا يُحبّون، لا يعيشون»^(١).

وبما أن كل فرد قد مرّ بطور الطفولة فى بدء حياته، وتأثر بهذه العوامل المختلفة فالبحت فيما إذا كانت الاستجابات العاطفية فطرية أم مكتسبة، ببحث شاق ولا طائل ورائه، اللهم إلا من الناحية النظرية البحتة. ومهما يكن من أمرها فلا شك فى أنها عالمية عامة بين جميع أفراد الجنس البشرى.

1. Babies who are not loved do not live.

٢ - الحاجة إلى الأمن

يذهب بلاتز W.E. Blatz إلى أن الأمن حاجة أساسية في حياة كل فرد ^(١) .
فحينما يواجه الإنسان الأمن المطمئن مشككة ما، فإنه يسلك سلوكاً خاصاً في حلها ويتحمل
كل ما يترتب على هذا السلوك من نتائج . ويمكننا أن نذهب إلى أن كل فرد يطمح
في أن يكون آمناً مطمئناً في إحدى المظاهر الأربعة التالية :

١ - الغاية التي يسعى لبلوغها .

ب - الوسيلة التي يتبعها لبلوغ تلك الغاية .

ج - المهنة التي يرتزق منها .

د - العلاقات الاجتماعية التي تصله بالأفراد المختلفين ، وبالثقافة القائمة .

وتعتمد الحاجة إلى الأمن على إدراك الفرد للزمن على أنه تيار متصل الأوشاج ،
ينساب من الماضي إلى المستقبل ، ويعبر الحاضر في طريقه . ولعل ذلك هو ما يدفع
الإنسان ليبصر الأمل المشرق الوضاء في غياهب المستقبل ؛ فينأى بنفسه بعيداً عن
اللذات العاجلة الراهنة ليصل إلى لذة كبرى آجلة مستقبلة . ولهذا الحاجة ارتباط وثيق
بالأديان والشرائع السماوية . وهي من أهم مميزات الحضارة المصرية القديمة . ذلك
بأنها تهبط من المستقبل إلى الحاضر لتوجه السلوك البشري وجهات خاصة تعمل على
بقاء الحياة الاجتماعية واستمرارها .

والطفل في باكورة حياته يشق الأمن من والديه ، فيطمئن لهما ، ثم لنفسه ، ثم
لحياته بكل ما يضطرب فيها من أحداث .

٣ - الحاجة إلى الجدة

لعل أقوى مظهر من مظاهر الحاجة إلى الجدة والمخاطرة ، هو شعور الفرد بالملل

1. Blatz, W.E., Human Needs and How they are Satisfied, Child
Welf. Pamphl., 1934, 44.

ومحاولته الدائبة للتخلص منه بارتياحه آفاقاً جديدة . ولهذه الحاجة مستويات وأنواع عدة ، كالاستطلاع والاستكشاف والاختراع والهجرة . فهي بذلك أعم وأوسع مدى من غريزة حب الاستطلاع .

ويذهب لينتون R. Linton^(١) . إلى أنها أقل أهمية من الحاجة إلى الاستجابة العاطفية والحاجة إلى الأمن . ذلك بأنها لا تلج على الفرد لإشباعها قبل أن يفرغ من إشباع الحاجتين السابقتين .

التصنيفات الأخرى المختلفة للحاجات

يذهب بعض الباحثين إلى أن الحاجات الأساسية هي الحاجة للنمو ، وحاجة الفرد لأن يُحِبَّ ولأن يُحَبَّ . ويرى المؤلف أن التحليل العلمي المنطقي الدقيق يجب أن يقيم من أُنمو إطاراً عاماً تُنسب إليه مظاهر الحياة كلها كما نفعل في قياس الذكاء والقدرات العقلية المختلفة .

أما حاجة الفرد لأن يُحَبَّ وحاجته لأن يُحَبَّ فهما مظهران من مظاهر الاستجابة العاطفية .

ومن الباحثين فئة أخرى ترجع دوافع السلوك إلى ست حاجات مختلفة هي الحاجة للأمن ، والحاجة للمحبة ، والحاجة للتقدير ، والحاجة للحرية ، والحاجة للنجاح ، والحاجة للتوجيه . ولا شك أن لهذه الحاجات صلة وثقى بغرائز مكندوجل ولا شك أيضاً أنها تقصر عن بلوغ الأعماق التي تصل إليها نظرية الغرائز بدراساتها التنبؤية^(٢) .

ولقد تغالى بعض الباحثين في عدد الحاجات ، حتى وصلت عند موري

1. Linton, R., The Cultural Background of Personality, 1945, Chapter 1,

(٢) لمناقشة صلة هذه الحاجات بغرائز مكندوجل ، راجع :

الدكتور عبد العزيز النوصي — أسس الصحة النفسية ، ١٩٤٨ ، ص ٧٣ — ٨٤ .

H.A. Murray^(١) إلى ٢٩ حاجة ، نذكر منها على سبيل المثال : الحاجة إلى المعرفة ، والحاجة إلى التنظيم ، والحاجة إلى التغذية ، والحاجة الجنسية ، والحاجة إلى اللعب ، والحاجة إلى السيطرة . ولقد توصل موري إلى قائمته تلك من نتائج أبحاثه في العيادة السيكولوجية بهارفارد . ولقد حاول أن يكشف العلاقة القائمة بين السلوك الظاهر والدوافع الكامنة للشخصية ، وذلك برصد أنواع الخيال الإيهامي كما تثيرها الصور ، والقصص ، والألفاظ ، والأصوات المختلفة .

التحليل السيكولوجي للحاجات

الدراسة التحليلية السيكولوجية للحاجات تتناولها من نواحيها الثلاث :

- ١ — الحاجات كتنظيم متدرج هرمي للدوافع ، أو كنموذج علمي لتفسير السلوك .
 - ب — ارتباط الحاجات بالكائن الحي وبوظائفه البيولوجية الفسيولوجية .
 - ج — ارتباط الحاجات بالبيئة المحيطة بالكائن الحي ، وأثر الثقافة والعلاقات الاجتماعية في تنوع حاجات الإنسان .
- فالخاجة لشرب الماء فطرية ؛ والحاجة لشرب القهوة أو الشاي أو غيرها مكتسبة ، وهي تعتمد إلى حد كبير على التعلم ، وعلى أثر الثقافة القائمة في الفرد والجماعة . وقد تتطور هذه الحاجات المكتسبة حتى تكاد تهيم على سلوك الفرد والجماعة . ولنضرب لذلك مثل إدمان الخمر والمخدرات . ولهذا المثل أهميته النفسية ، فهو يقيم الدليل على إمكان خلق حاجات قوية جديدة ، ويفصح عن مشكلة سيكولوجية تحتاج للدراسة والتحليل العلمي . ذلك بأن المخدرات حاجة مكتسبة قوية ، تؤثر تأثيراً ضاراً على الفرد وتُفسد صحته الجسمية والنفسية .

1. i- Muray, H.A., Basic Concepts for a Psychology of Personality J. Gen. Psychol., 1936, 16, P.P. 241-268.
- ii-, Facts which Support the Concept of Need or Drive, J. Psychol., 1936, 3, P.P. 27-42.
- iii-, Techniques for a Systematic Investigation of Fantasy, J. Psychol., 1936, 3, P.P. 115-143.

هذا ويمكن تنسيق الحاجات تنسيقاً يعتمد على درجة شدتها . وذلك بمقارنة كل حاجتين مقارنة تجريبية حتى نصل إلى تسلسلها العلمي . وتدل التجارب التي أجراها وarden C.J. ^(١) . على أن الحاجة الوالدية ، أشد أنواع الحاجات عند الفأر الأبيض ، وأن الحاجة إلى الجدة والاستطلاع أضعفها ، وتتلخص التجربة في حرمان الحيوان من إحدى هذه الحاجات لمدة زمنية ما . ثم فصله عن هدف إشباعه بمسار خاص تعترضه أسلاك كهربائية عارية بحيث تمنعه عن الوصول إلى الهدف بما تحدثه في جسمه من صدمات كهربائية .

والجدول التالي يبين نتائج هذه التجربة :

متوسط عدد مرات محاولة الفأر للوصول إلى هدفه	الحاجة
٢٢,٤	الوالدية
٢٠,٤	العطش
١٨,٢	الجوع
١٣,٨	الحاجة الجنسية
٦	الحاجة إلى الجدة

ولقد قام R. Levine ، وشين I. Chein ، وميرفي G. Murphy بتجربة على بعض الأفراد لقياس أثر شدة الرغبة في الحاجة على الإدراك وما يعتريه من زيغ واعوجاج ^(٢) . وتتلخص نتائج التجربة في رصد ما يعتري الإدراك من تحريف وتصحيف عند عرض ٨٠ صورة غامضة ، ٤٠ منها ملونة و ٤٠ غير ملونة ، على أفراد مضى على طعامهم ساعة واحدة و ٣ و ٦ و ٩ ساعات . والجدول التالي يبين نتائج هذه التجربة .

1. Warden, C. J., Animal Motivation, 1931.
2. Levine, R., Chein, I., and Murphy, G., The Relation of the Intensity of a Need to the Amount of Perceptual Distortion, J. Psychol., 1942, 13, P.P. 283-293.

زيج الادراك		الزمن الذى مضى بعد الطعام
صور غير ملونة	صور ملونة	
—	تخيل واضح لأنواع الطعام	١ ساعة
تخيل واضح لأنواع الطعام	»	٣ »
»	تخيل ضعيف لأنواع الطعام	٦ »
تخيل ضعيف لأنواع الطعام	»	٩ »

وهكذا تؤكّد هذه النتائج الحقيقة التى أسلفنا ذكرها فى مستهل مناقشتنا للحاجات ،
والتي تتلخص فى أن شدة الرغبة فى الحاجة تبدأ هادئة ، ثم تُلح على الفرد فى إشباعها ،
ثم تضعف وطأتها بعد ذلك .

وتدل أبحاث كاتز D. Katsz على أن اختيار نواحي إشباع الحاجة يتغير تبعاً
لتغير شدة الرغبة فيها ^(١) ؛ فكلما ازدادت شدة الرغبة ، ضعفت عناصر التمييز فى
الاختيار ؛ فالذى يتصور جوعاً يرضيه أى طعام لإشباع حاجته ، والجوع الجزئى يدفع
صاحبه لانتقاء واختيار ألوان خاصة من الطعام .

هذا وتختلف حاجات الإنسان عن حاجات الحيوان فى أنها تتأثر بماضيه
وبمستقبله . وفى وسع الإنسان أن يُرجى تحقيق بعض حاجاته ، وله فى ذلك
أساليب عدة تعتمد فى جوهرها على علاقته بالثقافة القائمة ، فالنظام النقدي يمهّد له
السبيل لمرونة فائقة فى إشباع حاجاته . وتلك رمزية لم يكن لها أن تظهر إلا فى
المجتمعات الإنسانية .

مرونة الحاجات

يؤكد كاتز D. Katz مرونة الحاجات . ويستطرد فى تحليله دارساً مقارناً حتى

1. Katz, D., Psychological Needs, in Human Affairs, edit. by
Cattell, R. B., and others, 1938, Chapter 3.

يصل إلى أن الحاجات أوسع مدى وأكثر شمولاً في تفسيرها لدوافع السلوك من الغرائز .

وتكسبها هذه المرونة ديناميكية تجعلها في تفاعل دائم مع الفرد والبيئة والموقف الكلى . وهى لذلك لا ترتبط ارتباطاً قوياً بمثيرات خاصة تصحبها استجابات معينة ، بل تتكيف بالنسبة للكائن الحى ذاته ، ولشدة رغبته فى الحاجة ، ولعوامل البيئة المحيطة به .

فالموقف الواحد قد يثير حاجات مختلفة متباينة . ويعتمد ظهور هذه الحاجات على شدة رغبة الكائن الحى فيها ودرجة عزوفه عنها . ولذلك تختلف معانى عناصر الموقف باختلاف حاجة الكائن الحى إليها . فعنى الماء للظامى يختلف عن معناه للمرتوى .

وتدل أبحاث أكسل Uexküll على أن أنثى العنكبوت قد تأكل الذكر بعد أن تشبع حاجتها الجنسية منه . ولقد تتبع رسل E.S. Russell تباين حاجة الكلب للعظمة الجافة النظيفة تبعاً لتباين رغبته فيها ؛ وذهب إلى أنها قد تصبح له كرة يلعب بها ، أو قد تصبح شيئاً آخر يختلف باختلاف نوع الحاجة التى يسعى لها الكائن الحى . ولقد رصد الباحث سلوك كلبة حُبلى فألفاها تبحث عن عظمة جافة ثم تنظفها بعناية ثم ترقد إلى جوارها ثلاث ساعات أو أكثر . وتصيح فى عواء عدائى إذا اقترب من عظمتها أحد ، ثم تحملها إلى مسكنها وتحنو عليها كما تحنو الأم على رضيعها ^(١) .

والحيوان الجائع يقسم البيئة المحيطة به إلى قسمين : ما يؤكل وما لا يؤكل . والحيوان الخائف يرى الطرق التى تصلح هربه والأماكن التى تصلح لاختفائه . والآمن المطمئن لا يرى فى بيئته كل هذه المعانى النفسية .

وهكذا يعتمد سلوك الكائن الحى فى أى موقف ما على التنظيم العام لكل

1. All these examples are quoted from :

Katz, D., Animals and Men, 1953, Chapter 6.

حاجاته ، وعلى مدى تباين واختلاف شدة تلك الحاجات بالنسبة لبعضها . فالحيوان الهارب إذا جاع لا يأكل حتى يذهب عنه خوفه ^(١) .

ديناميكية الحاجات

للحاجات ديناميكيتهما ، فهي تدفع صاحبها أو تميل به نحو الحركة التي تؤدي إلى الفعل ، وهذا بدوره يؤدي إلى تحقيق الهدف .

والتفسير الديناميكي للحاجات يؤكد تلك الصفة ويدرسها على أنها نظام يتسم بالتوتر . وبذلك تدل الرغبة في الحاجة على مدى توتر واختلال قوى التنظيم النفسى القائم . ويدل إشباع الحاجة على استقرار التنظيم وزوال هذا التوتر .

ولقد حاول ليڤين K. Lewin أن يدرس ديناميكية الحاجات . واستعان على ذلك بنظرية المجال وبالطريقة التوبولوجية وبطريقة الموجّهات ^(٢) ، وبنماذج تجارب زيجارنيك B. Zeigarnik التي تقوم على دراسة الرغبة في الحاجة على أنها توتر داخلى يعترى التكوين النفسى للفرد .

هذا ويمكن تلخيص ديناميكية الحاجات فى الفروض التالية :

١ - الرغبة فى الحاجة - يمكن دراسة رغبة الكائن الحى فى الوصول إلى هدف حاجته (هـ) على أنها توتر (ت) يعترى التنظيم الداخلى (ظ) للفرد .

وتظل هذه الرغبة تُلحّ على الفرد لإشباع الحاجة ، طالما أن توتر التنظيم الداخلى يزيد على الصفر . أى طالما أن :

$$ت (ظ) < صفر$$

(١) يؤيد هذا المثال قانون Claparède كلاباريد المعروف باسم «الرغبة المؤقتة المسيطرة»
Law of Momentarily Dominant Interest.

(٢) راجع الفصل التاسع : نظرية المجال وديناميكية الجماعات

٢ - إشباع الحاجة - يزول التوتر عند ما تصل الحاجة إلى درجة الإشباع .
وبذلك يُصبح التوتر القائم في التنظيم الداخلي مساوياً للصفر عند ما يصل الفرد
إلى تحقيق هدف حاجته . أى أن :

$$ت (ظ) = \text{صفر}$$

٣ - القوة الدافعة - يتدفق نشاط الفرد في اتجاه هدف الحاجة التي يرغب
في الوصول إليها بتأثير القوة (ق) التي تدفع حركة الفرد صوب الهدف . وتزداد هذه
القوة الدافعة تبعاً لزيادة التوتر .

$$\text{وبما أن } ت (ظ) < \text{صفر}$$

$$ق < \text{صفر} \quad \therefore$$

$$\text{وعند ما تصبح } ت (ظ) = \text{صفر}$$

تتلاشى قوة الدافع ، وبذلك تصبح ،

$$ق = \text{صفر}$$

٥ - دراسة الطاقة والنظرية الكلية الحيوية

حرصنا في دراستنا للنظرية الكلية الحيوية أن نوضح اعتمادها على أبحاث هويلر
التي تتناول أثر فكرة الطاقة في تطور العلوم المختلفة .

ولقد تناولنا قوانين هذه النظرية بالبحث والتحليل في الفصل الثامن من هذا
الكتاب ؛ وسنحاول الآن أن نستعرضها استعراضاً موجزاً ، يُفصح عن منهجها
ووسيلتها في تفسير دوافع السلوك^(٢) .

1. Lewin, K, Formalization and Progress in Psychology, University of Iowa Studies in Child Welfare, 1948, 16, No, 3, P.P. 9-42.
2. Wheeler, R., H., and Perkins F.T., Principles of Mental Development, 1940, Chapter 22.

١ - قانون صفات المجال

بما أن الكل أكبر من مجموع أجزائه ؛ إذن حَقَّ علينا أن ندرس الدوافع ككل ، لا كأجزاء صغيرة نضمها إلى بعضها البعض لنكوّن منها دافعاً ما . ولهذا فالانفعالات والعواطف ليست مجرد عمليات تؤثر في تكوين الدافع ، بل هي صفة من صفات مجال يتميز بطاقة استجابية . وهي بهذا المعنى تعمل على زيادة الطاقة ، زيادةً تؤدي إلى تحقيق الفعل الذي يهدف الفرد إلى بلوغه .

٢ - قانون الصفات المشتقة

تشتق الدوافع معناها من التنظيم الكلي للفعل كما هو كائن . ولهذا تختلف الدوافع تبعاً لاختلاف المواقف . وقد يصلح دافع ما في موقف ما لتحقيق هدف خاص ؛ ثم يفشل نفس الدافع في الوصول إلى نفس الهدف ، إذا تغير الموقف الكلي والتنظيم العام الذي يشتمل على الفرد وبيئته المحيطة به .

٣ - قانون تحديد الفعل

يحدد التنظيم الكلي العام للفرد ، نوع الدافع وشدته واتجاهه . ولهذا تختلف الدوافع باختلاف رغبات الأفراد ، وتظهر دوافع وتحتفي أخرى تبعاً لشدة رغبة الفرد في هذه أو في تلك .

٤ - قانون التميز بفرديّة

تتميز الدوافع بنسبتها إلى بعضها ، كما تتميز شخصية الفرد بنسبتها إلى الشخصيات الأخرى . ويخضع هذا التميز للعلاقات التي تربط الجزئيات بكليتها . فإذا فقد الدافع صلته بالتنظيم الكلي الذي يحويه فإنه يفقد معناه ووجوده .

٥ - قانون أصل المجال

يُغير الدافع سلوك الفرد . لأنه يوجهه نحو هدف خاص ويدل تغير السلوك

على نمو التنظيم الكلى وذلك بتمدده وانتشاره وتمايزه عن غيره من الكليات .

٦ - قانون الحد الأدنى للفعل

يؤدي الدافع إلى انطلاق الطاقة من منطقة الفرد إلى منطقة الهدف . وهو بذلك يعمل على تقريب الفرد من هدفه وذلك بزيادة الطاقة . أو تقريب الهدف من الفرد وذلك بالافصاح عن نواحي الجذب والإغراء التي تكمن في الهدف .

٧ - قانون أقصى الشغل

ينحو الكل نحو الاتزان ؛ فإذا اختل ، انطلقت الدوافع بقوة و بأقصى ما لديها من طاقة حتى تعيد للكل إترانه . ثم لا يلبث الاتزان أن يختل وتعود الدورة من جديد . وهكذا تمضي الحياة في دفعة إثر أخرى ، وفي جهد يتلوه جهد ، وأهداف تتساقى في معارج لا تنتهى إلا بانتهاء الحياة ذاتها .

٨ - قانون الهيئة أو الصورة

يعتمد الأثر الذى يتركه أى دافع ما ، على الآثار المختلفة التى تنجم عن الدوافع الأخرى ، وعلى مدى صلتها به . ذلك بأن التنظيم الكلى للدوافع يعمل دائماً كوحدة ، وهذه الوحدة صورتها التى تتفاعل مع الموقف المحيط بها .

٦ - الدراسات الاحصائية ، والانفعالية العامة

تقوم أهم الدراسات الإحصائية فى علم النفس على تحليل معاملات الارتباطات تحليلًا عامليًا للوصول إلى القدرات المختلفة .

وتقيس معاملات الارتباطات العلاقة القائمة بين ظاهرتين مختلفتين . والارتباط قد يكون موجبا ، وقد يكون سالبا . ويبدو الارتباط الموجب فى الازدياد الكلى لظاهرة ما نتيجة للازدياد الكلى لظاهرة أخرى ترتبط بها . ولنضرب لذلك مثل ازدياد طول الطفل تبعا لازدياد عمره ، ومثل ارتفاع عمود الزئبق فى الترمومتر تبعا

للازدیاد درجة الحرارة . ویبدو الارتباط السالب فی نقصان السکی لظاهرة ما
نتیجة للازدیاد السکی لظاهرة أخرى ترتبط بها . ولنضرب لذلك مثل نقصان جبر
القلم نتیجة للازدیاد عدد الصحف التي أكتبها ، ومثل نقصان حجم قطعة الثلج
نتیجة لارتفاع درجة الحرارة .

هذا وتختلف القيمة العددیة لمعامل الارتباط تبعاً لاختلاف مدى العلاقة القائمة ،
فیُصبح المعامل واحداً صحيحاً عند ما یصل الارتباط إلى درجة التوافق التام ، ویصبح
صفرأ ، عند ما یتلاشى الارتباط .

ولا یقتصر البحث فی علم النفس على معامل ارتباط واحد ، بل یستطرد حتی
یلمّ بأغلب أنواع الظواهر المعقدة المختلفة التي تبدو فی حیاتنا النفسیة ، ویصل بذلك
إلى رصد عدد ضخم من معاملات الارتباطات ، ثم ینسجها فی مصفوفة ما .

وینسفر التحلیل الإحصائی لهذه المصفوفة عن العوامل والأسباب الرئیسیة
التي تقوم على دعائمها وأركانها تلك الظواهر المختلفة . ویسمى هذا التحلیل تحلیلاً
عاملیاً لأنه یکشف عن القدرات النفسیة ؛ معرفیة كانت أم مزاجیة ، عامة أم طائفیة .

ولقد استُخدم التحلیل العاملی — بنجاح منقطع النظیر — فی اكتشاف
القدرات العقلیة . وأسفر البحث عن اكتشاف الذكاء كقدرة فطریة عقلیة عامة ،
وأسفر أيضاً عن اكتشاف حوالي ۱۲ قدرة طائفیة ، مثل القدرة المکانیة ، والقدرة
العددیة ، والقدرة اللغویة ، والقدرة المیکانیکیة .

وقام بیرت C. Burt^(۱) بدراسة واسعة على غرار الدراسات التي أدت إلى اكتشاف
القدرة العقلیة المعرفیة العامة ، وكان یتهدف بذلك إلى اكتشاف القدرة الانفعالیة

1. i. Burt, C, The Factorial Analysis of Emotional Traits, Character and Personality, 1939, 7, P.P. 236 — 254.

ii., The Factors of the Mind : An Introduction to Factor-Analysis in Psychology, 1940, P.P. 7 ; 406.

العامة التي تصدر عنها جميع دوافع الإنسان . واستعان بيرت على ذلك بثلاثة أنواع من المقاييس نلخصها فيما يلي :

١ — قياس أثر الانفعالات المختلفة على العمليات العقلية العليا كالتذكر والتفكير .

٢ — استفتاء يقوم في جوهره على قائمة من الأسئلة تدور كلها حول غرائز مكدوجل . ويراد به وصف الأفراد وصفاً انفعاليا وجدانيا مزاجيا . ولقد قام بالإجابة على هذا الاستفتاء المدرسون ، والإخصائيون الاجتماعيون ، والآباء ، وغيرهم ممن لهم صلة مباشرة بعينة الأفراد التي يُجرى عليها الاختبار .

٣ — استفتاء آخر يقوم به الأفراد أنفسهم ، ويهدف هذا الاستفتاء لمعرفة استجابة الفرد لمثيرات الغرائز المختلفة ، ومدى ارتباط المثير والاستجابة بالانفعالات الغريزية الأولية التي ذكرها مكدوجل في قائمته المشهورة .

وبلغ تعداد أفراد العينة التجريبية ٧٥٠ فرداً ، بُحثت حالات ٥٠ منهم بحثاً فردياً شاملاً عميقاً . وبلغ عدد المقاييس أحد عشر مقياساً ، يتصل كل منها اتصالاً مباشراً بإحدى غرائز مكدوجل . ولقد رُصدت نتائج هذه المقاييس في جداول خاصة ، ثم حُسبت معاملات الارتباطات بين كل زوج منها ، ثم نُسقت تلك المعاملات في مصفوفة خاصة ، ثم خُلّت هذه المصفوفة تحليلاً عاملياً .

وأُسفر هذا التحليل عن عامل عام أطلق عليه بيرت اسم « الانفعالية العامة » General Emotionality . وتلك قدرة فطرية عامة ، كالذكاء سواء بسواء . هذا ولا يتسع هذا الكتاب لمناقشة الأبحاث المختلفة التي تؤيد فطرية هذه القدرة ، وإنما نكتفي بأن نشير هنا إلى أن هذه الأبحاث تدور كلها حول دعامتين أساسيتين ، نلخصها فيما يلي :

١ — حساب معاملات الارتباطات التي تسفر عنها هذه القدرة عند قياس عينة

كبيرة من الأفراد في أعمار مختلفة . ولقد توصل بيرت إلى أن متوسط معاملات الارتباطات في سن ٦ و ٨ و ١٠ و ١١ يبلغ ٠,٨٧

٢ -- حساب معاملات الارتباطات التي تُسفر عنها هذه القدرة عند قياس الآباء ، والأبناء والأحفاد ، والتوائم ، والأشقاء والأخوة .

وتصدر هذه القدرة العامة عن طاقة انفعالية ؛ وتصدر هذه الأخيرة عن طاقة عصبية تنتشر في شبكة عامة متصلة معقدة التكوين والتركيب ، وتتأثر بإفرازات الغدد المختلفة . فهي إذن تنبع من أصول عصبية عضلية غددية ^(١) . وتسلك طريقها في دروب متداخلة لا تقوم بينها حدود تفصلها كما ظن مكدوجل حين فرّق بينها في قائمته المشهورة .

وهكذا يكشف هذا البحث عن تنظيم جديد لفكرة الدوافع ، ويضم أشتات النظريات المختلفة فيفسر غرائز مكدوجل من زاوية جديدة ؛ ويتصل من قريب بالطاقة التي نادى بها مدارس التحليل النفسي ، فهي عند فرويد وأدلر طاقة فردية ، وعند يونج طاقة حيوية جماعية ، وعند هويلر طاقة عامة تتصل بالطاقة المنتشرة في الكون .

لكن الدافع قد ينطلق ليحقق هدفا خاصا ، ثم تحول أمور^٢ عدة بينه وبين غايته ، فيُلح في طلبه ، ويمضي في سبيله ، تحدوه في ذلك إرادة الفرد وتؤازره في مدارج انطلاقه ومعارض خطواته . والإرادة قدرة انفعالية مكتسبة كما تدل على ذلك

1. «Life is one—a single, flowing stream, not an aggregate of discrete faculties or unrelated reflexes- The total of a man's emotional force is no more additive collection of independent feelings or propensities. Rather, the several emotions themselves are but specialized differentiations of a primal emotional energy, of a fundamental will to live.»

Vide. Burt, G.. The young Delinquent, 1931, footnote 1, p. 423.

أبحاث وب E. Webb^(١) الإحصائية التحليلية العاملة . وتعتمد هذه القدرة على البيئات الاجتماعية المختلفة التي نشأ فيها الفرد في طفولته المبكرة ، وعلى الجماعات المختلفة التي أثرت وما زالت تؤثر في تكوين أخلاقه .

وبذلك فالدافع يصدر عن قدرة انفعالية فطرية عامة . وهي بدورها تصدر عن طاقة عصبية عضلية غددية . ويتأثر هذا الدافع بالإرادة ، وهي قدرة انفعالية عامة مكتسبة تعتمد على البيئة الاجتماعية^(٢) .

٧ - الدراسة الديناميكية ، ومجال السلوك

يبدأ السلوك بتأثير دافع يوجهه . ويسلك مساراً خاصاً ليصل إلى هدفه أو غايته . وتؤكد أبحاث بيرت التي أسلفنا ذكرها أن الدافع يندفع عن قوة تصدر عن طاقة انفعالية عامة فطرية . وتنبع هذه الطاقة من طاقة أخرى عصبية عضلية غددية .

ولا شك أن الوسيلة التي يتخذها الفرد لتحقيق غايته ، تخضع في جوهرها لمدى مرونته . ولعناصر الموقف الراهن المحيط به . وتتأثر أيضاً بإدراكه للهدف الذي يطمح في تحقيقه ، وبالغاية التي يرجو أن يصل إليها .

فالبدا والوسيلة والغاية ، أمور متصلة متعاقبة ، تسفر عن ديناميكية عامة تشمل الفرد بجميع نواحيه المختلفة المتباينة . ذلك بأنه يندفع نحو تحقيق غايته بكل شخصيته ، وبكل ما تزخر به هذه الشخصية من مقومات ودعائم وأصول تتفاعل في حركة دائبة متصلة .

1. Webb, E., Character and Intelligence, Brit. J. Psychol., Mon. Supp., 1915, No. 3.

(٢) يشبه هذا التنظيم الانفعالي الوجداني . التنظيم المعرفي الذي يقوم على قدرة فطرية عامة نطلق عليها اسم الذكاء ؛ وعلى قدرة مكتسبة عامة نطلق عليها اسم القدرة التحصيلية العامة .

ولقد حاول كرتش D. Krech وكرتشفيلد R. S. Crutchfield^(١) أن يفسرا دوافع السلوك تفسيراً عاماً لا يقتصر على النواحي الانفعالية المزاجية ، بل يتسع ليشمل أيضاً الإدراك والنواحي العقلية المعرفية . وتلك محاولة جريئة لتنظيم وتنسيق النظريات المختلفة في نطاق نظرية عامة تتسع آفاقها حتى تحيط بالفرد وبيئته ، ويتضاءل حياها التعارض القائم بين مذهب ومذهب ، وبين نظرية وأخرى .

ونخال أننا لا نخرج بدعائم هذه النظرية عن مداها إذا لخصناها في الفروض التالية :

١ — وحدة السلوك

« الوحدة المناسبة لتحليل دوافع السلوك ، هي السلوك السكتلي الشامل للحاجات والأهداف^(٢) » .

فأغلب التضارب القائم بين النظريات المتباينة التي تحاول كل منها أن تنفرد وحدها بتفسير دوافع السلوك ؛ ينشأ من اختلاف الوحدات العلمية التي تتخذها كل نظرية أساساً جوهرياً لها في دراستها . فالنظرية السلوكية تصطلح على أن وحدة التحليل هي الفعل المنعكس ، ونظرية الغرائز تصطلح على أن الغريزة هي الوحدة . وتختلف عنهما في ذلك نظرية الحاجات . ولا شك أن الفعل المنعكس جزء صغير جداً من السلوك العام للفرد . والتحليل الذي يقوم على تلك الوحدة الجزئية للسلوك ، ينأى بالباحث بعيداً عن جوهر الحياة ، لأنه لا يسفر عن كليتها وتعاقبها وامتدادها في آفاقها المختلفة وأبعادها العميقة الشاملة .

فالوحدة الصحيحة التي تسفر عن صفات الفرد في تفاعله مع الموقف هي « الوحدة السكتلية للسلوك » . ذلك بأنها تشمل الفرد بحاجاته وانفعالاته وأفكاره وإدراكه وأفعاله . أي أنها تفصح عن كليته وتحيط بها .

1. Krech, D., and Crutchfield, R. S., Theory and Problems of Social Psychology, 1948, Chapter 2.

2. «The proper unit of motivational analysis is molar behavior, which involves needs and goals.»

وتتكون هذه الوحدات من عناصر عدة ، لكل منها بدؤها ونهايتها ، تنتظم جميعا في تعاقب متصل المدارج والخطوات ، وتهدف في نهايتها إلى تحقيق هدف الفرد الذى يمكن فى سلوكه الكتلنى . ولنضرب لذلك مثل الجائع فى بحثه عن الطعام فهو يشعر بوطأة الجوع فيضطبع إدراكه لألوان الطعام المختلفة بحاجته الملحة ، ويدرك قلقاً ينتابه نتيجة للتوتر الذى يحس به فى أعماق نفسه ، فيبتاع ما يريد . ويفكر فى كل ما يبتاع . ويخضع فى سلوكه هذا لحدود دخله ومستواه الاقتصادى الراهن والعام ، ويخضع أيضا لمعايير الثقافة التى تهيم عليه فيتناول طعامه بطريقة خاصة وبأسلوب معين . ثم يشبع ، فيذهب عنه توتره النفسى وقلقه ، ويشعر بالارتياح والهدوء .

وهكذا يبدأ السلوك الكتلنى فتنشط معه شخصية الفرد كله ؛ فيدرك ، وينفعل . وينزع ، ويفكر ، ويتذكر تجاربه وخبراته السابقة ، ثم يمضى فى سبيله قدما حتى يصل إلى هدفه .

٢ — نشأة ديناميكية السلوك

« تنبع ديناميكية السلوك الكتلنى من خواص المجال النفسى الراهن »^(١) .

وتؤكد هذه الفكرة أهمية المجال النفسى فى سلوك الفرد . والمجال — كما أسلفنا —^(٢) وحدة ديناميكية تقوم على تفاعل الفرد — بتكوينه الفسيولوجى البيولوجى وآثاره العصبية النفسية — مع بيئته الطبيعية والاجتماعية كما يدركها ويشعر بها ومن هذا المجال تصدر أفعال الفرد . فدوافعه ، إذن ، رهن بالمجال النفسى الراهن .

هذا وقد بالغ كرتش وكرتشفيلد فى إنكارهما لنتائج الدراسات التتبعية التى تقوم على النزعات الفطرية ، وعلى مدارس التحليل النفسى . ويخالفهما المؤلف فى ذلك . فلهذه النزعات أثرها فى المجال النفسى الراهن . وللدوافع اللاشعورية أثرها القوى

1. «The dynamics of molar behavior result from Properties of the immediate psychological field.»

(٢) راجع الفصل التاسع « نظرية المجال وديناميكية الجماعات » ص ١٥٢ — ١٧٢

في إدراك الفرد لبيئته . فدراستنا للفرد على أنه جزء من الموقف الكلي المحيط به ،
لا تعطينا قط من فرديته الموهلة في الماضي البعيد أو القريب ، ولا تنأى بنا بعيداً
عن مراحل النمو التي مرت بها شخصية الفرد في تطورها وتكاملها .

وهكذا نرى أن الدوافع تشتق ديناميكيتها من المجال النفسى . أى أنها تنبع
من التفاعل الديناميكي القائم بين العلاقات التي تصل ما بين روافد وتيارات تلك
الوحدة الديناميكية .

فديناميكية السلوك صفة من صفات المجال لأن الفرد نفسه جزء منه ، وهو بدوره
يشتق صفاته من الكل الذي يهيمن عليه . أى أن « الأجزاء تشتق صفاتها
من الكلّيات » وأن « المجال يحدد نشاط أجزائه » ، كما تقرر النظرية الكلية
الحويية ^(١) .

٣ - اختلال المجال واستقراره

« ينشأ التوتر عن اختلال المجال النفسى ؛ ويؤثر في الإدراك والعمليات العقلية
والفعل ، تأثيراً ينحو بالمجال نحو تكوين مستقر » ^(٢) .

تتفاعل مقومات المجال ، وتؤثر في بعضها ، وتتأثر بالكل العام الذى
يهيمن عليها . وهى في تفاعلها وتأثيرها قد تفقد اتزانها الداخلى فيختل نظامها ، ويعتري
المجال توتر عام يعمل على إعادة تنسيق قوى المجال تنسيقاً ينحو بها نحو الاستقرار .
وبذلك يهدف التوتر إلى إعادة توزيع القوى حتى تتعادل نواحيها المختلفة ^(٣) .

(١) راجع الفصل الثامن « النظرية الكلية الحويية » ص ١٤٠ .

2. «Instabilities in the psychological field produce «tension» whose effects on perception, cognition and action are such as to tend to change the field in the direction of a more stable structure» .

(٣) راجع الفصل التاسع ص ١٦٩ — ١٧٠ .

وهكذا يندفع الفرد في مسالك ودروب مختلفة نحو غايات وأهداف عديدة ، ليجو أثر هذا التوتر .

وبذلك يظل التوتر قائماً حتى يصل الفرد إلى تحقيق غايته ، وعندئذ تخف حدة هذا التوتر ويتضاءل ويخفت ثم يزول .

هذا وقد يكون أثر التوتر شعورياً ، كما قد يكون لا شعورياً .

فأما الأثر الشعوري فيتخذ مظاهر عدة تبدو منفصلة أو متصلة متعاقبة . وتتلخص هذه المظاهر فيما يلي :

١ — شعور غامض بالضيق والعُسر .

٢ — شعور قوى بالحرمان من « الحاجة » ، لا يلبث أن يتطور إلى إدراك واضح للهدف والغاية .

٣ — شعور بالرغبة في النزوع ، يعقبه اندفاع نحو الفعل .

وأما الأثر اللاشعوري للتوتر فيبدو في الدوافع الخفية العميقة التي تنطلق بتأثير ديناميكيته ، غير آبهة بإدراك الفرد لأهدافها . وإنما تمضي في سبيلها بقوة تستمد طاقتها من الحاجات الجنسية المكبوتة في اللاشعور ، أو من مركب النقص الذي ينحو بصاحبه نحو السيطرة ، أو من النماذج الرئيسية التي تكن في اللاشعور الجماعي .

فالدوافع بنوعها ؛ شعورية كانت أم لاشعورية ، تهدف إلى إزالة التوتر وإعادة توزيع قوى المجال حتى تنتظم علاقته في اتساق مستقر .

٤ — إخفاق الدافع

« قد يؤدي الفشل في تحقيق الهدف ، والإخفاق في إزالة التوتر ، إلى أنواع

مختلفة من التكيف الصحيح ، أو التكيف الخاطئ »^(١)

ينشأ فشل الفرد في تحقيق هدف الدافع من أمور عدة تعوقه وتحول بينه وبين ما يريد . وبما أن ديناميكية السلوك الكتلّي تنبع من خواص المجال الراهن وبما أن هذا المجال يقوم على تفاعل دعائمه ومقوماته المختلفة . إذن ، فالأخفاق ينشأ عن عجز هذه المقومات عن أن تفي بحاجات الفرد ، وقصورها عن بلوغ غايته .

والمجال — كما أسلفنا — يقوم على تفاعل الفرد مع بيئته . أي على تفاعل تكوين الفرد البيولوجي الفسيولوجي ، وتكوينه العصبي النفسي ؛ مع البيئة الطبيعية والاجتماعية .

فعجز الفرد عن أن يفوز في سباق السباحة يرجع في جوهره إلى قصور تكوينه البيولوجي الفسيولوجي عن أن يبلغ به الهدف الذي يطمح في الوصول إليه . وعجز الغبي عن أن يصل إلى مدارج العباقرة يرجع إلى قصور في تكوينه العصبي النفسي . وعجز الظالم في الصحراء عن أن يرتوي لبعد آبار الماء عنه يرجع إلى قصور في بيئته الطبيعية المحيطة به . ولكل بيئة اجتماعية حرّمتها التي لا تُمس ، وطقوسها التي تحول بين الفرد وبين الإشباع المطلق لدوافعه .

والإخفاق في بلوغ الغاية ينحو بالفرد نحو دروب ومسالك مختلفة من شأنها أن تخفف حدة التوتر . هذا وقد يُصيب الفرد أوقد يخطئ في أن يكيّف نفسه من جديد لمسار الدافع وهدفه ، أو أن يكيّف البيئة ذاتها لمطالبه ورغباته .

وهكذا يحاول الفرد أن يتغلب على فشله الذي صادفه في محاولته الأولى ، فيكيّف نفسه من جديد للموقف المحيط به ، وذلك بأن :

١ — يبذل قصارى جهده لبلوغ غايته ، ومثله في ذلك كمثل العداء الذي يحاول

1. «The frustration of goal achievement and the failure of tension reduction may lead to a variety of adaptive or maladaptive behaviors».

أن يفوز في السباق فيفشل ثم يعود فيبذل من قوته وجهده أقصى ما يستطيع حتى ينتصر على منافسيه ،

٢ — أو يحاول أن يستعرض المشكلة التي تواجهه من جديد ليعيد تنظيم خطواته حتى يرى له مسلكاً واضحاً ونهجاً قصداً يصل به إلى هدفه ،

٣ — أو يستبدل بهدفه القائم هدفاً آخر أدنى منالاً وأقرب مطلباً ، كمثل المرأة العاقر التي تتبنى طفلاً غريباً بعد أن تخفق في أن تنجب لنفسها أطفالاً .

وعند ما يفشل الفرد في تحقيق هدفه رغم محاولاته المتتالية ، فإنه يحنح في سلوكه . ويلجأ إلى ألوان مختلفة من التكيف الخاطئ ، ليخفف عن نفسه حدة التوتر؛ وذلك بأن^(١) :

١ — يُبالغ في مهاجمته للناس ، وفي عدوانه عليهم ، وأن يصب جام غضبه على الأبرياء ، أو على ذات نفسه ؛

٢ — أو أن ينكص على عقبيه ، نكوصاً يعود به إلى أساليب الطفولة ، كمثل الذي يصيح ويبكي عند ما يخفق في حل مشكله ،

٣ — أو أن ينسحب من الموقف الذي أخفق فيه ، كمثل للملاكم الذي يعتزل الملاكمة بعد انتصار غريمه عليه ،

٤ — أو أن يكبت حاجاته ورغباته وأساليب فشله ومخاوفه في اللاشعور ، فتنشأ بذلك العقد النفسية كدوافع لاشعورية تهيم على حياته من حيث لا يدري

٥ — أو أن يدفعه التوتر الحاد نحو التسامى بأهدافه وإعلانها إلى آفاق جديدة ،

(١) تلخص أهم أنواع التكيف الخاطئ في : —

العدوان ، والنكوص ، والانسحاب ، والسكوت ، والتساي أو الاعلاء ، والتبرير ، والاسقاط ، والانفصام ، والتقمص .

قد تمتّ أولاً تمتّ إلى الأهداف الأولى بصفة واضحة . وبذلك يتحول مجرى التوتر القائم إلى وجهة تتفق والمعايير الاجتماعية ، كمثل الذى يقرض الشعر بعد إخفاقه فى حب لا تفره النظم الاجتماعية القائمة . وقدما جرت الأمثال بأن « السعيد فى حياته لا يكتبها وإنما يحياها » وأن « الفن الملهم لا ينبع إلا من ألم حاد عميق » ومهما يكن من أمر هذه الأمثال فهى إن أعوذتها أدلة الجزم القاطع . فلن تعوزها أدلة الترجيح ،

٦ — أو أن يبرر الفرد إخفاقه بمغالطات منطقية غريبة كمثل الذى يفشل فى الإقلاع عن عادة التدخين فيحاول أن يحد لنفسه مبررات منطقية ، ويحاول أن يقنع نفسه وأن يقنع الناس معه ، بأن التدخين يمنع انتشار العدوى . ويساعد الغدة الأدرينالية على زيادة إفراز هرموناتها التى ترفع مستوى نشاط الفرد ،

٧ — أو أن يتخفف الفرد من فشله فيستقطه فى الآخرين ، ويعود باليوم على غيره ، كمثل الذى يسرق ثم يزعم أن الناس كلهم اصوص ،

٨ — أو أن يفصم الفرد صلته بالعالم الواقع المحيط به ، دون أن يقصمها . فيبنى لنفسه قصوراً فى الهواء تتحقق فيها غايات حاجاته وأهداف رغباته ، فتخف بذلك حدة توتر الدافع ،

٩ — أو أن يتقمص الفرد شخصية أخرى غير شخصيته ، ويدعى لنفسه مالىس لها ؛ أو يحسب نفسه فى زمرة جماعة لا ينتمى إليها .^(١)

٥ — التعلم وتحقيق الهدف

« فى مقدور الفرد أن يتعلم الأساليب المختلفة لتحقيق الهدف ، وإزالة التوتر ، وأن يجودها حتى تثبت فى نفسه »^(٢) .

(١) من التعبيرات الطريفة التى نفصح عن فهم العرب للتعقم وصفهم الكذاب بأنه « قوم الحجرة » ، أى أنه يتقمص حجرة غيره .

2. Characteristic modes of goal achievement and tension reduction may be learned and fixated by the individual.

لكل دافع هدف . ولكل هدف أشكال مختلفة . ولكل شكل من هذه الأشكال مستوى خاص يختلف من فرد لآخر . فالجوع دافع هدفه الطعام . وللطعام ألوان وأنواع تختلف في أهميتها باختلاف أذواق الأفراد ، « والناس فيما يشعقون مذاهب » .

ويتخذ الفرد أساليب مختلفة لإشباع دوافعه ، وقد ينجح بعضها وقد يفشل الآخر . فأما الذي يؤدي إلى تحقيق الهدف فيثبت في نفس الفرد ويؤثر في اختياره لأساليب الإشباع . وأما الذي ينأى به بعيداً عن هدفه فمقصيره إلى الزوال .

فيميل الفرد ، مثلاً ، نحو طعام خاص ثم يثبت هذا الميل حتى يصبح اتجاهها يؤثر في اختياره ^(١) .

وبذلك يعتمد تحقيق الهدف على ما تعلمه الفرد في ماضيه السالف ، ويتأثر الاختيار بالجمال النفسي الراهن . ولكل مجال ديناميكيته التي تُحدد أهداف دوافعه .

٦ — تطور أهداف الدوافع

« كثيراً ما يميل السلوك إلى السمو بالمجالات النفسية نحو مستويات رفيعة مستقرة » ^(٢) .

تتطور أهداف الدوافع تبعاً لتطور الفرد وتفاعله الدائم مع بيئته . فأهداف الطفل تختلف عن أهداف المراهق ، وتلك بدورها تختلف عن أهداف الرجل الناضج . وتخضع معايير الفرد الاجتماعية لنموه ولنضجه وتفاعله مع الأفراد الآخرين ، ولتأثره المباشر وغير المباشر بالثقافة القائمة ^(٣) .

(١) سنعالج هذا الموضوع باستطراد ، في الفصل الثاني عشر « الاتجاهات والتعصب »

2. «The trend of behavior often involves progressively «higher» levels of stable organization of the psychological field».

(٣) سنعالج هذا الموضوع في الفصل الثالث عشر « المعايير الاجتماعية » .

ويؤثر هذا التطور في المجال النفسى الذى يحتوى الفرد وييشته ، فيتطور هو الآخر في ديناميكية تنحو به إلى المدارج العليا والمعارض الرفيعة .

وما يكاد يستقر المجال في مستوى من تلك المستويات حتى يختل اتزانها ، ويزداد توتره ، فيندفع من جديد نحو مستوى أبعد ومرتبة أعلى .

وهكذا يعيش الفرد في سراب المثل العليا التى ماتكاد تلوح له من بعيد حتى يعدو في إثرها ، ويقع في حدمه أنه بالغها ، فتتياسر الأهواء قلبه ، ويدفع عنها الغواشى التى تحجب حقيقتها ، فتتضاءل خيال ناظرية وتخفت وتزول ، ثم تلوح له مثل أخرى في آفاق حياته الواسعة العريضة ، فيمضى قدما ، ليرقى صعوداً ، في مطالع لا تعرب حتى تشرق من جديد .

تعقيب ودراسة

قسّمنا فصول هذا الباب إلى ثلاثة أنواع من الدراسات : تحليلية مقارنة ؛ وعامة مكتسبة ، وعامة معيارية .

فأما التحليلية فتعنى بدراسة بدء دافع ما ومساره وهدفه . وأما العامة فتعنى بدراسة أنماط الدوافع التى تسير في ركب اتجاه ما من الاتجاهات النفسية المكتسبة . فيهديها سبلها ويوجهها إلى غاياتها . وأما العامة المعيارية فتقيم الحدود العليا والدنيا لبدء ومسار وهدف الدوافع عامة .

ولقد قامت أركان هذا الفصل على الدراسة التحليلية للدوافع ، وعلى بحثها بحثاً مقارناً يدور حول أهم النظريات التى تصدت لتفسيرها ، والمنهج العلمى الذى سارت على نهجه كل نظرية في تحليل نتائجها .

وأياً كان الرأى في جوهر الموضوع فلا شك أن النظرية السلوكية ، والنزعات الفطرية ، والانفعالية العامة ، تؤكد الناحية البيولوجية ؛ وتنفرد الأولى بتأكيد المظهر

الخارجي الموضوعي ، وتنفرد الثانية بتأكيد صلة الدافع بماضي الفرد وبماضي النوع الإنساني كله ، وتنفرد الثالثة بتأكيد الطاقة العصبية العضلية الغددية كمنبع جوهرى تنضج منه الدوافع .

ولا شك أيضا ، أن الحاجات ، والنظرية الكلية الحيوية ، وديناميكية المجال ، تؤكد العلاقات التي تقوم بين الفرد وبيئته .

أما نظرية الاستقلال الوظيفي فتؤكد نمو الدوافع وتطورها في حياة الفرد ، وانبثاق الدوافع الجديدة من أخرى قديمة .

ولاضير على العلم أن يقبل جميع هذه النظريات رغم اختلافها الظاهري ، ويؤلف منها تنظيما منطقيا علميا لا لبس فيه ولا تعارض ولا غموض . إذ لا جرم أن لمشكلة الدوافع نواحيها المختلفة ومستوياتها المتباينة ، وصفاتها البيولوجية الفسيولوجية العضلية الغددية ، العصبية النفسية ، الإرادية الغائية ، الفردية الاجتماعية ، الشعورية اللاشعورية ، الفطرية المكتسبة ، النامية المتطورة .

وخلق بكل دراسة من تلك الدراسات أن تلتزم حدود نتائج مقدماتها المنطقية ومنهجها العلمي ، حتى لا تضل قصد السبيل ، فتجنح إلى آفاق لم تحط بها خبرا .

المراجع

- ١ — الدكتور عبد العزيز القوصي : أسس الصحة النفسية ، ١٩٤٨ ، الفصل الرابع
- ٢ — الدكتور عبد العزيز القوصي : علم النفس ، أسسه وتطبيقاته ، ١٩٥٢ ،
- ٣ — الدكتور يوسف مراد : مبادئ علم النفس العام ، ١٩٤٨ ، الفصل الخامس .
- ٤ — الدكتور أحمد زكي صالح : علم النفس التربوي ، ١٩٥٣ ، الباب الرابع .
- ٥ — الدكتور مصطفى فهمي : الدوافع النفسية ، ١٩٥٣ .

6. Blackburn, J., Psychology and the Social Pattern, 1945.
7. Freeman, G. L., The Energetics of Human Behavior, 1948.
8. Ginsberg, A., A Reconstructive Analysis of the Concept of Instinct, J. Psychol. 1952, 33, P.P. 235—277.
9. Langfeld, H. S., Psychology in America Today, in Proceedings and Papers of the Twelfth International Congress of Psychology 1950.
10. Mc Dougall, W., The Energies of Men, 1933.
11. Oppenheimer, O. The Nature of Motivation, J. Soc., Psychol. 1947, 26, P.P. 213—223.
12. Perrin, F.A.C., The Psychology of Motivation, Psychol. Rev. 1923, 30, P.P. 176—191.
13. Russell. B. The Notion of Cause, in Mysticism and Logic. 1953 ed. P.P. 171—196.
14. Schwarz, O. The Psychology of Sex. 1953.
15. Stout, G.F., A Manual of Psychology. 1938 ed.
16. Symposium on. « Is the Doctrine of Instincts Dead? » British J.Educ. Psychol. 11,12,13,1941,1942,1943.

17. Tolman. E.C. A Cognitive Motivation Model. Psychol. Rev.
1952. 59. P.P. 389—400
18. Winter, J. E, The Postulates of Psychology Psychol.
Rev., 1936, P.P. 130—148.
19. Woodworth. R. S. Contemporary Schools of Psychology
1949 ed.
20. Young, P.T. Motivation of Behavior. 1936.

الفصل الثاني عشر

الدوافع العامة المكتسبة

الاتجاهات والتعصب

١ - الاتجاهات النفسية^(١)

تمهيد

يُعالى علماء الاجتماع فيقصرون ميدان علم النفس الاجتماعى على الاتجاهات ؛ ويستندون فى ذلك إلى أن جميع مظاهر الحياة النفسية ، بسيطة كانت أم معقدة ، خاصة أم عامة ؛ تخضع فى جوهرها للاتجاهات النفسية^(٢) .

ويؤكد علماء النفس أهمية الاتجاهات فى توجيه السلوك ، وأهميتها فى مباحث ودراسات علم النفس الاجتماعى المعاصر^(٣) . ولقد أحصى فورد R. N. Ford الأبحاث الحديثة التى تدور حول الاتجاهات وقياسها ، فألفها تريبو على ألفين بحثاً^(٤) .

تعريف الاتجاه النفسى

الاتجاه النفسى ميل عام مكتسب ، نسبي فى ثبوته ، عاطفى فى أعماقه ، يؤثر فى الدوافع النوعية ، ويوجه سلوك الفرد . ومن أمثلة الاتجاهات النفسية ، حب

1. Attitudes

2. i-Faris, E., Attitudes and Behavior. Am. J. Sociol., 1928. 34 P.21.

ii- Folsom. J.k. Social Psychology, 1931.

3. Murphy, G., Murphy, L.B., and Newcomb, T.M.. Experimental Social Psychology. 1937, P. 889.

4. Ford, R. N. Some Major Problems in the Quantification of Social Attitudes. J. Neg. Ed. 1942. 11. P.P. 121—134.

المصريين للألمان ، و بغضهم للإنجليز ، وحب الأطفال لمغامرات طرزان ، وميل الفرد إلى ألوان خاصة من الطعام أو عزوفه عن الأنواع الأخرى ، وموقف رجال الدين من الحقوق السياسية للمرأة .

ويعرف ثرستون L.L. Thurstone ^(١) الاتجاه النفسى بأنه تعميم الاستجابات تعميماً ينحو بالفرد بعيداً عن شئ نفسى خاص أو قريباً منه . فهو بذلك يؤكد الموجهات العامة للسلوك .

ويعرفه بوجاردس E.S. Bogardus ^(٢) بأنه الميل الذى ينحو بالسلوك قريباً من بعض عوامل البيئة أو بعيداً عنها ، ويضفى عليهما معايير موجبة أو سالبة تبعاً لانجذابه منها أو نفوره عنها . فهو بذلك يؤكد البيئة الخارجية .

ويعرفه توماس W.I. Thomas وزنانكى F. Znanieki ^(٣) بأنه الموقف النفسى للفرد حيال إحدى القيم والمعايير . فموقف المواطن الصالح من السرقة في مجتمع يعاقب السارق ويدعو إلى الأمانة ، اتجاه نفسى تحدده المعايير الاجتماعية القائمة .

ولعل أدق وأشمل تعريف للاتجاه هو تعريف ألبورت G W. Allport ^(٤) الذى يصف الاتجاه بأنه إحدى حالات التهيؤ والتأهب العقلى العصبى التى تنظمها الخبرة . وما يكاد يثبت الاتجاه حتى يمتضى مؤثراً وموجهاً لاستجابات الفرد للأشياء والمواقف المختلفة ؛ فهو إذن ديناميكى عام .

والتأهب قد يكون موقوتاً لأجل قريب ، أو ممتداً لأمد بعيد .

فأما القريب العابر فينبع من تفاعل الفرد مع موقفه المحيط به في لحظة الراهة .

1. Thurstone, L.L., Theory of Attitude Measurement, Psychol. Rev. 1929,36, P.P. 222—241.
2. Bogardus, E.S. Fundamentals of Social Psychology. 1931.P.52.
3. Thomas, W. I. and Znanieki, F. The Polish Peasant in America, 1918, Vol. 1. P. 27.
4. Allport, G. W. Attitudes. in A Handbook of Social Psychology (G. Murchison. ed.). 1935. P. 810.

فالجائع يُقبل على الخبز . ثم يدفع ما بقي منه بعيداً عنه عند ما يشبع . وبذلك ينتهى تأهبه عند اشباع رغبته .

وأما التأهب الطويل الأمد ، فهو أكثر ثبوتاً واستقراراً . فالشخص الذى يحب لوناً خاصاً من ألوان الطعام لا يرى غضاضة فى التحدث عنه بعد أن يُشبع شهيه منه . واتجاه الفرد نحو صديق عزيز لديه . لا يتغير أو يتأثر كثيراً بالمضايقات الوقتية العابرة . والنباتيون يعزفون عن أكل اللحم فيسفرون بذلك عن اتجاه ما . والمسلم يمتنع عن أكل لحم الخنزير خضوعاً لاتجاه تفرضه عليه المعايير والمحرمات الدينية .

فالاتجاه بهذا المعنى تأهب مستقر ، يمتد به ثبوته لأمد طويل .

إذن ، فليس كل تأهب اتجاه ؛ لكن كل اتجاه ينطوى على تأهب .

وبقاء الاتجاه واستقراره فى حياة الفرد ، لا يتعارض منطقياً واستحالته وتطوره ذلك بأن الاتجاه يتكون نتيجة لتأثر الفرد بمثيرات مختلفة تنبعث من اتصاله بالبيئة المادية والاجتماعية ، ومعايير الثقافة . وهكذا يتغير الاتجاه تبعاً لتغير صلته الديناميكية بتلك الأشياء .

إذن فالاتجاهات نسبية ؛ تتغير بتغير مثيراتها ، وتثبت حيناً لتكتسب مقوماتها وأركانها وذاتيتها .

مراحل تكوين الاتجاهات

الاتجاهات مكتسبة وليست فطرية .

والمرحلة الأولى فى تكوينها مرحلة إدراكية تنطوى على اتصال الفرد اتصالاً مباشراً ببعض عناصر البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية ، وهكذا قد يقبلور الاتجاه فى نشأته حول أشياء مادية كالدار الهادئة ، والمقعد المريح ؛ وحول نوع خاص من الأفراد كالأخوة والأصدقاء ؛ وحول نوع محدود من الجماعات ، كالأسرة وجماعة النادى والجماعة الداخلية ؛ وحول بعض القيم الاجتماعية كالبطولة والشرف .

وتتميز المرحلة الثانية بنمو الميل نحو شيء ما . فأي طعام قد يُرضى الجائع ، لكن الفرد يميل إلى بعض أنواع خاصة من الطعام ، وقد يميل أيضاً إلى تناول طعامه في مطعم خاص .

وهذا الميل ، على اختلاف أنواعه ودرجته ، يستقر ويثبت على شيء ما ، عند ما يتطور إلى اتجاه نفسي . فالثبوت هو المرحلة الأخيرة في تكوين الاتجاه .

عوامل وشروط تكوين الاتجاه

١ - التكامل

تتكون الاتجاهات عند ما تتكامل الخبرات الفردية المتشابهة في وحدة كلية ، تنحو إلى تعميم هذه الخبرات . وبذلك تصبح هذه الوحدة إطاراً ومقياساً تصدر عنه أحكامنا واستجاباتنا للمواقف الشبيهة بمواقف تلك الخبرات الماضية .

ف فشل الطالب في فهم كتاب ما لمؤلف ما ، وتكرار هذا الفشل مرات متعددة . يسلك بالطالب مسلكاً خاصاً ، فيُنْقَرِه من كل كتب هذا المؤلف . ويصدر مثل هذا السلوك عن اتجاه معين ، ينشأ من تكامل الخبرات الفردية المتشابهة . وقد ينحو هذا الاتجاه بالفرد منحى عاماً يبدو في محاولته إقناع أصدقائه بهجر جميع كتب ذلك المؤلف . وهكذا يسلك الاتجاه مسلكاً عقلياً اجتماعياً مؤثراً في الآخرين .

٢ - التمايز

يؤدي تعميم الخبرات الفردية المتتالية إلى تحديد الاتجاه تحديداً واضحاً قوياً . وهذا خليق بأن ينحو بالاتجاه نحو النضج والكمال النمو ، فينفصل ويتمايز عن بقية الاتجاهات الأخرى ، ويكتسب بذلك ذاتيته التي تؤكد معاملة .

٣ - الانفعالات الحادة

للخبرات الانفعالية الحادة أثر قوي في تكوين الاتجاهات . فعطف الفرد على أي

شعب من شعوب الأرض ، وحبه له ، يمثل اتجاهها ما . وقد ينقلب هذا الاتجاه إلى آخر مضاد ، لو أن الفرد مرّ في حياته بـ تجربة انفعالية قاسية تنفّره من ذلك الشعب .

فإنعجاب المواطن المصري بالشعب الألماني وحبّه له ، ينقلب إلى بغض وكره ، عندما يغتال أحد الألمان شقيق ذلك المواطن . فالتجربة الانفعالية الحادة القاسية التي تمرّ بذلك المواطن تؤدي به إلى اتخاذ موقف جديد تجاه كل ألماني . موقف يتميز بالبغض والكره والمقت . وهو بذلك يتعارض مع الاتجاه الأول الذي كان يتصف بالحب والانعجاب والعطف .

٤ — التقليد

التقليد عامل قوى في تكوين الاتجاهات . فالطفل يكتسب أغلب اتجاهاته من أسرته التي ينشأ فيها . والأسرة — كما أسلفنا في دراستنا لأنواع الجماعات ^(١) — هي الجماعة الأولى التي تنشأ ، وتحدد معايير الطفل الاجتماعية . ذلك لأن الطفل يقلد أباه وأمه وأخوته الكبار . ثم هو بعد ذلك يعدّل تلك المعايير عند انتسابه للجماعات الوسطى والثانوية . وذلك بتقليده لمن هم على شاكلته من جيرانه وزملائه .

فالتقليد هو أهم العوامل وأسبقها في تكوين اتجاهات الطفل . ولقد أثبتت دراسات هورويتز E.L. Horowitz ^(٢) أن كره الأمريكي للزنجير يرجع في جوهره إلى أثر الأسرة في تنشئة وتحديد الاتجاه الذي ينصب على التفرقة العنصرية وعلى التعصب ضد الزنجير .

ولقد دلت أبحاث نيوكب T. M. Newcomb وسفهل G. Svehla ^(٣) على أن معاملات الارتباطات بين الاتجاهات الدينية للآباء والأبناء تزيد على ٠,٥٥ ،

(١) راجع الفصل السادس : أنواع الجماعات ودراسة تحليلية لبعض أنواع التجمع : ص ٨٦، ١١٤

2. Horowitz. E.L. The Development of Attitude toward the Negro, Arch, Psychol. 1936. No. 194.

g. Newcomb. T.M. and Svehla. G. Intrafamily Relationships in Attitude. Sociometry. 1937. 1, P.P. 180—205.

وأن ارتباط اتجاهاتهما نحو مشكلة السلام العالمي ، يزيد على ٤٠ ، ويرى الباحثان أن تلك الصلة ترجع في جوهرها إلى أثر التقليد .

وتؤكد اكتشافات التحليل النفسي أهمية الأسرة في تكوين الاتجاهات . ويرى رواد هذا العلم أن الاتجاهات مرآة تعكس على صفحتها مدى سيطرة الأسرة على طفولة الفرد المبكرة ، ومدى خضوعه لها أو ثورته عليها . وتدل أبحاث لاسول H.D. Lasswell^(١) على أثر الأسرة في تكوين الزعماء . وأثبت فروم Fromm^(٢) اتصال الانقلابات السياسية بالأسرة . وأجرى كلين E.Klein^(٣) دراسات واسعة على أثر سلطة الأب في تكوين الاتجاهات السياسية .

الاتجاهات والعواطف

لا يفرق بعض علماء النفس بين الاتجاه والعاطفة^(٤) . ويخلط بعضهم الآخر بين العاطفة والقيم أو المعايير^(٥) . ويؤكد الانجيز أهمية العاطفة ويتجاهلون الاتجاهات ، ويؤكد الأمريكيون أهمية الاتجاهات ويتجاهلون العواطف .

ذلك لأن الاتجاهات والعواطف تتشابهان في تجمعهما حول شيء ما ، وفي شحنتهما الانفعالية ، وفي توجيههما العام للسلوك ، وفي أثر البيئة والمجتمع في تكوينهما . وتكتسب العاطفة شحنتها الانفعالية من الغرائز . فالعاطفة -- كما يعرفها

1. Lasswell, H.D. Psychopathology and Politics. 1930.
2. Vide, Keineberg, O. Social Psychology. 1946. P.P. 348—349.
3. Vide, Ibid. P. 347.

(٤) نذكر منهم على سبيل المثال فالتين :

Valentine. C.W. Psychology and its Bearing on Education. 1950. P. 384.

(٥) نذكر منهم على سبيل المثال ينج :

Yonng, K., Handbook of Social Psychology. 1948. especially P.P. 431, 122—123.

مكدوجل^(١)، تنظيم مُعَقَّد مُرَكَّب من الانفعالات الغريزية التي تتبلور حول شيء أو نوع خاص من الأشياء. وتنظم العواطف كلها في عاطفة اعتبار الذات أو فكرة المرء عن نفسه. وأي اختلال يعصف بهذا التنظيم الهرمي للعواطف يؤدي بالفرد إلى الصراع النفسي.

وهكذا نرى أن النظريات التي لا تُقر غرائز مكدوجل لا تقر عواطفه أيضاً؛ ولا تميل إلى إطلاق هذا الاصطلاح العلمي على نتائج دراساتها. ومهما يكن من أمر هذا التباين الشديد، فقد أصاب مكدوجل في تأكيد الطاقة، والهدف، وصلة الإنسان بالحيوانات الأخرى؛ وأخطأ في تصنيفه الحاد للدوافع. ويؤيدنا في هذا الرأي بحث بيرت الإحصائي الذي أسفر عن الانفعالية العامة^(٢).

وتكتسب الاتجاهات شحنتها الانفعالية من ارتباطها الوثيق بالدوافع النوعية، والدوافع العامة المعيارية. فأما النوعية فهي بطبيعتها السيكولوجية انفعالية. وأما العامة المعيارية فهي انفعالات مقننة راسخة ثابتة^(٣)، تكمن في القيم والمعايير الاجتماعية وهي مُقننة لاصطلاح الناس عليها. وهي ثابتة لا تتسارها بين الأفراد رغم اختلاف الزمان والمكان. وتتخذ تلك المعايير لنفسها مظهراً لفظياً يبدو في التعبيرات القصيرة القوية الحادة التي تجري على الألسنة مجرى الأمثال. وعلى الفرد أن يخضع لها ويحترمها، فإن لم يفعل أجبر على أن يخضع لها. وتتصل هذه المعايير من قريب بالأسرة والمدرسة والمجتمع كله. واشترك الأفراد في نشاط الجماعة وقبولهم لمعاييرها يضيف عليها أهمية وقداسة ومجداً وشرفاً، فتبدو للفرد في حالة سحرية وتضفي بدورها ألواناً انفعالية على جميع اتجاهاته.

1. Mc Dougall. W., Outline of Abnormal Psychology. 1926, P. 525 f.

(٢) راجع الفصل الحادي عشر. الدراسة الاحصائية والانفعالية العامة.

2. «Standerdized affective Fixation», Vide:

3. i. Sherif, M., and Cantril, H., The Psychology of Attitudes, Psychol. Rev., 1945, 52, P.P. 300—304.

ii. The Psychology of Ego — Involvement, 1947 especially P.P. 20—21.

وهكذا نرى أن الاتجاه أعم من العاطفة ، فهو محيط بها غالب عليها ، شامل لها .
ويفرق بول توماس ينج P. T. Young ^(١) بين العاطفة والاتجاه بتأكيده أن
العاطفة تقصر ميدانها على الناحية الانفعالية الشعورية . ويؤكد فريق آخر المظهر
اللفظي الخارجى للاتجاهات ، ولهذا استطاع علم النفس الحديث قياس الاتجاهات
المختلفة بالطرق التى تعتمد فى جوهرها على التعبير اللفظى .

أنواع الاتجاهات

تنقسم الاتجاهات بالنسبة لوضوحها إلى عامة ونوعية ، وبالنسبة للأفراد إلى جماعية
وفردية ، وبالنسبة لوضوحها إلى علانية وسرية ، وبالنسبة لقوتها إلى قوية
وضعيفة ، وبالنسبة لهدفها إلى موجبة وسالبة .

١ — العامة والنوعية

أنكر بعض علماء النفس وجود الاتجاهات العامة التى تنصب على الكليات ،
وأقروا وجود الاتجاهات النوعية التى تنصب على النواحي الذاتية . لكن
الأبحاث التجريبية تدل دلالة صريحة على وجود الاتجاهات العامة . ولعل أهم هذه
التجارب تجربة كولب D. H. Kulp ودافيدسون H. M. Davidson ^(٢) التى أثبتت
أن الاتجاهات الحزبية السياسية تنسم بصفة العموم . وتتلخص هذه التجربة فى سؤال
عدد كبير من المحافظين والأحرار لمعرفة اتجاهاتهم نحو التعصب العنصرى ، والتعصب
القومى ، والاستعمار ، والتسلح ، والسلام العالمى . ولقد أسفر التحليل الإحصائى
لهذا الاستفتاء عن أن المحافظين يستمرون فى اتجاهاتهم المحافظة طوال الإجابة
على أسئلة الاستفتاء . وأن الأحرار يستمرون أحراراً فى اتجاهاتهم .

1. Young, P.T. Motivation of Behavior, 1936, P. 477.
2. Kulp, D.H., and Davidson, H.M. Application of the Spearman Two-Factor Theory to Social Attitudes, J. Ab. and Social Psychol., 1934, 29, P.P. 269—275.

ولقد قام هارتلى E. L. Hartley^(١) بتجربة مماثلة ، فأسفرت نتائجها عن نفس الحقيقة . ويتلخص هذا البحث في دراسة تجريبية للتعصب القومى والعنصرى . ولقد وجد الباحث أن الأفراد الذين يتعصبون ضد اليهود يتعصبون ضد الزوج وضد الإيطاليين ، بل يتعصبون ضد كل ما هو أجنبي . ومن أمتع ما أسفرت عنه تلك التجربة ، أن الباحث كتب - بين أسماء الشعوب التى عرضها على الأفراد - أسماء شعوب خيالية لا وجود لها مثل « دانيران » ، فتعصب ضدها الذين تعصبوا من قبل ضد الشعوب الأخرى . فالأتجاه هنا عام ، بل متناه فى عموميتة .

ولقد قام كانتريل H. Cantril^(٢) بسلسلة من التجارب أثبتت فى وضوح وجلالة تقسيم الاتجاهات إلى عامة ونوعية . فأما العامة فأكثر ثبوتاً واستقراراً من النوعية . وأما النوعية فتسلك مسلكاً يخضع فى جوهره لإطار الاتجاهات العامة . وبذلك تعتمد النوعية على العامة وتشتق دوافعها منها .

٢ - الجماعية والفردية

والاتجاهات المشتركة بين عدد كبير من الناس تُسمى اتجاهات جماعية ، والاتجاهات التى تُميز فرداً عن آخر تسمى فردية . فإعجاب الناس بالأبطال ، اتجاه جماعى . وإعجاب الشخص بصديق له ، اتجاه فردى .

٣ - العلانية والسرية

الاتجاهات العلانية هى التى لا يجد الفرد حرجاً من إظهارها والتحدث عنها أمام الناس . وأما السرية فهى التى يحاول الفرد أن يخفيها عن الناس ويحتفظ بها فى قرارة نفسه ، بل ينكرها أحياناً حين يسأل عنها .

1. Hartley, E. L., Problems in Prejudice, 1946, P. 124.

2. Cantril, H. General and Specific Attitudes, Psychol. Monog. 1932. 192. P.P. 1-110.

ويرتبط هذا التقسيم ارتباطاً وثيقاً بتقسيم لابيير R. T. La Piere^(١) للسلوك إلى الأنواع الأربعة التالية:

١ - سلوك ظاهر رمزي؛ كالحوار، والكتابة، والإيماء.

ب - سلوك ظاهر غير رمزي؛ كفتح النافذة، وركوب الدراجة.

ج - سلوك باطن رمزي؛ كالتفكير.

د - سلوك باطن غير رمزي؛ كالانفعالات، والعواطف.

ويكاد يُجمع الباحثون على أن الاتجاهات تشمل الحالة الأولى والثالثة والرابعة، ولا تشمل الحالة الثانية. والتنظيم النفسى الذى يشمل هذه الحالات الثلاث يؤدى إلى الاتجاه الظاهر؛ والتنظيم الذى لا يشمل على الحالة الأولى يؤدى إلى الاتجاه الباطن.

٤ - القوية والضعيفة

تنقسم الاتجاهات بالنسبة إلى شدتها إلى اتجاهات قوية وأخرى ضعيفة. ويبدو الاتجاه القوى فى موقف الفرد من هدف الاتجاه موقفاً حاداً لافرق فيه ولا هوادة. فالذى يرى المنكر فيغضب ويثور، ويحاول تحطيمه بيده وبقوله وبتفكيره. إنما يفعل ذلك لأن اتجاهاً قوياً حاداً قد ملك عليه شعاب نفسه. والذى يقف من هدف الاتجاه موقفاً ضعيفاً رخواً، خانعاً مستسلماً، لا يستطيع مقاومة ولا احتمالاً، إنما يفعل ذلك لأنه لا يشعر بشدة الاتجاه. كما يشعر بها الفرد السابق. ومثلهما فى ذلك كمثل مستويات القوة التى يشير إليها الحديث النبوى فى تنظيمه التالى « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وهذا أضعف الإيمان ».

1. La Piere. R.T. The Sociological Significance of Measurable Attitudes, Amer. Sociol. Rev. 1938.3, P.P. 175—182.

هذا ، ويذهب كانتريل H. Cantril^(١) في بحثه الذى نشره سنة ١٩٤٦ بعنوان « شدة الاتجاه » ؛ إلى أن قوة الجماعة الصغيرة التى يسيطر عليها اتجاه شديد حاد ، أبلغ أثراً فى ديناميكية المجتمع من الجماعة الكبيرة التى لا يسيطر عليها نفس الاتجاه .

٥ — الموجبة والسالبة

الاتجاهات التى تنحى بالفرد نحو شيء ما تسمى اتجاهات موجبة ، والاتجاهات التى تنحى بالفرد بعيداً عن شيء آخر تسمى اتجاهات سالبة .

التفسير السيكولوجى للاتجاهات

الاتجاهات ، كما أسلفنا ، دوافع عامة مكتسبة ، إدراكية فى نشأتها الأولى ، وفى بعض أهدافها . وهى بتكوينها ، ومقوماتها ، وأركانها ؛ تنخذ لنفسها وظائف عامة وخاصة تسعى لتحقيق أهداف الجماعة والفرد . وهى ديناميكية فى تفاعلها مع الموقف الذى يحتوى الفرد والبيئة . فهى بذلك إدراكية ، وظيفية ، ديناميكية .

١ — نظرية كانتريل الإدراكية فى تفسير الاتجاهات

يذهب كانتريل^(٢) إلى أن الإدراك سلوك يهدف إلى غرض ينطوى تحت لواء الهدف العام للكائن الحى ، فيدرك الفرد الأشياء والأحداث التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بماضيه وأغراضه الراهنة ، ويلم بمدخل البيئة فيفهم عنها رموزها التى تهديه إلى حل مشاكله . وبذلك تتأثر اتجاهات الفرد بإدراكه ؛ وتتأثر ، أيضاً ، بإدراك الأفراد الآخرين وتؤثر فيهم . فيزداد الاتجاه ثبوتاً واستقراراً كلما طال اعتناق الناس له . وهكذا يميل الفرد إلى تقليد الناس فى اتجاهاتهم الناجحة ، ويدفعه إلى هذا التقليد

1. Cantril, H. The Intensity of an Attitude. J. Ab. and Soc. Psychol, 1946, 41. P.P. 129—135.
2., Understanding Man's Social Behavior. 1947.

إدراكه المباشر لنجاح هذه الاتجاهات .

وتتغير الاتجاهات تبعاً لتغير أهدافها . فتنشأ الاتجاهات الجديدة عند ما تفشل القديمة في تحقيق أهداف الفرد والجماعة . وبذلك تتكون الاتجاهات لمواجهة الفشل الذي يعترض سلوك الفرد في تكيفه لبيئته ، ولتأكيد النجاح الذي يلقاه الفرد في محاولاته الصحيحة .

ب — التفسير التكويني والوظيفي للاتجاهات ^(١)

أدت نتائج الدراسات التي قامت بها العيادة السيكولوجية بجامعة هارفارد على اتجاهات الشعب الأمريكي حيال روسيا ؛ إلى تفسير الاتجاهات على أنها مظهر من مظاهر التكوين الهرمي للشخصية . وهي تُسفر بذلك عن القيم التي ترسب في أعماق الفرد وترتبط بحاجاته .

وتدل هذه الأبحاث على أن مقومات الاتجاهات ترجع إلى المستوى المعرفي للشخصية ، ومستوى الإدراك الزمني للأحداث المقبلة ؛ وترتبط أيضاً بالامتدادات والأبعاد الوجدانية للشخصية في نواحي شدتها الانفعالية .

وتتلخص الناحية الوظيفية للاتجاهات فيما يلي :

١ — التكيف بالنسبة للحياة الواقعية . فهي بذلك تساعد الفرد على الاستفادة من النفع المقبل وتجنبه الأخطار المتوقعة .

٢ — التكيف الاجتماعي للفرد ؛ وذلك بقبوله أو رفضه لاتجاهات الجماعة بالقدر الذي يساير حاجاته الاجتماعية .

1. «Structural and Functional».

Vide, Bruner, J. S. Social Psychology and Group Processes, in Annual Review of Psychology (ed. by Stone.E. P.), 1950, P.P 119—150.

٣ - الدفاع عن « الأنا » ، وذلك حين يلجأ الفرد إلى اتجاهاته مستعيناً بها في مكافحته لتهديد ووعيد الحاجات ، والمواقف المعادية .
وما (الأنا) في جوهرها إلا مجموعة متسقة منتظمة من الاتجاهات ^(١) .

ج - التفسير الديناميكي للاتجاهات

يذهب كرتش D. Krech وكرتشفيلد R. S. Crutchfield ^(٢) إلى أن الاتجاهات وسط ديناميكي يقع بين العمليات النفسية الأساسية والفعل ذاته . وهي تهدف إلى تنظيم الدوافع والوجدانات والإدراك والعوامل النفسية الأخرى - تنظيمًا تكامليًا متسقًا . يساير البيئة في تأثيرها ويؤثر بدوره فيها . وبذلك تعمل الاتجاهات على تخفيف حدة التوتر النفسي الذي يعانيه الفرد في محاولته للوصول إلى هدفه . إذن ، فهي تُعين الفرد في تكيفه للمواقف المختلفة التي يتفاعل معها .

هذا ، وتتلخص وظيفة الاتجاهات في أنها :

١ - تُضفي على إدراك الفرد ونشاطه اليومي معنى ودلالة ومعزى .

٢ - تكسب شخصية الفرد دوام اتصالها بمؤثراتها .

٣ - تساعد الفرد في محاولته لتحقيق أهدافه .

فهي بهذا كله ترشد الفرد في نواحي حياته المختلفة . والاتجاهات بهذا المعنى ديناميكية ، تُلحّ على الفرد في لجاجة وأصرار حتى يبلغ هدفه الذي يرجوه من تكيفه المتصل الدائم مع بيئته .

-
1. Shrif. M. and Cantril, H. The Psychology of Ego-Involvements 1947.
 2. Krech. D. and Crutchfield. R. S. Theory and Problems of Social Psychology. 1948. P.P. 149-174.

التعصب والاتجاهات

يُعرف وارن H. C. Warren^(١) التعصب بأنه اتجاه موجب أو سالب ، يُؤازر أو يضاد أى فرض لم يَقم على صحته دليل ما . ويصطبغ التعصب دائماً بشحنة انفعالية ، فهو بذلك يحول بين الفرد وبين التفكير المنطقي السليم .

فكل اتجاه ينحو بالفرد نحو بغض كل ما لا ينتسب إلى جماعته ، وما يصاحب هذا البغض من خوف وخشية ، يسمى تعصباً .

ويهدف التعصب إلى عزل الأفراد والجماعات المتعارضة بعضها عن بعض ؛ وإلى إقامة الحدود الفاصلة بينها . وهو لهذا يبدو واضحاً جلياً حيناً تُهدد جماعة جماعةً أخرى وتُحاول أن تنتقص من قوتها ومكانتها وكرامتها وهيئتها . وحيناً يُهدد فرد فرداً آخر ، أو يُهدد الفرد الجماعة ، أو تُهدد الجماعة الفرد .

سيكولوجية التعصب

التعصب مظهر من مظاهر الجنوح في تأكيد الذات واحترامها ، والمغالاة في هذا الجنوح تدفع بالفرد نحو عشق ذاته ونحو تركيز عالمه في ميدانها الضيق . فيتسم سلوكه بالمظهر العدواني .

١ - التعصب واحترام الذات

ينشأ التعصب من الحاجة السيكولوجية لاحترام الذات والمبالغة في تأكيدها . فنحن نتعصب حين نسخر الحقائق التي لا تتفق واتجاهاتنا^(٢) ؛ وحين ننسأها أو

-
1. i. Warren, H.C. Dictionary of Psychology. 1934.
ii. See also. Young. K. Handbook of Social Psychology. 1948, P.P. 258—259,
 2. West. R. Psychology and World Order. 1945. P. 29.

تتناساها ، وحين نهر أخطاءنا ، وحين نبالغ في نقدنا لأخطاء الآخرين .

وتنبع المغالاة في تأكيد الذات من مصادر اعتبارية بحتة . فاحترامك لنفسك يعتمد في جوهره على موقفك من سلوك الأفراد الآخرين المحيطين بك ، ومن ارتباطك بهم ومدى خضوعهم وخضوعك للتقاليد المرعية ، والعرف القائم ، والمعايير الاجتماعية ؛ والقيم النسبية للخير والشر . وهذه كلها ترجع في جوهرها إلى طفولة الفرد المبكرة وإلى نشأة الأولى .

٢ — التعصب وعشق الذات

يقرر إمبرى E. R. Embree^(١) في كتابه « أمريكا السمراء » أن التعصب نوع من أنواع النرجسية Narcissisms أو عشق الذات . فغالاة الأفراد في حبهم لأنفسهم أو إعجابهم بها وبكل ما يماثلها أو يلوذ بها — تجنح بهم إلى ضروب مختلفة من كره ومقت الأفراد الآخرين الذين يختلفون عنهم اختلافاً بيناً .

وبهذا تنقسم الجماعات بالنسبة إلى التعصب إلى نوعين : جماعة داخلية وجماعة خارجية^(٢) . فأما الداخلية فهي التي تفرض سلطانها الثقافي والديني والاقتصادي والعنصري على الفرد ، وتؤلف بذلك بين قلوب أفرادها . وأما الخارجية فهي هدف لعدوان الداخلية ، وذلك للتعصب القائم على الاختلافات الجوهرية بين الجماعتين ولإيثار كل فرد لجماعته ومغالاته في الصفات التي تربطه بها وعزوفه عن جادة الحق والمنطق السليم . ومثل ذلك كمثل التعصب العنصري الذي يقوم على اختلاف لون البشرة ، والذي من أجله يقاسى الزوج الأمريكى في أمريكا ، ومن أجله أيضاً تقاسى الأجناس الملونة بجنوب أفريقيا تعصباً حاداً قوياً من العناصر الأوربية الدخيلة .

1. Embree. E.R. Brown America, 1931

(٢) راجع الفصل السادس من ٩٠ — ٩١

طابع التعصب العدوان .

والعدوان قد يكون ظاهراً أو خفياً ، لفظياً أو غير لفظي . ومهما يكن من أمره فهو يتمثل في جور طائفة على أخرى ، وإجحاف جماعة بجماعة ، وتحامل فرد على فرد آخر .

ويرجع فرويد S. Freud العدوان والتعصب إلى « غريزة الموت » في مظهرها العام الذي ينحو إلى إلحاق الضيم بأي شيء ، حتى ولو أدى الأمر إلى دفع صاحبها لينتحر ، فيضار بانتحاره الأفراد الآخرون .

وإرجاع جوهر التعصب لأسباب غريزية فطرية يتنافى ونتائج الأبحاث التجريبية التي قام بها مورينو J. L. Moreno^(١) والتي تدل على أن الطفل الأمريكي لا يجد غضاضة في مصاحبة الزنجر واللعب معه . لكن الرجل الأمريكي يتعصب ضد الزنجر ويأنف منه . فالطفل الصغير يختلف أذن عن الرجل في أنه لم يمتص بعد ، التعصب العنصري الذي يهيمن على الثقافة القائمة .

ولقد دلت أبحاث مننجر K. A. Menninger^(٢) ، ودلت التجارب التي قام بها رادك M. Radke وتراجر H.G. Trager ودافيد H. Davis^(٣) على أن الاتجاهات تنشأ عند الأطفال في سن مبكرة جداً ، وأنها تتأثر في نشأتها بالنظام الثقافي القائم ، وبالبيئة الخاصة النوعية التي تتمثل في الأسرة . فالطفل يمتص من أبيه وأمه وذويه اتجاهاته الأولى ؛ والتعصب يزداد قوة وشدة بازدياد نمو الطفل ويادراكه للفروق الاجتماعية والعنصرية القائمة بين طبقة وأخرى ؛ والطفل يشق

1. Moreno. J. L. Who Shall Survive ? 1934.
2. Menninger. K. A., Man Against Himself. 1938.
3. Radke. M. Trager. H. and Davis. H. Social Perception and Attitudes of Children. Genetic Psychol. Monog. 1949. 40. P.P. 327-447.

بعض عناصر إدراكه لنفسه من الجماعة التي ينتسب لها ، فيكتسب بذلك بعض اتجاهاته وألوان تعصبه . والتعصب الذي يُهدد الأقليات ينعكس على الحياة النفسية لأطفالها .

المظاهر والأسباب الاجتماعية للتعصب

يؤدي بنا تحليلنا السابق إلى وصف التعصب بأنه دافع عام مكتسب يؤثر في سلوكنا وأحكامنا على الأشياء المختلفة ، ويوجهها شطر أهداف محددة .

والتعصب في مظاهره الاجتماعية المختلفة يدل على اختلال التبادل الاجتماعي القائم بين الأفراد .

هذا وتتلخص أهم أسبابه ومظاهره الاجتماعية فيما يلي :

- ١ — المبالغة في إسقاط الصفات الرديئة في الجماعة الخارجية .
- ٢ — المبالغة في الخوف من الفوارق القائمة بين جماعات الناس .
- ٣ — الجود الخلقى وما يصاحبه من جهود في المعايير العامة .
- ٤ — العجز عن احتمال الهزات التافهة ، عجزاً يُباعد بين الفرد وبين الحلم وطول الأناة والسماحة .
- ٥ — تأثر الطفل في بيئته المنزلية ، بالفوارق الاجتماعية الحادة .
- ٦ — الميل إلى الايمان بالخرافات ، والإحساس بالكوارث والمصائب قبيل وقوعها ، وما يصاحب ذلك من تشاؤم .
- ٧ — العجز عن تحليل المشاكل الاجتماعية تحليلاً عميقاً يتصل اتصالاً مباشراً بمنفعتي الآجلة الكبيرة ، والجنوح إلى معالجتهم معالجة عابرة تنصل من قريب بمنفعتي العاجلة .

وسائل مقاومة التعصب

التعصب — كما أسلفنا — اختلال يعترى العلاقات الاجتماعية القائمة ، وتوتر شديد يسيطر على تلك الخيوط الاجتماعية غير المنظورة . ولذلك فأنجع الطرق لمقاومة التعصب هي في جوهرها الوسائل التي تخفف من حدة ذلك الاختلال . وتلك بدورها ترتبط ارتباطاً مباشراً بأسباب التعصب ومظاهره . ومعرفتنا لتلك الأسباب والمظاهر تؤدي بنا إلى التماس المسالك التالية لإضعاف التعصب :

١ — نشر المعلومات الصحيحة عن مميزات وخواص الجماعات المختلفة ؛ ومحاربة الإشاعات الكاذبة التي تُقيم حدوداً وهمية بين الناس

وتعتمد الإشاعات في انتشارها على عاملين أساسيين يتلخصان في: أهمية الإشاعة بالنسبة لراوئها وسامعها ؛ وغموضها . وتدور الإشاعة في بدء تكوينها حول بقايا أو روايب خبر ما ، أو حقيقة خاصة ، ثم تتلاشى عناصر الخبر ، وتذوب الحقيقة وتختفي وراء سيل جارف من الترهات والأباطيل .

هذا وترتبط عوامل تكوين الإشاعة بعلاقة رياضية يمكن صوغها في المعادلة التالية^(١) :

$$\text{شدة انتشار الإشاعة} = \text{الأهمية} \times \text{الغموض} .$$

وبذلك فشدة انتشار الإشاعة تساوى حاصل ضرب عامليها . فإذا تلاشت الأهمية تلاشت الإشاعة رغم غموضها ؛ وإذا تلاشى الغموض تلاشت الإشاعة أيضا رغم

1. i. Allport. G. W. and. Postman. L.J The Psychology of Rumour. 1947.
- ii. Festinger, L. and others. A Study of Rumour: Its Origin and Spread, Human Relations. 1948. 1. P.P. 464—486.
- iii- Back. K. and others. The Methodology of Studying Rumour Transmission. Human Relations, 1951. P.P.307—312.
- iv. Higham. T. M. The Experimental Study of the Transmission of Rumour. British J. of Psychol, 1951. 1 and 2. P.P. 42—55.

أهميتها . وهكذا نزول الإشاعة بزوال أحد أركانها . ولنضرب لذلك مثل المواطن المصرى فى استماعه لخبر غامض يدور حول كساد موسم الصيد عند الإسكيمو . فهو لا يهتم للأمر رغم غموضه لأنه لا يعنيه من قريب أو بعيد ، ولهذا تموت الإشاعة حيث ولدت ، وتسكن حركتها قبل أن تنتشر . وقد تكون الإشاعة مهمة للفرد كالإشاعات التى تنتشر عن سير القتال أثناء الحرب فهى تهتم الضباط والجنود جميعاً ، لكنها لا تنتشر بين ضباط القيادة الذين يديرون دفعة الحرب ، لأنهم يعلمون حقيقتها ؛ وتنتشر بين الجنود لجهلهم ببعض نواحي القتال ولغموضها بالنسبة لهم .

٢ - تشجيع اختلاط وتعارف العناصر البشرية المختلفة بشتى الطرق لإزالة الفوارق التى تقوم على جهل الناس بعضهم لبعض . وذلك بتقريب الشقة بين الأفراد والجماعات والشعوب المختلفة .

٣ - إصلاح الطوائف والجماعات التى يصدر منها التوتر ؛ وذلك بدراسة العوامل والأسباب التى تؤدى إلى تعصبها .

٤ - نشر المبادئ الديمقراطية الصحيحة بين كافة الناس لتطمئن الأقليات الصغيرة الضعيفة إلى حقها فى الحياة ، وما يتبع ذلك من تكافؤ الفرص ، فينال كل ذى حق حقه .

٣ - طرق قياس الاتجاهات والتعصب

أهمية قياس الاتجاهات

تُقاس الاتجاهات لسببين : أولاً لأن نتائج القياس تُلقى ضوءاً على مدى صحة أو خطأ الدراسة النظرية القائمة ، ولأنها تزود الباحث بميادين تجريبية مختلفة ، وتنحو بالدراسة نحو آفاقها التجريبية المجهولة ؛ وبذلك تزداد معرفتنا بالعوامل التى تلابس بدء الاتجاه ونشأته ، واستقراره وثبوته ، وتحوله وتطوره ، وتغيره البطيء المتدرج أو السريع المفاجئ .

وثانياً لأن لقياس الاتجاهات فوائد تمتد وتنتشر فى ميادين عدة مختلفة ، نذكر منها ميادين التربية والتعليم ، والصناعة ، والحياة العامة فى السلم والحرب .

وفي مقدور الباحث أن يقيس نوع ومدى اتجاهات الطلبة نحو مواد الدراسة المختلفة ، ونحو بيئتهم المدرسية وأترابهم ورفقائهم ومدرسيهم وكتبهم ، فيكشف بذلك عن استجاباتهم الشخصية ، وعن سماتهم وأهوائهم ومواقفهم النفسية من النظام القائم .

ويهتم علم النفس الصناعي بقياس اتجاهات العمال نحو العمل ذاته ونحو التنظيم القائم وأثره المباشر وغير المباشر في الإنتاج العام ، فيكشف بذلك عن أنجع الوسائل لإسعاد العامل وزيادة الإنتاج .

ولقياس الاتجاهات أهميته القصوى في معرفة الرأي العام ، وفي استكشاف نواحي تطوره . وعوامل تغييره ، وأثر الإعلان والدعاية في نشأته وتكوينه .

ولقد استخدمت مقاييس الاتجاهات بنجاح كبير في الحرب الماضية لمعرفة العوامل التي تؤثر في إذكاء الروح المعنوية أو التي تعمل على انحلالها وضعفها ^(١) .

القياس التخميني

يلجأ الفرد — في حياته اليومية — إلى أساليب شتى في معرفة وقياس اتجاهات الأفراد الآخرين . ويعتمد في استنتاجه على ملاحظاته العابرة لأقوال الناس وآرائهم ، ثم يقوم ما يرى وما يسمع ، ويقدره تقديراً قد يعتمد في جوهره على البديهة والتعميم السريع ؛ ثم يستطرد ليقرر ويعلن أحكامه عن الطوائف المختلفة ، وهو لم ير ولم يعرف منها إلا نقرأ لا يكاد يبلغ الرهط الصغير .

وهكذا قد ينحرف التقدير عن جادة الصواب لاعتماده على القياس الفردي الضيق ، وما يصحبه من خطأ يُلَابس اختيار عينة الأفراد واختيار عينة الحوار ، وقصوره عن أن يبلغ المستوى العلمي الصحيح لرصد وتحليل الاستجابات المختلفة تحليلًا علميًا يصل بها إلى نتائجها المنطقية الصحيحة .

(١) راجع الفصل الأول ؛ ص ٢٣ .

الطرق العلمية لقياس الاتجاهات

تُقاس الاتجاهات باستفتاء عينة كبيرة من الأفراد، استفتاءً يعتمد في جوهره على أسئلة عدة تدور حول موضوع ما، ثم تُرصد الإجابات المختلفة تمهيداً لتحليلها تحليلًا رياضيًا يصل بها إلى نتائجها المرجوة.

ولقد أشرنا من قبل إلى أهمية الاستفتاء كوسيلة من وسائل البحث في علم النفس الاجتماعي، وشغفنا ذلك بدراسة لأهم مميزات الاستفتاء الجيد^(١).

هذا ويمكن تقسيم أهم أنواع القياس الاستفتاءي إلى أربع طرق نلخصها في: الانتخاب، والتدرج، والمقارنة الازدواجية، والترتيب^(٢). ولكل طريقة من هذه الطرق أصولها وأسسها؛ وهي بذلك تختلف عن بعضها في رصدها لاستجابات الأفراد، وفي تحليلها الإحصائي، وفي معالجتها للنتائج معالجة تنحوبها نحو تقويمها ونحويلها إلى مقاييس وزنية مقننة، وفي تفسيراتها النفسية المختلفة.

١ - الانتخاب

تعتمد هذه الطريقة على استفتاء يتكون من طائفة من الأسماء أو للموضوعات، وعلى الفرد أن ينتخب أحبها إليه، أو أهمها لديه، أو أبغضها عنده، أو غير ذلك من النواحي التي يُراد قياسها.

وعلى الباحث أن يرصد عدد الأصوات التي فاز بها كل موضوع من موضوعات الاستفتاء، وله بعد ذلك أن يحسب النسبة المئوية للأصوات، ثم يُرتب الموضوعات ترتيباً يعتمد على القيم العددية لتلك النسب المختلفة.

(١) راجع الفصل الثاني: طرق البحث في علم النفس الاجتماعي: وخاصة الاستفتاء من ٣٣-٣٥

(2) Voting, Rating, Paired Comparison, and Ranking.

وعتاز هذه الطريقة بسهولتها وسرعتها ، ولهذا شاع استخدامها في حياتنا اليومية ،
وفي الانتخابات السياسية ، وفي غير ذلك من الميادين المختلفة .

ويعاب عليها أنها لا تسفر عن الفروق الدقيقة الحساسة القائمة بين موضوعات
الاستفتاء ؛ وأن نتائجها تتأثر تأثراً كبيراً بالملابسات الخارجية التي لا يتضمنها
القياس ولا يحتويها .

٢ - التدرج

تعتمد هذه الطريقة على تدرج مدى الاتجاه في درجات متعاقبة ، لا تتقدم فيه
درجة على أخرى ، حتى يبلغ الاتجاه غاية مرقاه .

ولهذه الطريقة أشكال مختلفة نذكر أهمها فيما يلي :

١ - تدرج مدى الاتجاه من النفي إلى الإثبات

يستطيع الفرد أن يصدر حكمه على موضوع ما ، بالنفي أو بالإثبات . وهو قد
يستطرد فيؤكد النفي حتى يصبح قاطعاً ، أو قد يعتدل فيخفف من حدة الإثبات وله
بعد كل ذلك أن يحايد فلا ينفي ولا يثبت .

وبذلك يتدرج اتجاهه من نفي قاطع ، إلى نفي معتدل ، إلى حياد تام ، إلى إثبات
معتدل ، إلى إثبات قاطع .

وهكذا قد يتخذ الاستفتاء الشكل التالي :

« هل توافق على إعطاء المرأة حقوقها السياسية ؟ »

وعلى الفرد أن يجيب على هذا السؤال باختيار إحدى الاحتمالات التالية :

« أوافق ؛ أوافق نوعاً ما ؛ لا أدري ؛ أرفض نوعاً ما ؛ أرفض »

ثم ترصد الاستجابات المختلفة وذلك بإحصاء عدد الأفراد الذين اختاروا الاحتمال

الأول ، وعدد الذين اختاروا الاحتمال الثاني ، وهكذا حتى ينتهي رصد جميع هذه الحالات . ثم تُحسب النسب المئوية لاستجابات كل احتمال ، ثم تعالج بطرق رياضية مختلفة ، حتى تصبح مُقننة متدرجة في سلم إحصائي صحيح واضح .

ب — تدريج مدى التبعاد النفسى الاجتماعى

هذا ويمكن استخدام الاستفتاء المتدرج في قياس التعصب القومى ، وبذلك يتخذ الاستفتاء الشكل التالى :

« هل ترغب فى :

١ — الزواج من الأتراك .

٢ — صداقة الأتراك .

٣ — العمل مع الأتراك .

٤ — أن تكون دارك ملاصقة لديار الأتراك .

٥ — معرفة عابرة للأتراك .

٦ — أن تكون دارك بعيدة عن ديار الأتراك .

٧ — أن تطرد من مصر جميع الأتراك . »

وهكذا يستطرد الاستفتاء ، حتى يقيس استجابات الأفراد لجميع الشعوب ^(١) . ثم

(١) اشتهر هذا المقياس باسم « مقياس بوجاردس للتعصب » ولقد استخدمه مؤلفه سنة

١٩٣٣ فى البحث التالى :

Bogardus, E.S., A Social Distance Scale. Sociol. and Soc. Res. 1933. 17, 265.

واستعان به بروترو وملسكيان سنة ١٩٥٣ فى بحثهما التالى :

المواقف الاجتماعية لطلاب الجامعات فى الشرق الأدنى — مجلة علم النفس ، ١٩٥٣ . مجلد ٨ ،

عدد ٣ ، ص ٢٩١ — ٢٩٨

تُرصَد النتائج بطريقة إحصائية تُسفر عن مدى تباين التعصب بالنسبة لكل شعب من تلك الشعوب .

وفي سنة ١٩٤٧ أعلن معهد هوراس مان لينكولن^(١) استفتاءً جديداً يهدف إلى معرفة مدى التباعد النفسي الاجتماعي بين تلاميذ الفصول المدرسية . ويتلخص هذا المقياس في الأسئلة المتدرجة التالية :

« ١ - كتب أسماء زملائك في الفصل وفقاً للتقسيمات المتدرجة التالية :

١ - أصدقاؤك المقرَّبون

٢ - أصدقاؤك العاديون الذين تميل إلى الاختلاط بهم

٣ - أصدقاؤك العاديون الذين لا تميل كثيراً إلى الاختلاط بهم

٤ - زملاؤك الذين لا ترى مانعاً من وجودهم معك في الفصل ، رغم أنك لا تميل إلى صحبتهم

٥ - زملاؤك الذين لا ترغب في وجودهم معك بالفصل »

وفي مقدور الباحث أن يستدل من تحليل نتائج هذا الاستفتاء على مدى تباعد الفرد بالنسبة للجماعة ؛ وعلى مدى تباعد الجماعة بالنسبة للفرد .

وانضرب لتباعد الفرد بالنسبة للجماعة مثل الطالب (١) الذي يختاره خمسة أفراد من زملائه كأقرب صديق لهم ، فيبدو لذلك اسمه خمس مرات أمام النوع الأول ، وهكذا نستطرد في مثلنا هذا لنفرض له ٨ مرات في النوع الثاني ، ١١ مرة في النوع الثالث ، ٥ مرات في النوع الرابع ، ومرة واحدة في النوع الأخير .

فإذا اصطللنا على اتخاذ أرقام هذه الأنواع المتدرجة ، كوحدات في مقياس يزداد

1. Horace Mann—Lincoln Institute of School Experimentation
How to Construct A Sociogram, 1947.

تباعده الاجتماعى كلما كبرت قيمته العددية ، أمكننا أن نصل إلى معرفة مدى تباعد الطالب (١) بالنسبة للجماعة ، وذلك بضرب عدد مرات تكرار الاسم فى القيمة العددية للنوع الذى يحتويه . ثم جمع النتائج النهائية لتلك العمليات . ولنوضح ذلك بالعملية الحسابية التالية :

$$\begin{array}{r} 0 = 1 \times 0 \\ 16 = 2 \times 8 \\ 33 = 3 \times 11 \\ 20 = 4 \times 5 \\ 0 = 5 \times 1 \\ \hline 79 \end{array}$$

وبذلك يصبح تباعد الطالب (١) بالنسبة للجماعة مساوياً لـ ٧٩

هذا وكلما ارتفعت القيمة العددية لهذا المعامل ، ازداد التباعد . وكلما انخفضت قيمته العددية ، قلَّ التباعد . ويصل معامل التباعد الاجتماعى لنفسى لنهايتيه الصغرى حينما يختار جميع الطلبة الطالب (١) كأقرب صديق لهم . ويصل لنهايتيه العظمى حينما لا يرغب جميع الطلبة فى وجود (١) معهم بالفصل^(١) .

وبما أن عدد الطلبة فى مثلنا هذا يتكون من :

$$0 + 8 + 11 + 5 + 1 = 30 \text{ طالباً}$$

$$30 = 1 \times 30 = \text{النهاية الصغرى}$$

$$150 = 5 \times 30 = \text{والنهاية العظمى}$$

(١) راجع الفصل العاشر « التخطيط الاجتماعى وقياس ديناميكية الجماعات » ص ١٩٥ — ١٩٧ ؛ وخاصة معامل درجة شدة استجابة الجماعة للفرد ، ومعامل درجة شدة استجابة الفرد للجماعة .

ولنضرب لتباعد الجماعة بالنسبة للفرد مثل الطالب (١) الذى يختار لكل نوع من أنواع مقياس التباعد المتدرج ، عدداً من زملائه يستطرد بالترتيب التالى :

٥ ، ١٠ ، ٨ ، ٥ ، ٢

فإذا ضربنا كلا من هذه الأعداد فى القيمة العددية لنوعه المتدرج ، ثم جمعنا النتائج النهائية لتلك العمليات ؛ فإننا نصل إلى المعامل المطلوب ، وذلك بإجراء العمليات الحسابية التالية :

$$\begin{array}{r} 2 = 1 \times 2 \\ 10 = 2 \times 5 \\ 24 = 3 \times 8 \\ 40 = 4 \times 10 \\ 25 = 5 \times 5 \\ \hline 101 \end{array}$$

وبذلك يصبح تباعد الجماعة بالنسبة للطالب (١) مساوياً لـ ١٠١

ويمكننا أن نستنتج من هذا أن تباعد (١) بالنسبة لزملائه ، أقل من تباعد زملائه بالنسبة له . أى أن الفرد ينفر من الجماعة أكثر مما تنفر الجماعة منه .

د — التدرج المتجمع^(١)

يرجع الفضل فى اكتشاف هذه الطريقة إلى أبحاث جتمان^(٢) L. Guttman ،

1. Cumulative scale model.
2. i- Guttman, L., The Quantification of a Class of Attributes: A Theory and Method for Scale Construction. in P. Horst, The Prediction of Personal Adjustment. 1941. P.P, 319—348.
ii- ————. The Problem of Attitude and Opinion Measurement, in Studies in Social Psychology in World War 2, Vol. 4. Measurement and Prediction, 1950, Chapter 2, PP. 46—59.

التي تعتمد على تدرج الاستفتاء تدريجاً يتزايد تجمعه ، كلما اقتربت الأسئلة من بدء الاستفتاء ، ويتناقص تجمعه كلما اقتربت الأسئلة من نهاية الاستفتاء .

فإذا جاز لنا أن ننشئ نموذجاً عددياً متدرجاً كالنموذج التالي :

١ — ١٠٠ سم .

٢ — ٩٠ سم .

٣ — ٨٠ سم .

فإننا نستطيع أن نرصد للسؤال الأول ثلاث درجات ، وللثاني درجتين ، وللثالث درجة واحدة . ونستطيع أن ننشئ مقياساً يتخذ الشكل التالي في تدرجه :

« لك أن تجيب على الأسئلة التالية ، بالإيجاب أو بالنفي . فإذا كانت إجابتك بالإيجاب فاكتب (X) تحت كلمة «نعم» . وإذا كانت إجابتك بالنفي فاكتب (X) تحت كلمة «لا»

لا	نعم	
.....		١ — هل يزيد طولك عن ١٨٠ سم ؟
.		٢ — هل يزيد طولك عن ١٧٠ سم ؟
.....		٣ — هل يزيد طولك عن ١٦٠ سم ؟

فإذا أجاب الفرد بالإيجاب عن السؤال الأول ، فعليه أن يجيب أيضاً بالإيجاب عن السؤال الثاني والثالث . وإذا أجاب بالنفي عن السؤال الأول ، وبالإيجاب عن السؤال الثاني فعليه أن يجيب بالإيجاب عن السؤال الثالث ، وهكذا تستطرد الإجابات في تدرج متجمع .

ثم ترصد نتائج الإجابات الإيجابية ، والإجابات السلبية في جدول كالتالى :

ترتيب الأفراد	مجموع إجابات نعم	لا			نعم		
		٣	٢	١	٣	٢	١
١	٣	—	—	—	×	×	×
٢	٢	—	—	×	×	×	—
٣	١	—	×	×	×	—	—
٤	٠	×	×	×	—	—	—

وهكذا يُسفر هذا الاستفتاء عن تدريج دقيق شامل للأسئلة وللأفراد .
وفى مقدور الباحث أن يكتشف الأسئلة المتدرجة التجمع فى أى استفتاء ، وذلك
بانتقاء الاستجابات الصالحة لهذا التنظيم . ويعتمد جوهر اختياره على الشكل التالى ،
وعلى استطراد هذا الشكل لأى عدد من الأسئلة

×	×	×	×
×	×	×	—
×	×	—	—
×	—	—	—
—	—	—	—

وله بعد ذلك أن يحسب النسبة المئوية لكل نوع من الأنواع التى اختارها ، ثم
يرصدها ويحللها تحليلًا رياضياً ليصل بها إلى نتائجها العلمية .

هذا وما زالت هذه الطريقة فى طورها التجريبي ، وما زال تطبيقها مقصوراً على
الاتجاهات الواضحة التدريج .

يرجع الفضل في اكتشاف هذه الطريقة إلى أبحاث لازارسفيلد^(٢) P. E. Lazarsfeld التي تعتمد في جوهرها على الأسس المنطقية الرياضية لنظريات سييرمان وثرستون في التحليل العاملي^(٣).

ويذهب لازار سفيلد إلى أن جميع استجابات الأفراد على أى سؤال من أسئلة الاستفتاء ، تنبع كلها من عاملين مختلفين ؛ أحدهما عام يتصل بالبنية الكامنة للاتجاه ، والآخر خاص محدود قاصر على طبيعة السؤال ذاته . هذا ولا ترتبط العوامل الخاصة بعضها ببعض ، ولا ترتبط أيضاً بعوامل البنية الكامنة ، بل يستقل كل عامل منها بالفاحية الذاتية لكل سؤال من أسئلة الاستفتاء .

وتختلف هذه الطريقة عن طريقة التدريج المتجمع في أنها ترصد كل الاحتمالات الممكنة لجميع الأسئلة .

والتنظيم التالي يوضح جميع الاستجابات المحتملة ، الموجبة والسالبة ، لثلاثة أسئلة مختلفة .

١	٢	٣	١	٢	٣
+	+	+	-	-	-
-	+	+	+	-	-
+	-	+	-	+	-
+	+	-	-	-	+

1. Latent. Structure.

2. i- Lazarsfeld, P.E., The Logical and Mathematical Foundation of Latent Structure Analysis, in Studies in Racial Psychology in World War 2, Vol. 4, Measurement and Prediction, 1950, Chapter 10, P.P. 362—412.

ii- The Interpretation and Computation of Some Latent Structure. Ibid. Chapter 11. P.P. 413—472.

(٣) راجع التحليل العاملي في الدراسة الإحصائية والانفعالية العامة — ص ٢٢٦—٢٢٧.

هذا ومجموع هذه الحالات يساوى ٨ ، أى ٣٢ . وتدل الإثنان على الإيجاب والنفي ، وتدل الثلاثة على عدد الأسئلة .

وعلى الباحث بعد ذلك أن يرصد النسبة المئوية لعدد استجابات كل حالة من هذه الحالات ، ثم يكتشف البنية الكامنة المشتركة بين جميع هذه الأسئلة ، ثم ينشئ على أساسها مقياساً للاتجاه .

وما زالت هذه الطريقة أيضاً في طورها التجريبي ؛ ويعاب عليها أنها تزداد صعوبة وتعقيداً كلما ازداد عدد الأسئلة ، وكلما ازدادت أنواع الاستجابات .

٣ — المقارنة الازدواجية^(١)

تقوم هذه الطريقة في وضعها العلمى الحديث على البحث الذى نشره ثرستون L. L. Thurstone^(٢) سنة ١٩٢٨ ، عن دراسته التجريبية للتعصب القومى .

وهى تعتمد في جوهرها على المقارنة الازدواجية . وبذلك يتكون كل سؤال من أسئلة الاستفتاء من مقارنة موضوعين ، ثم تفضيل أحدهما على الآخر بالنسبة لهدف الاتجاه المراد قياسه .

ولنضرب لذلك المثل التالى :

« اكتب (X) تحت الموضوع الذى تميل إليه ، في كل زوج من الأزواج التالية :

١ — التاريخ — الجبر

.....

٢ — الحساب — الجغرافيا

.....

1. Paired Comparison.

2. Thurstone. L.L. An Experimental Study of Nationality Preferences, J. Gen. Psychol. 1928. 1. 405.

٣ - الجبر - الرسم
.....

٤ - الجغرافيا - التاريخ
.....

ويستطرد الاستفتاء حتى يستغرق جميع الاحتمالات الزوجية بالاستفتاء الذي يقوم على ستة موضوعات تتطور إلى ١٥ زوجاً صالحاً للمقارنة ولنوضح ذلك بالتحليل التالي :

إذا رمزنا لموضوعات الاستفتاء بالرموز (ا ؛ ب ، ج ، د ، س ، ص) فإن عدد الأزواج الممكنة يتكون من الوحدات التالية :

$$٥ = \text{ا ب ؛ ا ج ؛ ا د ؛ ا س ؛ ا ص}$$

$$٤ = \text{ب ج ؛ ب د ؛ ب س ؛ ب ص ؛}$$

$$٣ = \text{ج د ؛ ج س ؛ ج ص ؛}$$

$$٢ = \text{د س ؛ د ص ؛}$$

$$١ = \text{س ص .}$$

$$\text{أى أن عددها يساوى } ٥ + ٤ + ٣ + ٢ + ١ = ١٥ ،$$

$$\text{وهذا يساوى } \frac{٦(١-٦)}{٢}$$

فلو رمزنا لعدد الموضوعات بالرمز ن

$$\text{.. عدد الأزواج} = \frac{ن(١-ن)}{٢}$$

وبذلك يزداد عدد أسئلة الاستفتاء زيادة كبيرة كلما ازداد عدد الموضوعات زيادة صغيرة . ولنوضح ذلك بالتحليل التالي :

عدد الموضوعات	عدد الأسئلة	الفرق
٢	١	
٣	٣	٢
٤	٦	٣
٥	١٠	٤
٦	١٥	٥
٧	٢١	٦
٨	٢٨	٧
٩	٣٦	٨
١٠	٤٥	٩

ولهذا يصبح الاستفتاء مُرهقاً شاقاً على الأفراد ، عند ما تزيد موضوعاته عن ١٢ موضوعاً .

هذا ويتأثر شكل الاستفتاء بترتيب أسئلته وتتابعها المتوالى . وعلى الباحث أن يحتاط حتى لا يؤثر هذا الترتيب في استجابات الأفراد . وله أن يربتها ترتيباً عشوائياً ، أو أن يحول بين الموضوع وبين تكراره في سؤالين متتالين .

وترصد نتائج الاستفتاء ، ثم تحسب النسبة المئوية لعدد مرات اختيار كل موضوع ، ثم تُحلل هذه النسب تحليلاً رياضياً إحصائياً يؤدي بها إلى إنشاء مقياس علمي دقيق للاتجاه .

٤ - الترتيب ^(١)

تعتمد هذه الطريقة على ترتيب موضوعات الاستفتاء ترتيباً يعتمد في جوهره على نوع الاتجاه المراد قياسه .

وبذلك يتكون الاستفتاء من عدد محدود من الموضوعات . وتتلخص استجابة الفرد في ترتيب هذه الموضوعات بالنسبة لدرجة ميله نحوها أو نفوره منها ، أو غير ذلك من الاتجاهات النفسية .

ولنضرب لذلك المثال التالي :

رتب الموضوعات التالية بالنسبة لدرجة ميلك نحوها وحبك لها ، بحيث يصبح أولها أحب موضوع لك ، ويصبح آخرها أبغض موضوع لديك :

حساب — تاريخ — جبر — جغرافيا — هندسة — رسم

هذا وقد تتخذ استجابة الفرد الشكل التالي :

١ - هندسة

٢ - جبر

٣ - حساب

٤ - رسم

٥ - جغرافيا

٦ - تاريخ .

وبذلك يُسفر هذا الاختيار عن تفضيل الهندسة على الجبر : وعن تتابع الترتيب حتى ينتهي بالتاريخ كأبغض موضوع لذلك الفرد .

وعلى الباحث أن يرصد نتائج عدد كبير من الأفراد ، ثم يحسب متوسط الدرجات التي تدل على كل موضوع ، ثم يحللها تحليلًا رياضيًا لينشئ على أساسها مقياساً علمياً صحيحاً .

1. Ranking, or Rank Order.

٤ - دراسة تجريبية لاتجاهات طلبة الجامعات المصرية

نحو الشعوب الأجنبية

هدف التجربة ونتيجتها

قام المؤلف في نهاية سنة ١٩٥٣ وبدء سنة ١٩٥٤ بدراسة تجريبية تهدف إلى اكتشاف اتجاهات طلبة الجامعات المصرية نحو الشعوب الأجنبية . وأسفرت نتائج هذه الدراسة عن إنشاء مقياس علمي لمدى التباعد النفسى الاجتماعى بين الطلبة وتلك الشعوب .

العينة التجريبية

بلغ عدد أفراد العينة التجريبية التى أُجريت عليها الاستفتاء ٢٠٠ طالب من طلبة معهد التربية العالى للمعلمين بجامعة إبراهيم ، يؤلفون فيما بينهم أربع جماعات ، حيث تتكون كل جماعة من ٥٠ فرداً . والجدول التالى يوضح أنواع هذه الجماعات :

عدد الطلبة	الكلية التى تخرج فيها الطالب
٥٠	كلية العلوم
٥٠	كلية الآداب
٥٠	كلية دار العلوم
٥٠	كلية اللغة العربية
٢٠٠	المجموع

الاستفتاء وطريقته

تتكون مادة الاستفتاء من أسماء عشرة شعوب أجنبية ؛ رُتبَت - قبل عرضها على الطلبة - بطريقة عشوائية موضوعية لا تتأثر بالعوامل الذاتية التى تنبع من طريقة الباحث فى الترتيب . واتجاهه الذى قد يؤثر على اتجاهات أفراد العينة التجريبية .

ثم طلب إلى كل فرد أن يُرتَّب الشعوب التالية ترتيباً يدل على درجة ميله وفنوره نحو كل منها :

« ألمانيا - إنجلترا - سويسرا - أمريكا - إسبانيا - اليونان - السويد - هولندا - إيطاليا - فرنسا »

ثم عليه بعد ذلك أن يرمز لطبقات الترتيب بأرقام تبدأ بالواحد الصحيح وتنتهى بعشرة ، بحيث يدل الواحد على أحب شعب ، وتدل العشرة على أبغض شعب .

رصد نتائج الاستفتاء

ولقد رصدت نتائج الاستفتاء فى جدول تدل صفوفه الرأسية على الدرجات التى اختارها كل فرد لكل شعب ، وتدل صفوفه الأفقية على الدرجات التى أُختيرت لكل شعب من كل فرد .

والجدول التالى يوضح مثالا لرصد نتائج خمسة أفراد من العينة التجريبية :

الأفراد					
الشعوب	١	٢	٣	٤	٥
ألمانيا	٧	١	١	١	١
إنجلترا	٩	١٠	١٠	١٠	٩
سويسرا	٨	٢	٢	٢	٦
أمريكا	٢	٥	٣	٦	٢
إسبانيا	٦	٦	٤	٧	٧
اليونان	١	٧	٥	٦	٨
السويد	٤	٣	٦	٥	٣
هولندا	٣	٢	٨	٤	٤
إيطاليا	٥	٨	٧	٨	٥
فرنسا	١٠	٩	٩	٩	١٠

التحليل الاحصائي لنتائج الاستفتاء

لاضير على الباحث في أن يحسب متوسطات الصفوف الأفقية ليصل بذلك إلى ترتيب الدول المختلفة وفقاً لتلك المتوسطات . لكن الاعتماد الكلى على مثل هذا الترتيب خليقٌ بأن يميل بالباحث بعيداً عن جوهر الحقيقة . ذلك بأن وحدات المقياس التي تدل على هذا الترتيب ليست وحدات علمية متساوية في تدرجها كمتساوى وحدات السنتيمترات في قياس الأطوال .

لذلك استعان المؤلف بطريقة هـل^(١) C. L. Hull في توزيع ترتيب الدول على قاعدة المنحنى المعياري ، توزيعاً طويلاً يعتمد في جوهره على وحدات الانحراف المعياري^(٢) .

ويقتضى هذا التحليل تحويل كل رقم من الأرقام التي اختارها الأفراد للشعوب المختلفة ، إلى نسب مئوية معيارية وذلك بتطبيق المعادلة التالية :

$$\frac{100 \times (r - 20)}{c} = \text{النسبة المئوية المعيارية}$$

حيث تدل (ر) على الأرقام التي اختارها الفرد للشعوب المختلفة ؛
وتدل (ع) على عدد هذه الشعوب .

1. Hull, C. L., Aptitude Testing, 1928, P.P. 382 ff.

(٢) ١ — تدل الانحرافات المعيارية على درجة تشتت توزيع الاستجابات .

ب — إذا كان مدى الانحرافات المعيارية يعتمد من (- ٢٠) إلى (+ ٢٠) بالنسبة للمتوسط ، فإن طول المقياس يصبح مساوياً لخمس وحدات معيارية . هذا ويمكن تقسيم كل وحدة من تلك الوحدات إلى قسمين متساويين ، وبذلك يصبح المجموع مساوياً لعشر وحدات .

والجدول التالي يوضح مثالا لتحويل نتائج الجدول السابق إلى نسب مئوية معيارية :

الأنفراد					
	٥	٤	٣	٢	١
ألمانيا	٦٥	٥	٥	٥	٥
إنجلترا	٨٥	٩٥	٩٥	٩٥	٨٥
سويسرا	٧٥	١٥	١٥	١٥	٥٥
أمريكا	٢٥	٢٥	٢٥	٤٥	١٥
اسبانيا	٥٥	٦٥	٣٥	٥٥	٦٥
اليونان	٥	٦٥	٤٥	٥٥	٧٥
السويد	٣٥	٢٥	٥٥	٤٥	٢٥
هولندا	١٥	٣٥	٧٥	٣٥	٣٥
إيطاليا	٤٥	٧٥	٦٥	٧٥	٤٥
فرنسا	٩٥	٨٥	٨٥	٨٥	٩٥

ثم حوّلت هذه النسب المئوية المعيارية إلى درجات تنتظم في مقياس طولى معيارى وذلك بالاستعانة بجدول إحصائى خاص ^(١).

والجدول التالي يوضح مثالا لتحويل نتائج الجدول السابق إلى درجات المقياس الطولى المعيارى : -

1. Guilford, J.P., Psychometric Methods, 1936, P.249, Table 43.

الشعوب	الأفراد				
	٥	٤	٣	٢	١
ألمانيا	١,٨	١,٨	١,٨	١,٨	٥,٨
إنجلترا	٧,٠	٨,٢	٨,٢	٨,٢	٧,٠
سويسرا	٥,٣	٣,٠	٣,٠	٣,٠	٦,٣
أمريكا	٣,٠	٣,٧	٣,٧	٤,٨	٣,٧
اسبانيا	٥,٨	٥,٨	٤,٣	٥,٣	٥,٣
اليونان	٦,٣	٥,٣	٤,٨	٥,٨	١,٨
السويد	٣,٧	٤,٨	٥,٣	٣,٧	٤,٣
هولندا	٤,٣	٤,٣	٦,٣	٤,٣	٣,٠
إيطاليا	٤,٨	٦,٣	٥,٨	٦,٣	٤,٨
فرنسا	٨,٢	٧,٠	٧,٠	٧,٠	٨,٢

ثم حُسبت بعد ذلك متوسطات الصفوف الأفقية . وبذلك أسفر البحث عن المقاييس الطولية العلمية للتباعد النفسى الاجتماعى القائم بين الأفراد والشعوب الأجنبية .

النتائج النهائية

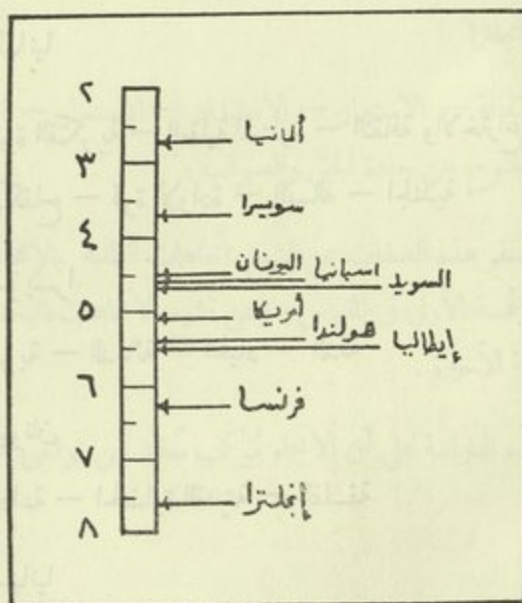
يوضح الجدول التالى الدرجات التى تدل على مدى تباعد كل شعب من الشعوب الأجنبية بالنسبة لمقياس التباعد الطولى المعيارى .

هذا وقد رمزنا لطلبة كلية العلوم بالرمز (أ) ، ولطلبة كلية الآداب بالرمز (ب) ، ولطلبة كلية دار العلوم بالرمز (ج) ، ولطلبة كلية اللغة العربية بالرمز (د) .

ورصدنا نتائج المتوسط العام لجميع هذه الجماعات فى الصف الرأسى السادس من الجدول ، ورصدنا الترتيب النهائى للشعوب فى الصف الأخير ، كما يلى : -

الترتيب	المتوسط العام	د	ج	ب	ا	الجماعات
						الشعوب
١	٢,٧	٢,٧	٢,٥	٢,٩	٢,٨	ألمانيا
٢	٣,٧	٣,٥	٣,٧	٣,٨	٣,٨	سويسرا
٣	٤,٥	٤,٢	٤,٥	٤,٧	٤,٦	اليونان
٤	٥,٦	٤,٤	٤,٤	٤,٦	٥,٢	إسبانيا
٥	٤,٧	٤,٨	٤,٨	٤,٦	٤,٥	السويد
٦	٥,١	٥,٥	٥,١	٥,٢	٤,٧	أمريكا
٧	٥,٤	٥,٦	٥,٦	٥,٤	٥,١	هولندا
٨	٥,٥	٥,٦	٥,٧	٥,٣	٥,٥	إيطاليا
٩	٦,٣	٦,٢	٦,٤	٦,٠	٦,٦	فرنسا
١٠	٧,٦	٧,٦	٧,٦	٧,٦	٧,٥	إنجلترا

ثم رُسم المقياس الطولى المعيارى الذى يبدأ بأحب الشعوب وينتهى بأبغضها كما فى شكل (٢٨).



(شكل ٢٨)
التباعد النفسى الاجتماعى بين طلبة الجامعات المصرية
والشعوب الأجنبية

تعقيب

تدل نتائج مقياس التباعد النفسى الاجتماعى على أن الشعب الألماني أحب الشعوب بالنسبة للطلبة ، وأن إنجلترا أبغضها . وتدل أيضا على أن اليونان وإسبانيا والسويد تكاد جميعها تقع فى منطقة واحدة بالنسبة للمقياس . ويحتل الشعب الأمريكى مركزاً وسطاً بالنسبة للشعوب المختلفة .

وبما أن نقطة بدء المقياس تساوى ٢,٧ ونهايته تساوى ٧,٦ ؛ إذن فالمدى الذى يحتوى على جميع هذه الشعوب يساوى ٤,٩ . وهو مدى ضيق متقارب الحدود .

هذا ولقد اقترن هذا البحث بدراسة العوامل والأسباب التى أثرت فى تنظيم هذا الترتيب فطلب إلى كل فرد من أفراد العينة التجريبية أن يذكر الأسباب التى حدث به إلى تفضيل شعب على آخر . ثم رُصدت النواحي المختلفة التى أثرت فى اختيار الأفراد لمراتب الشعوب . وتتلخص هذه الأسباب فيما يلى :

١ - ألمانيا

القوة الفكرية - العقلية الممتازة - الثقافة والاختراع - الصراحة -
الكفاح - قوة الإرادة - البسالة - الجندية .

٢ - سويسرا

الحرية - الدمثة - الحياد - الدقة

٣ - اليونان

الوداعة - الحضارة القديمة - الفلسفة

٤ - إسبانيا

المخاطرة - صلة العرب بها قديماً

٥ - السويد .

الرياضة - الحياد - المستوى الاجتماعي الممتاز .

٦ - أمريكا

الاختراع - الصناعة - التجديد - الديمقراطية - مساعدتها لليهود .

٧ - هولندا

النهضة الزراعية - الاستعمار

٨ - إيطاليا

الفن والموسيقى - الاستعمار - الجُبن .

٩ - فرنسا

الثقافة - التعصب - الاستعمار - الانحلال الخلق العام .

١٠ - إنجلترا

الثقافة - الاستعمار - الاستبداد - الاستعمار - الجمود العاطفي -

الجنوح عن جادة الحق والصواب .

وهكذا تُسفر هذه الصفات عن تشبع اتجاهات الطلبة بالإعجاب والحب والميل نحو الشعوب الخمسة الأولى في المقياس ، وعن تشبع الاتجاهات بالبغض والنفور بالنسبة للشعوب الثلاثة الأخيرة .

وتدل هذه الدراسة على أن الاتجاه مُركب مُعقّد من نواحي عدة مختلفة .

المراجع

١ - الدكتور مصطفى زيور سيكولوجية التعصب - مجلة علم النفس ١٩٥٢

مجلد ٧، عدد ٣

2. Allport, G.W., and Kramer, B. M., Some Roots of Prejudice, J. Psychol., 1946, 22, P.P. 9-39.
3. Andrews, T G., Methods in Psychology, 1948.
4. Bogardus, E S, Immigration and Race Attitudes, 1920.
5. Cantril, H. Gauging Public Opinion, 1944.
6. Cantril, H., Attitudes and Opinions, in Foundations of Psychology (edited by Boring, E.G. and others) 1948, P.P. 568-588.
7. Careson, H. B., Attitudes of Undergraduate Students, J. Soc. Psychol., 1934, 5, P.P. 202-213.
8. Chi, P.L., Statistical Analysis of Personality, J. Exper. Educ., 1937, 5, P.P. 229-245.
9. Clarke, H., Conscions Attitudes, Amer. J. Psychol., 1911, 22, P.P. 214-249.
10. Dodd, S. C, A Social Distance Test in the Near East, Amer. J. of Sociology, 1935, 41, P.P. 194-204.
11. Eysenck, H J., General Social Attitudes, J. Soc. Psychol., 1944, 19, P.P. 207-227.
12. Eysenck, H. J., Uses and Abuses of Psychology, 1953, P.P. 243-300
13. Faris, E., Attitudes and Behavior, Amer. J. of Sociol., 1928, 34, P.P. 271-281.
14. Ferguson, L. W., Primary Social Attitudes, J. of Psychol., 1939, 8, P.P. 217-223.
15. Ferguson, L.W., The Measurement of Primary Social Attitudes J. of Psychol., 1940, 10, P.P. 199-205.
16. Frenkel - Brunswik, E., A Study of Prejudice in Children, Human Relations, 1948, 1, P.P. 295-306.
17. Freyd, M., The Graphic Rating Scale, J. Educ. Psychol., 1923, 14, P.P. 83-102.

18. Gallup, G., A Guide to Public Opinion Polls, 1944.
19. Gellerman, S.W., The Relation between Attitudes and a Projected Thema of Frustration by Parents, *J. Soc. Psychol.*, 1951, 34, P.P. 183-190.
20. Hartley, E.L., Problems in Prejudice, 1946.
21. Hofstaetter, P.R., A Factorial Study of Prejudice, *J. of Personality*, 1952, 21, P.P. 228-239.
22. Johnson, M., A Preliminary Study of Social Attitudes, *Brit. J. Educ., Psychol.*, 1942, 12, 183.
23. Katz, D., and Allport, F.H., Students' Attitudes, 1931.
24. Richardson, M. W., and Kuder, G.F., Making a Rating Scale that Measures, *Personnel J.*, 1933, 12, P.P. 36-40.
25. Sanai, M., An Experimental Study of Social Attitudes, *J. Soc. Psychol.*, 1951, 34, P.P. 235-264.
26. Seashore, R. H., and Hevner, K., A Time Saving Device for the Construction of Attitude Scales, *J. of Soc. Psychology*, 1933, 4, P.P. 366-372.
27. Shoben, E.J., The Assessment of Parental Attitudes to Child Adjustment. *Genet. Psychol. Monogr.*, 1949, 39, P.P. 101-148
28. Vaughan, W. J., An Experimental Study in Political Prejudice, *J. Abn. Soc. Psychol.*, 1930, 25, P.P. 268-274.
29. Vernon, P.E., Personality Tests and Assessments, 1953.
30. Wallis, W.D., The Prejudice of Men, *Amer. J. Sociol.*, 1929. 34 P.P. 804-821.
31. Williams, R.M., The Reduction of Intergroup Tensions, *Social Science Res. Council Bull.*, 1944, 57.
32. Young, K., Social Attitudes, 1931.

الفصل الثالث عشر

الدوافع العامة المسكتسبة المعيارية

الإطار النفسى والمعايير الاجتماعية

مقدمة :

يرى الإنسان الكون ويدركه من زاوية بشرية بحتة ، وهو يتخذ نفسه مقياساً لما يرى ويدرك ، ثم يتخذ من الجماعة التى ينتمى إليها إطاراً ينسب إليه أمور حياته المختلفة .

ولو قُدِّر للجسم البشرى أن يتطور تطوراً يزيد من عدد حواسه أو يزيد من مدى إدراك كل حاسة ، لتغير الكون الذى يحيط بالفرد ، ولأنفى نفسه فى كون غريب لا يكاد يمت إلى الكون الراهن بصلة ما .

فنحن نرى الكون من نافذة ضيقة محدودة الأبعاد . إطارها رهن بحواسنا . وكل حيوان يرى الكون من نافذة أخرى تختلف أبعادها باختلاف مدى تأثير حواسه بالأمواج المختلفة المنتشرة فى رحاب الكون .

فالكلب مثلاً ، لا يرى من الألوان المنتشرة فى الكون إلا ظلالاً سوداء تختف شدة باختلاف أنواعها . والخفاش يسمع من الأصوات ما تعجز الأذن البشرية عن سماعه ^(١) . وبعض الديدان تدرك الأبعاد المكانية بالتأثيرات الحرارية التى يستجيب لها جسمها ^(٢) .

1. Fox, H.M., The Personality of Animals, 1932, Chapters 3 and 4

2. Mach, E., Space and Geometry, 1906.

والفرد يعيش في قيود الزمن والمكان والثقافة القائمة . ويُحدد له الزمن ماضيه وحاضره ومستقبله . ويُحدد له المكان أبعاده الممتدة في الفراغ . ويمتزج الزمن والمكان معا في حركة ينسب إليها الفرد أمور حياته المتغيرة ويرى الكون من خلالها ، وتنشأ له الثقافة معايير ومقاييسه وأنماط سلوكه وتتصل المعايير بالمثل العليا الخلقية وتتفاعل معها حتى تصبح قِيما مرعية ودرساتير قائمة ، فتهديه بذلك إلى ما يحلّ له أن يفعل ؛ وما لا يحلّ له .

وبذلك تعتمد اتجاهات الفرد على الإطار القائم والمعايير والقيم . فالاتجاهات لا تنطلق في فراغ وإنما تسعى وتنشط في حدود زمنية مكانية ثقافية ، وتخضع في جوهرها للعلاقات الاجتماعية القائمة .

فالإطار النفسى والمعايير والقيم ، تهدى الدوافع - متفرقة كانت أم مجمعة - إلى حدودها الدنيا والعليا ، وإلى غاياتها القريبة والبعيدة .

١ - الإطار النفسى

معنى الإطار النفسى

يدل الإطار النفسى في معناه العام على العوامل الموضوعية والذاتية التى تؤثر في إدراك الفرد للأشياء ، وفي اختياره للنواحي المختلفة التى يدركها من البيئة المحيطة به ، وفي صبغه لهذه النواحي بصبغة خاصة مميزة .

والفرد ينسب كل ما يدرك إلى إطار خاص ، ويقيم بين هذا الإطار وبين الأشياء المحيطة به علاقات عدة . وتؤثر تلك العلاقات على سلوك الفرد ، وعلى نواحي توجيهه لهذا السلوك .

الحركة الذاتية

ولقد أسفرت التجارب المختلفة التي قام بها شريف M. Sherif^(١) في دراسته لظاهرة الحركة الذاتية^(٢)، عن أن الفرد يميل إلى إنشاء إطار نفسي داخلي حيناً لا يجد إطاراً خارجياً ينسب إليه المظاهر المختلفة التي تحيط به . ويتذبذب الإطار النفسي في نشأته الأولى وتباين تقديراته تبايناً واسعاً عريضاً ثم تهدأ هذه الحركة ، ويضيق هذا التباين ، ثم يثبت الإطار على نهج واضح مستقر .

وتقوم دعائم هذه الأبحاث على دراسة ظاهرة الحركة الذاتية التي تصاحب الأضواء الضعيفة الخافتة في الظلام الحالك . وتتلخص تجارب شريف في مواجهة أى فرد بنقطة صغيرة مضيئة لفترة قصيرة في حجرة مظلمة . وسيرى الفرد أن هذه النقطة تتحرك في نطاق لا يستقر في حدوده ، ثم لا يلبث أن يثبت على طول خاص لا يتعداه . وعلى الفرد أن يكتب بعد ذلك تقديره لطول الحركة التي شاهدها .

ولقد لاحظ شريف أن لكل فرد تقدير خاص ، لا يحول عنه مهما أعيدت عليه التجربة .

الإطار الجماعي

وعند ما يجتمع الأفراد الذين اشتركوا في هذه التجربة من قبل؛ لمشاهدة التجربة معاً في مرحلتها الثانية فإنهم يختلفون بآدى ذى بدء في تقديراتهم لمدى الحركة . ويحاول كل واحد منهم أن يؤكد صحة تقديره ، ثم لا يلبثوا أن يستقروا على تقدير عام يقرونه جميعاً رغم تباين تقديراتهم السالفة . وبذلك يتحول الإطار الفردى إلى إطار جماعى . وهكذا يخضع الفرد في أحكامه لمعايير الجماعة .

1. i. Sherif. M., The Psychology of Social Norms, 1936, Chapter 6, P.P. 89 — 112.

ii. —, An Outline of Social Psychology, 1948, Chapter 7, p.p. 156 — 201.

2. Autokinetic Phenomena.

وعند ما أُعيدت هذه التجربة على جماعة أخرى من الأفراد الذين لم يشتركوا من قبل في التجارب الفردية . ظهر الإطار الجماعى بعد فترة زمنية وجيزة . إذن فاشترك أفراد الجماعة في التجارب الفردية التى تسبق التجربة الجماعية ، يؤخر ظهور الإطار الجماعى .

ولقد رجع العلماء إلى كل مظنة من مظان التوسع في ميدان هذه الأبحاث ، فأسفرت نتائج دراساتهم^(١) عن نفس العوامل التى تؤثر في ظهور الإطار الجماعى كما كشفها شريف في تجاربه السابقة .

٢ — المعايير الاجتماعية

معنى المعايير الاجتماعية

تدل نتائج التجارب السابقة على أثر التفاعل الاجتماعى القائم بين الأفراد في ظهور المعايير الاجتماعية . وتدل أيضا على مدى خضوع هؤلاء الأفراد للمعايير التى أنشأوها واصطلحوا عليها .

فالمعايير — بهذا المعنى — إطارات جماعية، ثبتت واستقرت في نفوس الأفراد ، واكتسبت صبغة انفعالية راسخة مقننة^(٢) .

(١) راجع — على سبيل المثال — الأبحاث التالية التى تدل على تأثير الفرد في إدراكه للألوان والأنقال والأصوات بمعايير الجماعة :

i Helson, H., Adaptation — Level as a Basis for a Quantitative Theory of Frames of Reference, Psychol. Rev., 1948, 55, p.p. 297 — 313.

ii- Tresselt, M E., The Effect of the Experiences of Contrasted Groups upon the Formation of a New Scale of Judgment, J. Soc. Psychol. 1948, 57, P.P. 209 — 216.

iii- Long, L., A Study of the Effect of Preceding Stimuli upon the Judgment of Auditory Intensities, Arch. Psychol., 1937. 30, No-209, P.P. 1 — 57.

(٢) راجع ص ٢٤٩

المعايير والثقافة

تنتشر هذه المعايير وتقوى ، وتُصبح بذلك دعامة من دعائم الثقافة القائمة . ويتسع تأثيرها ويزداد قوة حينما يضاف عليها الأفراد ألواناً عاطفية مختلفة ، وحينما يخضعون لها خضوعاً مباشراً يهيمن على حياتهم من قريب أو بعيد .

ولقد حاولنا ، في مستهل هذا الكتاب أن نلّم بأنواع العلاقات الاجتماعية المختلفة ^(١) ، وبينا مدى تأثير الفرد بالثقافة ومدى تأثيره فيها . وتناولنا تلك العلاقات الثقافية الفردية الجماعية ، بشيء من التحليل التمهيدي الموجز . ونعود الآن لنرقى صعداً بتحليلنا السابق حتى يصل إلى غاياته المرجوة .

ويُعرف تيلور Tylor ^(٢) الثقافة بأنها ذلك الكل المركب المعقد الذي يشمل المعلومات والمعتقدات والفن والخلق والقانون والتقاليد والعرف والعادات ، وكل ما يكتسبه الإنسان . والثقافة عند لينتون R. Linton ^(٣) وعند لوي Lowie ^(٤) وعند كروبر Kroeber ^(٥) تشمل جميع نواحي التراث الاجتماعي البشري أى كل ما يميز الحياة الاجتماعية عند الإنسان عن الحياة الاجتماعية عند بقية الحيوانات ؛ أى كل ما يكتسبه الفرد من الأفراد الآخرين خلال حياتهم الراهنة ، ومن سيرهم وأعمالهم التي تهبط إليه عبر الزمن ، وكل ما يضيفه الفرد لهذا التراث الاجتماعي . وتستمد هذه التعاريف مقوماتها من الارتباط الوثيق القائم بين الثقافة والمجتمع . فلا وجود للثقافة دون مجتمع إنساني ، ولا وجود لهذا المجتمع دون ثقافة ما .

والثقافة عند بعض علماء التربية ^(٦) . تقوم على أربعة أركان تتلخص في الدين

(١) راجع ص ٨١ — ٨٢ .

2. Vide, Kroeber, A.L., Anthropology. 1948, p.p. 311—343.

3. Linton, R., The Cultural Background of Personality, 1945.

4. Kroeber, A.L., Loc. Cit.

5. Kroeber, A. L., Loc. Cit.

(٦) سير فرد كلارك ، التربية والثقافة ، صحيفة التربية ، يوليو سنة ١٩٤٩ ، ص ٢٢ — ٢٧

والمهنة ، والعلم ، والسياسة . فالدين بمعناه العام يهيمن على حياة الناس ويؤثر في السلوك الاجتماعي للفرد . وللمهنة ، مهما كان طابعها الخاص ، أثر قوي في لون الثقافة التي يدين بها الفرد وتدين بها الجماعة . وللعلم أثره البارز في كل مميزات وخواص الحياة الإنسانية . وتقوم الأمور السياسية ، في جوهرها ، على التفاعل القائم بين الأفراد والجماعات والثقافات المختلفة .

وبذلك يتفق أغلب العلماء^(١) على وصف الثقافة بأنها تراث اجتماعي مكتسب ينتقل من جيل إلى جيل ، ويساعد الإنسان في نواحي إشباع الدوافع البيولوجية والنفسية ، ويتكيف هذا التراث لألوان البيئات المختلفة ، ويتكامل في كل عام متنسق التكوين والبنية .

ولقد حاول مور O.K. Moore ولويس D.J. Lewis^(٢) أن يُعرِّفا الثقافة تعريفاً منطقياً رياضياً يتفق وجوهر التعريفات السابقة ، فذهبا إلى أن :

« (س) يتعلم (ث) من (ص) ،

وأن (س) لا تساوى (ص) . »

حيث تدل (س) على أى فرد في أى زمن وأى مكان ، وتدل (ص) على فرد آخر في أى زمن وأى مكان ، وتدل (ث) على أى عنصر من عناصر الثقافة .

هذا ولا يتسع مجال هذا الكتاب لتحليل « دالة القضية »^(٣) التي تقوم على دعائمها دراسات مور ولويس . وعلى الذين يريدون متابعة هذا البحث أن يرجعوا إليه في مصادره الرئيسية .

1. Murdock, G. P., Uniformities in Culture, Amer. Sociol. Rev. 1940, 5, P.P. 361—369.
2. Moore, O. K., and Lewis, D. J., Learning Theory and Culture, Psychol. Rev., 1952, 5, P.P. 380—388.
3. "Propositional Function."

أنواع ونماذج الثقافة

تنقسم أنواع الثقافة ونماذجها إلى عامة ، ومذهبية ، وجماعية ، وتنظيمية^(١) .

فأما العامة فتتطوى على جميع العناصر المشتركة التى تقوم على دعائمها كل الثقافات المختلفة . وهى بذلك تشمل النواحي المعنوية والمادية التى تميز النوع الإنسانى كله ، عن جميع أفراد المملكة الحيوانية . ومن أمثلتها اللغة ، والملبس ، والطبوس الدينية .

وأما المذهبية فتتكون من مجموعة من العناصر الثقافية التى تؤلف بين الذين يعتقدون مذهباً خاصاً ، كالمذاهب الدينية والمذاهب السياسية المختلفة .

وأما الجماعية فتتطوى على الألوان الثقافية المختلفة التى تميز مجتمعاً ما عن مجتمع آخر . فالثقافة المصرية الراهنة ، مثلاً ، تقوم على تفاعل الثقافة الفرعونية القديمة ، مع الثقافة العربية الإسلامية ، والثقافة الغربية العالمية . وتختلف الثقافات الإقليمية باختلاف نصيب كل منها من النسب المختلفة القائمة بين هذه المقومات . ويغلب الطابع الفرعونى العربى على سكان الوجه القبلى ويبعدو ذلك فى تفاؤلهم وتشاؤمهم وأساطيرهم وخرافاتهم . ويغلب الطابع العربى الأوربى على سكان الوجه البحرى^(٢) .

وبعض القبائل البدائية كقبائل التروبرياندى Trobriand^(٣) تقيم معايير اجتماعية حادة فى وصفها للبناء . وتقر تلك المعايير تشبيه الإبن بأبيه لسكنها تحريمًا قاطعاً تشبيه الإبن بأمه أو بإخته أو بأخيه . وهذا لون طريف من ألوان الثقافات الجماعية ينطوى على حرّمات تسيطر على الأفراد رغم تناقضها المنطقى .

وقبائل الأندامان Andaman^(٤) لا تعرف التقويم الفلكى الذى يصطلح عليه

1. i Kroeber, A.L., Anthropology, 1948, P. 329.

ii Benedict, R., Patterns of Culture, 1934, Chapter 1.

2. El-Koussy, A. H., Social and Cultural Changes in Egypt and their Relationship to Mental Health, Beirut Seminar for Mental Health, W.H.O., 1953.

3. Malinowski, B., The Father in Primitive Psychology, 1927, P.P. 87—92.

4. Radcliffe-Brown, A., The Andaman Islanders, 1922.

الناس في حسابهم لفصول السنة، بل تدرك الزمن إدراكاً يعتمد في جوهره على عبق الزهور التي تتفتح في كل فصل من فصول العام .

وهكذا يقيم كل مجتمع لنفسه معايير خاصة تميزه عن المجتمعات الأخرى . فالمعايير أمور نسبية تختلف في معناها وحدودها من مجتمع لآخر . وبذلك فالجنوح بعيداً عن صراط تلك المعايير، أمر نسبي . فالسلوك الشاذ في مجتمع ما ، قد يكون سلوكاً سوياً بالنسبة لمعايير مجتمع آخر .

وأما التنظيمية فتشمل سياسة الحكم ، وأساليب الحروب والتنظيم الاقتصادي . فالربا مثلاً من مستلزمات التنظيم الاقتصادي المالى في أكثر الدول . والإسلام لا يقر هذا الأسلوب وإنما يرسم لنفسه نظاماً مالياً آخر . فالتنظيم ينطوى على الأسلوب الذي نتخذه ونقره للوصول إلى أهدافنا في علاقاتنا البشرية المختلفة .

هذا وقد تُقر الجماعة تنظيماً من التنظيمات القائمة . فتلزم حدوده وتتبع منهجه ، ثم تعصف بها نزعة التغيير فتتحول عنه إلى تنظيم آخر . وتبدو هذه الظاهرة فيما يطرأ على معايير الفن والعلم من تحول وتغير يمتد جيلاً بعد جيل ، وعصراً بعد آخر .

* * *

٣ - القيم الاجتماعية

تروى الأساطير أن راهباً لقي الشيطان في جوار صومعته ، فأوسع ضرباً ، ثم شد وثاقه ، ثم حمله على ظهره ليلقيه في اليم غريقاً ، فينقذ بذلك العالم كله من شروره وغواياته . وبينما هو في طريقه ، فرحاً بما أصاب ، إذ صاح به الشيطان مؤكداً إن حياة الراهب رهن بحياة الشيطان ، وإن الخير يدين للشر بوجوده . فأرعوى الراهب ، وثاب إلى رشد ، وأطلق سراح الشيطان .

وآية ذلك كله ؛ أن الخير والشر صنوان . يشتق كل منهما معناه من الآخر ؛

ومن المعايير التي تحددها الثقافة القائمة ، ومن المجتمع الذي يرسم لها الأركان والدعائم .
ومعايير الخير والشر قيم اجتماعية ، تقبلها الجماعة وترضاها لنفسها ، وتُلزم الفرد
اتباع مسالكها ودروبها .

وتقوم القيم الاجتماعية - في جوهرها - على صبغة انفعالية عامة ، تفيض
من الناس وتتركز حول شيء خاص . فقيمة الرأية التي يرفعها الناس رمزاً لوطهم
لا تكن في نسيجها أو في لونها ، بل تستقر في المعنى الرمزي العاطفي الذي تهدف إليه .
والجندی الذي يستشهد في سبيل هذه الرأية ، إنما يفعل ذلك بدافع قوى حاد يملك
عليه شعاب نفسه . وهكذا يشتق هذا الدافع وجوده من القيم التي ترمز لها تلك الرأية .

فالقيم بهذا المعنى ، معايير اجتماعية ذات صبغة انفعالية قوية عامة ؛ تتصل من
قريب بالمستويات الخلقية التي تقدسها الجماعة . ويمتصها الفرد من بيئته الخارجية
الاجتماعية ، ويقيم منها موازين يروّز بها أفعاله . ويتخذها هادياً ومرشداً نصوحاً
لترقى به صعداً إلى صراط لا عوج فيه ولا تنواء ، ولتنأى به بعيداً عن كل جنوح
تحرّمه الجماعة . وتنتشر هذه القيم في حياة الأفراد ، فتحدد لكل منهم خلاّنه
وأصحابه وأعداءه .

وتتنظم هذه القيم في كل عام متنسق التكوين والبنية ؛ يهيمن على حياة الفرد
من قريب وبعيد ، ويحدده نواحي اتجاهاته وتعصبه . فهي بهذا إطار نفسي اجتماعي
معياري مُقنن .

وتدل تجارب شتينر I. D. Steiner⁽¹⁾ على أن هذه القيم الاجتماعية تختلف
باختلاف الجماعات التي ينتسب إليها الفرد . وبذلك فعلى الباحث الذي يريد أن
يتنبأ بالقيم التي توجه سلوك الفرد ، أن يدرس القيم التي تقدسها الجماعات المختلفة التي
اتصل بها ذلك الفرد في مراحل نموه المتتابعة .

1. Steiner, I.D., Some Social Values Associated with Objectively
and Subjectively Defined Social Class Memberships, Social
Forces, 1953, 31, P.P. 327-332.

وتدل أبحاث سنترز R Centers^(١) على أن شعور الفرد بتبعيته لأية جماعة ، وما يتبع هذا من قيم مختلفة ، جزء جوهري من مكونات « الأنا » . ويتفق هذا الرأي وأبحاث شريف M. Sherif وكانتريل H. Cantril^(٢) التي تؤكد أن « الأنا » ماهى إلا تنظيم متسق من الاتجاهات . وبذلك فالأنا هى دعامة الفرد الاجتماعية .

وتتكون « الأنا العليا » أو الضمير من قيم مختلفة تفرضها على الفرد جماعته الأولية ، وما يشيع في جوها الاجتماعي من أوامر يتلقاها الطفل من والديه وهو في باكورة حياته . ثم تمضى به حياته في سُلّم النمو ، مرحلة إثر مرحلة ، فينهي نفسه عن الهوى ، كما كان يُنهي عنه من قبل .

قياس القيم الاجتماعية

قد تُقاس القيم الاجتماعية بالملاحظة العلمية الدقيقة لسلوك الأفراد في المواقف المختلفة ، ثم تُحوّل هذه الملاحظات إلى أرقام . أو بتسجيل حوار الناس في المواضيع الاجتماعية المختلفة ، ثم استنتاج القيم التي تكمن وراء تلك الأحاديث . أو باستفتاء الأفراد استفتاء يهدف في جوهره إلى استكشاف تلك القيم .

ولقد حاول دور M. Dorr وهافيجرست R J. Havighurst^(٣) قياس القيم الاجتماعية لجماعة من الأفراد يبلغ متوسط أعمارهم ست عشرة سنة . فطُلب إلى كل فرد أن يكتب في الموضوعات الثلاثة التالية :

١ — الشخصية التي يترسم خطاها ، ويتخذها نبراساً له في حياته .

٢ — مثله العليا ، ومصادرها .

1. Centers, R., The Psychology of Social Classes, 1949, P. 27.
2. Sherif, M., and Cantril, H., The Psychology of Ego-Involvements, 1947, P.P. 92—116.
3. Dorr, M., and Havighurst, R.J., Methods of Studying Values, in Havighurst, R.J., and Taba, H., Adolescent Character and Personality, 1949, Chapter 24, p.p. 292—302.

ثم قام الباحثان برصد استجابات الأفراد ، ثم رتبها ترتيباً إحصائياً معيارياً أدى إلى إنشاء مقياس علمي للقيم الاجتماعية لتلك العينة .

ولقد قورنت نتائج قياس القيم الاجتماعية بنتائج مقاييس : المكانة الاجتماعية للأفراد ، والتحصيل المدرسي ، والذكاء ؛ فأسفرت هذه الدراسة عن - معاملات الارتباطات التالية :

$$١ - \text{ارتباط القيم بالمكانة الاجتماعية} = ٠,٦١$$

$$٢ - \text{ارتباط القيم بالتحصيل المدرسي} = ٠,٦٦$$

$$٣ - \text{ارتباط القيم بالذكاء} = ٠,٤٨$$

وهكذا تُسفر هذه النتائج عن ارتباط موجب كبير بين القيم الاجتماعية ؛ والمكانة والتحصيل والذكاء . ولقد دلت الدراسات الفردية لتلك العينة التجريبية - على أن جميع الذين حصلوا على درجات عالية في مقياس القيم ، حصلوا أيضاً على درجات عالية في مقاييس المتغيرات الثلاثة الأخرى وأن جميع الذين حصلوا على درجات ضعيفة في مقياس القيم الاجتماعية حصلوا في مقاييس المتغيرات الثلاثة الأخرى على درجات متباينة لا تستقر على ارتفاع أو انخفاض .

هذا وما زالت هذه التجارب في طورها الأول ، وما زالنا في حاجة شديدة إلى بحث جميع آفاق هذا الميدان الناشئ بحثاً تجريبياً علمياً صحيحاً .

تعقيب

لم نحاول في دراستنا للدوافع أن تشيع لنظرية ما ، أونسير في ركب مدرسة خاصة ، أو مذهب معين ؛ بل حاولنا أن نقيم بحث الدوافع على دعائم صحيحة قوية ؛ فدرسنا الفرد والشخصية في إطار الحياة النامي المتطور ؛ وأكدنا للفردية نواحيها البيولوجية النفسية العددية ؛ وأكدنا للشخصية تأثيرها وتأثرها بالآخرين ، وتفاعلها المزدوج مع الثقافة القائمة بأنماطها المتعددة المختلفة .

وآية ذلك كله ، أن الفرد يشترك مع جميع أفراد النوع البشرى في صفات عامة تحدد إنسانيته ؛ ويشترك مع بعض الأفراد في صفات طائفية تحدد جماعته ؛ ويستقل وحده بصفات خاصة تميز فرديته . وبذلك فالدوافع التي تفسر أسباب سلوكه يجب ألا تهمل تلك النواحي الثلاث في تحليلها العلمى للحياة النفسية . فالغرائز تؤكد الصفات العامة . والمعايير والقيم تؤكدان الصفات الطائفية الجماعية . والاستقلال الوظيفي يؤكد الصفات الفردية . وأياً كان الرأى في جوهر الموضوع ، فالدراسة العلمية الموضوعية المنطقية تحيط بجميع هذه النواحي ، وتدفع عن كل منها غواشيتها التي تحجب حقيقتها ، وتظهرها من أوشالها وأوشابها ، ثم تنشى منها جميعاً وحدة عامة قوية مناسكة .

ولعل المستقبل القريب يحمل في طياته تطوراً جديداً لمشكلة الدوافع ؛ فيدرسها العلم من زاوية التكوين النفسى بنموذجه الشعورى واللاشعورى ؛ فيؤكد « للهو » ناحيته البيولوجية الفطرية وعقده المكتسبة ؛ ويؤكد للرقيب قيمة الاجتماعية ووازعه الخلقى ؛ ويؤكد « للآنا » اتجاهاتها النفسية ومعاييرها الاجتماعية . ثم يجمع كل أولئك في نظرية عامة جوهرية ، لا يعزب عنها مثقال ذرة من تكامل الشخصية في إطار الحياة الإنسانية .

فدراستنا ، بهذا المعنى ، دراسة بنائية إنشائية تهدف إلى تنسيق النظريات المختلفة لتضع حداً للتعارض القائم بين دعاة كل مذهب ، ولتسير قدماً بالعلم نحو آفاقه الجديدة المجهولة .

المراجع

1. Adams, H.F., Autokinetic Sensations, Psychol. Monog., 1912, 59, p.p. 32-44.
2. Bertocci, P.A., A Critique to Professor Cantril's Theory of Motivation, Psychol. Rev., 1942, 49, p.p. 365-385.
3. Cantril, H., The Psychology of Social Movements, 1941.
4. Cantril, H., Identification with Social and Economic Classes, J. of Ab. and Soc. Psychol., 1943, 38, p.p. 74-80.
5. Dollard, J., and Miller, N.E., Personality and Psychotherapy, 1950.
6. Kolb, W.L., Values, Positivism, and the Functional Theory of Religion: The Growth of a Moral Dilemma, Social Forces, 1953, 31, p.p. 305-311.
7. Linton, R., The Study of Man, 1936.
8. Luchins, A.S., On Agreement with Another's Judgment, J. Ab. and Soc. Psychol., 1944, 39, pp. 97-111.
9. Luchins, A.S., Social Influence on Perception of Complex Drawings, J. Soc. Psychol., 1945, 21, pp. 257-273.
10. Mead, M., The Coming of Age in Samoa, 1928.
11. Murphy, G., Historical Introduction to Modern Psychology, 1949, Chapter 27.
12. Newcomb, T.M., Social Psychology, 1952, Chapters 2 and 3.
13. Perry, R.B., General Theory of Value, 1926.
14. Piaget, J., The Moral Judgment of the Child, 1932.
15. Prall, D.W., A Study in the Theory of Value, 1918.
16. Robinson, J.H., The Mind in the Making, 1946, p.p. 47-48.
17. Sherif, M., An Experimental Approach to the Study of Attitudes, Sociometry, 1937, 1, p.p. 90-98.
18. Wells, E.F., The Effect of Attitude upon Feeling, Amer. J. Psychol., 1930, 42, p.p. 573-580.
19. Young, K., Handbook of Social Psychology, 1948, p. 123.

فهرس الموضوعات

مقدمة ٥

الباب الأول

دراسة تمهيدية

- ١٠ الفصل الأول : علم النفس الاجتماعي ، أهميته ، تعريفه ، تطوره .
أهمية علم النفس الاجتماعي (١٠) تعريفه (١١) نشأته وتطوره
(١٤) النشأة الفلسفية (١٤) وضوح الاتجاهات العلمية (١٨) الحرب
وآفاق العلم الجديدة (٢١) المراجع (٢٤) .

- ٢٥ الفصل الثاني : طرق البحث في علم النفس الاجتماعي
مقدمة (٢٥) الطريقة العلمية (٢٦) تجارب المعمل (٢٩) الملاحظات
العلمية (٣٢) الاستفتاء (٣٣) التخطيط الاجتماعي وديناميكية
الجماعات (٣٥) المجال والدراسة الكلية (٣٦) الطريقة المقارنة (٣٨)
الطريقة التتبعية (٣٩) المراجع (٤٠) .

- ٤١ الفصل الثالث : الحياة الاجتماعية عند الحيوانات
نشأة الحياة الاجتماعية (٤١) أهمية دراسة الحياة الاجتماعية عند
الحيوانات (٤١) الحياة الاجتماعية عند الحشرات (٤٢) الحياة
الاجتماعية عند الطيور (٤٣) الحياة الاجتماعية عند القردة (٤٤)
التقليد عند الحيوانات (٤٧) السيطرة عند الحيوانات (٤٩) الجماعة
الداخلية والجماعة الخارجية (٥٠) تلخيص للحياة الاجتماعية عند
الحيوانات (٥١) التفرقة بين الحياة الاجتماعية الإنسانية والحيوانية
(٥٢) المراجع (٥٥) .

الباب الثاني

العلاقات الاجتماعية

الفصل الرابع : وسائل الاتصال الاجتماعي ٥٦

أهمية اللغة (٥٦) اللغة والحواس (٥٦) اللغة اللفظية واللغة غير اللفظية (٥٧) تحليل سيكولوجي لتعبيرات الوجه (٥٨) أهمية الإشارات (٥٩) اعتماد اللغة اللفظية على الإشارات (٦٠) اللغة اللفظية (٦٠) الحوار والأنماط السيكلوجية (٦١) الحوار الظاهر والحوار الباطن (٦٢) النمو اللغوي عند الأطفال (٦٣) بدء اللغة غير اللفظية (٦٤) بدء اللغة اللفظية (٦٥) تدبذب النمو بين الإبطاء والإسراع (٦٦) العوامل التي تؤثر في النمو اللغوي عند الأطفال (٦٧) كمّ يتحدث الناس ؟ (٦٨) المراجع (٧٣) .

الفصل الخامس : أنواع العلاقات الاجتماعية ، دراسة تحليلية ٧٤

مدارج العلاقات عند الكائنات الحية (٧٤) أنواع العلاقات الاجتماعية (٧٧) حجم الجماعة وأثره في العلاقات الاجتماعية (٨٢) العلاقات الطولية والعلاقات المستعرضة (٨٤) المراجع (٨٥) .

الفصل السادس : أنواع الجماعات ودراسة تحليلية لبعض أنواع

التجمع ٨٦

مقدمة (٨٦) الموضوعية والذاتية (٨٦) الجزئية والكلية (٨٨) التقيد والحرية (٨٩) الاستقطاب (٨٩) الثبات (٨٩) الداخلية والخارجية (٩٠) الأولية والثانوية (٩١) دراسة تحليلية للاتصال الاجتماعي في الجماعات الأولية والثانوية (٩٤) الأنواع المختلفة للجماعات والفرد (٩٦) دراسة تحليلية لبعض أنواع التجمع ، الجمهرة (٩٧) تعريف الجمهرة وأنواعها (٩٧) الوباء العقلي (٩٨) الصفات والمظاهر النفسية للجمهرة (٩٩) الأبحاث التجريبية لسيكولوجية الجمهرة (١٠٣) الجماعة المستمعة (١٠٦) تمهيد وتعريف (١٠٦) عملية الاستقطاب (١٠٧)

الشروط اللازمة للاستقطاب (١٠٨) أثر مدى الانتباه في الاستقطاب
(١١١) أنماط الجماعات المستمعة (١١١) المراجع (١١٤) .

الباب الثالث

تفسير وقياس العلاقات الاجتماعية

الفصل السابع: العقل الجماعي ١١٦

مقدمة (١١٦) الجماعة أم الفرد (١١٧) العقل الجماعي (١١٩) نظرية
جوستاف ليبون (١٢٢) نظرية مكدوجل (١٢٣) نظرية فرويد
(١٢٥) نظرية مارتن (١٢٦) نظرية ألبرت (١٢٧) تعقيب ورأي
جديد (١٢٨) المراجع (١٣١) .

الفصل الثامن: النظرية الكلية الحيوية ١٣٢

مقدمة (١٣٢) النظرية الكلية (١٣٤) القوانين الكلية الحيوية
(١٣٨) تعقيب ودراسة (١٤٨) المراجع (١٥١) .

الفصل التاسع: نظرية المجال وديناميكية الجماعات ١٥٢

تمهيد (١٥٢) المجال النفس (١٥٣) دراسة مقارنة للمجالات المختلفة
(١٥٥) الدراسة التوبولوجية (١٥٨) حيز الحياة (١٦٤) ديناميكية
الجماعات (١٦٤) الآفاق الجديدة لنظرية المجال الديناميكي (١٦٨)
المراجع (١٧٢) .

الفصل العاشر: التخطيط الاجتماعي وقياس ديناميكية الجماعات ١٧٣

مقدمة (١٧٣) التخطيط الاجتماعي (١٧٤) التخطيط الاجتماعي
بنماة مصرية (١٧٥) التكوين العام للتخطيط الاجتماعي (١٧٥)
مصفوفات العلاقات الاجتماعية (١٧٨) طريقة المؤلف (١٧٨)
طريقة فورسيث وكاتز (١٨٥) طريقة فستنجر (١٨٥) التحليل
الاحصائي، الاختيار المقصود والاختيار العشوائي (١٨٧) النسبة
المئوية للتفاعل النفسي الاجتماعي (١٨٩) النسبة المئوية لثبوت الجماعة
(١٩٠) معامل التماسك الداخلي (١٩١) معاملات شدة العلاقات
(١٩٣) نتائج بعض الأبحاث التجريبية (١٩٧) المراجع (٢٠٠) .

الباب الرابع

الدوافع والعلاقات الاجتماعية

الفصل الحادى عشر : الدوافع ، دراسة تحليلية مقارنة ٢٠٢ . . .

مقدمة (٢٠٢) الدراسة الفسيولوجية والنظرية السلوكية (٢٠٥)
الدراسة التبعية والنزعات الفطرية (٢٠٦) دراسة الشكل الظاهرى
(٢٠٧) الدراسة الغائية للأهداف القريبة (٢٠٨) الدراسة الغائية
للأهداف البعيدة (٢١١) دراسة النمو والاستقلال الوظيفى (١٢٣)
دراسة الطفولة والحاجات النفسية (٢١٥) التصنيفات الأخرى
المختلفة للحاجات (٢١٨) التحليل السيكولوجى للحاجات (٢١٩)
مرونة الحاجات (٢٢١) ديناميكية الحاجات (٢٢٣) دراسة الطاقة
والنظرية الكلية الحيوية (٢٢٤) الدراسة الاحصائية والانفعالية
العامة (٢٢٦) الدراسة الديناميكية ومجال السلوك (٢٣٠) تعقيب
ودراسه (٢٣٩) المراجع (٢٤١) .

الفصل الثانى عشر : الدوافع العامة المكتسبة ، الاتجاهات والتعصب ٢٤٣

الاتجاهات النفسية (٢٤٣) تمهيد (٢٤٣) تعريف الاتجاه النفسى
(٢٤٣) مراحل تكوين الاتجاهات (٢٤٥) عوامل و شروط تكوين
الاتجاه (٢٤٦) الاتجاهات والعواطف (٢٤٨) أنواع الاتجاهات
(٢٥٠) التفسير السيكولوجى للاتجاهات (٢٥٣) نظرية كانتربل
(٢٥٣) التفسير التكوينى والوظيفى (٢٥٤) التفسير الديناميكي
(٢٥٥) التعصب (٢٥٦) التعصب والاتجاهات (٢٥٦) سيكولوجية
التعصب (٢٥٦) التعصب واحترام الذات (٢٥٦) التعصب وعشق
الذات (٢٥٧) التعصب والعدوان (٢٥٨) المظاهر والأسباب
الاجتماعية للتعصب (٢٥٩) وسائل مقاومة التعصب (٢٦٠) طرق
قياس الاتجاهات والتعصب (٢٦١) أهمية قياس الاتجاهات (١٢٦)
القياس التخمينى (٢٦٢) الطرق العلمية لقياس الاتجاهات (٢٦٣)
الاختيار (٢٦٣) التدرج (٢٦٤) تدرج مدى الاتجاه من النفي

إلى الإنبات (٢٦٤) تدريج مدى التباعد النفسى الاجتماعى (٢٦٥)
 التدريج المتجمع (٢٦٨) تدريج البنية الكامنة (٢٧١) المقارنة
 الازدواجية (٢٧٢) الترتيب (٢٧٥) دراسة تجريبية لاتجاهات طلبية
 الجامعات المصرية نحو الشعوب الأجنبية (٢٧٦) هدف التجربة
 ونتيجتها (٢٧٦) العينة التجريبية (٢٧٦) الاستفتاء وطريقته
 (٢٧٦) رصد نتائج الاستفتاء (٢٧٧) التحليل الاحصائى لنتائج
 الاستفتاء (٢٧٨) النتائج النهائية (٢٨٠) تعقيب (٢٨٢) المراجع (٢٨٤)

الفصل الثالث عشر : الدوافع العامة المكتسبة المعيارية ، النفسى

والمعايير الاجتماعية ٢٨٦

مقدمة (٢٨٦) الإطار النفسى (٢٨٧) معنى الإطار النفسى (٢٨٧)
 الحركة الذاتية (٢٨٨) الإطار الجماعى (٢٨٨) المعايير الاجتماعية
 (٢٨٩) معنى المعايير الاجتماعية (٢٨٩) المعايير والثقافة (٢٩٠)
 أنواع ونماذج الثقافة (٢٩٢) القيم الاجتماعية (٢٩٣) قياس القيم
 الاجتماعية (٢٩٥) تعقيب (٢٩٧) المراجع (٢٩٨) .

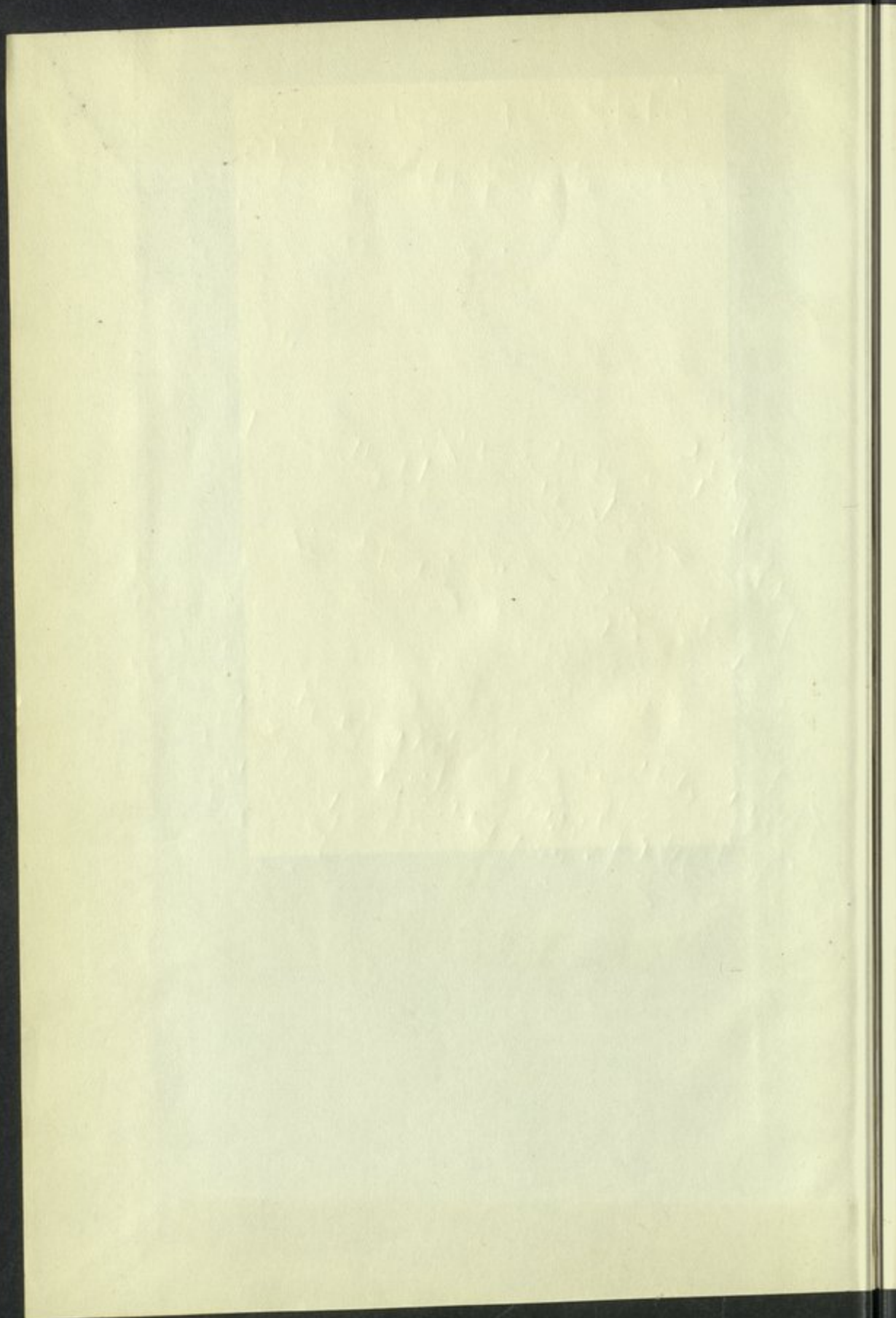
فهرس الأشكال التوضيحية

صفحة	
٧٥	العلاقات العرضية
٧٥	العلاقات الطبقية
٧٦	العلاقات العامة
٧٦	العلاقات المتبادلة
٧٧	العلاقات الاجتماعية
٧٨	تأثير الفرد بفرد آخر
٧٨	توضيح للعلاقات الفردية
٧٩	علاقة الفرد بالجماعة
٨٠	شبكة العلاقات الاجتماعية
٨١	علاقة الجماعة بجماعة أخرى
٩٧	الجمهرة في تجمعها
٩٨	الجمهرة في هروبها
١٠٧	التمهيد للاستقطاب
١٠٧	الاستقطاب الجزئي
١٠٨	الاستقطاب الكلي
١٥٨	الأشكال التوبولوجية
١٦٠	توبولوجية الطفل وأمه
١٦١	توبولوجية الطالب وهدفه
١٦٢	توضيح توبولوجي لمجال الرجل
١٦٣	توضيح توبولوجي للمجال الاجتماعي الرجل والمرأة

صفحة	
١٧٦	التخطيط الاجتماعى لجماعة مصرية
١٧٩	مصفوفة العلاقات الاجتماعية
١٨٢	مصفوفة مكتملة فى تناسقها
١٨٦	مربع مصفوفة العلاقات الاجتماعية
١٩٤	مصفوفة توضح نوع وشدة العلاقات الاجتماعية
٢١٠	التنظيم الهرمى للنزعات الفطرية
	التباعد النفسى الاجتماعى بين طلبة الجامعات المصرية والشعوب
٢٨١	الأجنبية

استدراك لآهم الأخطاء المطبعية

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٦	٩	به لعل	ولعل
٢٦	١٠	ولكى	به إلى
٦١	١٣	فمنهم المنطوى على نفسه ، وهو	فمنهم المنطوى على نفسه ، ومنهم المنبسط وهو



DATE DUE



301.15:Sa27iA:c.1

السيد: فؤاد البهي
علم النفس الاجتماعي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01029785

American University of Beirut



301.15
Sa 27iA

General Library

